الاقباط في القرن العشرين

الجزء الثاني

كتاب يبحث في اصل الاقباط وحضارتهم
ووطنيتهم ودستورهم وتاريخ عميدهم
المرحوم المغفور له
بطرس باشا غالى

تأليف

رمزى نادرس
محرر بجريدة مصر

طبع فى مطبعة جريدة مصر سنة ١٩١١

obeikandl.com

المقدمة

اخواني الاعزاء

ان تلك العاطفة الغريزية عاطفة العمل والجهاد التي طبعتم عليها وعرفتم بها دفعتني الى انجاز الجزء الثاني من مؤلفي باسرع ما يمكن لاضع امامكم صفحة من صفحات تاريخكم الحديث المجيد لا لتعرفوا منها فضل رجالكم على تمدين البلاد بل لتتداوموا على الاجتهاد والرصانه اللذين اظهرتموهما في كل عصر وكل جيل

واذا لم يجز لنا القول انكم كنتم دائما ومن كل الوجوه هداة الامة وركن نهضتها فلا ينكر انكم الآلات السعيدة التي استعملتها الحكومة ورعاياها لاسعاف اعمال التمدين وتحسين حاله المملكة المصرية وترقي سعادة ابنائها وتنوير أفكار العامة واقناعها بفساد خطة تلك الفئة الصياحة التي تريد سرعة التقدم بوسائل مضرة ومخطرة غايتها اعطاؤها كل شيء بالقول او تهدم كل شيء لتعود الى القديم الرث

وقد لا يجب ان يبرح من اذهانكم انكم ما دمتم مشتغلين بامر تحسين الحضارة في بلادكم ان تلك الصفحة المجيدة هي شرط من شروط وصولكم الى نهاية الطريق الذى تشتغلون فيه لانها تملأ النفوس حياة والصدور شمما والعقول ذكاء والعواطف اخلاصاً وتثبت أقدار

رجالكم الذين زرعوا الافكار الحرة فقضوا على القديم الرث وانموا غراس الوطنية الصحيحة الفعالة بعد ان توارت بل تثبت ان رجالكم رجال عمل وجهاد وأفكار واسعة وعقول رشيدة جعلتهم في مصاف اعظم نوابغ الغربيين الذين خدموا الانسانية باعمالهم ورفعوا شأن الامم بجهادهم وثاقب افكارهم

ولا شك ان انتشار هذه الصفحة التاريخية الحديثة بين ابنائكم مما يعين على زيادة تقدمهم ورفاهيتهم حيث يختبرون منها مقدرة نوابغهم وأعمالهم ونشأة اعظم رجالهم المرحوم المغفور له بطرس باشا غالي فيدركون كيف صرف قواه في خدمة بلاده وكيف عمل على تمدينها واستقلالها بالطرق المشروعة وكيف وصل الى اوج المجد بالعلم والفضل وقوة الذكاء وصفاء الذهن فيتابعون في سيرهم الغاية الوحيدة التي اتبعها وتنتهي اليها عوالم الارض الا وهي الحضارة مرمى انظار كل أمة حيه ومطمح أمال كل شعب كبير

واذا كانت هذه الغاية التي انهضت البلاد من سباتها وكبوتها وقال عنها المتمدنون انها روح حية في قلب وادي النيل فيجب ان تحافظوا عليها لتثبتوا لهم ان تلك الروح ستبقى فيكم الى الابد وانكم عاملون على خطوات نوابغكم لتصلوا ببلادكم الى الموقف الطبيعي الذى خلقت له من أول عهد الخليفة وعنده تقول عنكم الذرية سلام على ابائي واجلال لارواحهم الحية

أصل الاقباط ومصارهم

١

مرت على مصر القرون وتعاقبت عليها الأعصار وهي ممتدة من بحر الروم الى أطراف الصعيد الى ضفاف بحر العرب الى صحراء الليبيين تربي أبناءها وترويهم بمائها وتظلهم بسمائها وتحييهم بأرضها وتحافظ على كونهم الطبيعي بطبيعتها النقية حتى ان صور وهيا كل ثمانين قرناً مضت لم تزل ممثلة الى اليوم في صور الاقباط وهيا كلهم البشرية كأنهم أبناء عائلة واحدة بل كأنهم صدروا من مادة واحدة ومن جسد واحد هو ذلك الجسد الذي ملأ وادي النيل الوفا وملايين من الناس عاشوا من عهد الالهة الى عصر مينا أول ملوك مصر الى البطالسة فالرومان الى العرب فالاتراك الى المماليك فالخديويين دون أن يمتزجوا بدماء غيرهم أو يختلطوا بامة أجنبيه من غير جنسيتهم ووطنهم بل هؤلاء هم الذين تقلبت عليهم أدوار الرق والعبودية والحرية والعدالة ورأوا كل شعب وكل عرش يحمل الظالم والعادل. القوي والضعيف دون أن تنفصم عروتهم الأخوية أو تنحل رابطتهم الوطنية والجنسية

واذا كان هذا الهيكل العظيم المؤلف من ملايين النفوس يعد من الأصل المصري القديم فلا شك ان العنصر الأكثر محافظة على الصفات المصرية الأصلية والممثل لها تمثيلاً نقياً خالياً من شوائب

الاختلاط انما هو الشعب القبطي المسيحي لان بقاءه معتنقاً المسيحية الى هذا العصر منعه كل اختلاط بالاجناس الاخرى التي اختلط بها اخوانه الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية

قال الاستاذ ماسبرو مدير مصلحة الآثار (١) ان جميع الشعوب التي كان لها ماض مجيد تهتم اهتماما كليا بأمر أصلها فهي تناجي نفسها قائلة هل نحن السلالة الحقيقية لذلك الشعب العظيم الذي اشتهرت به سابقاً البلاد التي نعيش فيها اليوم ونحيا أم جد بيننا وبينه عنصر آخر نشأ عن الامتزاج البطيء الغير المحسوس أو عن الغزو والفتح بشكل أشد ؟؟ ولم يغفل شعب من تلك الشعوب عن الاهتمام بهذا الامر ففي فرنسا وفي ايطاليا وفي اليونان تعرض هذه المسألة على بساط البحث بأن يتساءل فرنساويو وايطاليو ويونانيو هذه الأيام هل هم سلالة قدماء الغاليين والرومان واليونان ؟؟

أما الجواب على هذا السؤال فهو على الدوام ـ نعم نحن سلالتهم ـ وهو جواب تقضي به العظمة الوطنية كما أنه مطابق للصواب بوجه الاجمال.

وقد عرضت المسألة نفسها في معرض البحث في مصر واني أعتقد وجوب الاجابة عليها بنفس الجواب فان الشبه بين سكان القطر المصري وأسلافهم بقي متسلسلا الى أيامنا هذه لان الشعب نفسه كان على مثل الاوصاف المادية والادبية التي نراها فيه اليوم ففيما يختص

(١) كلمة قالها من خطبة القاها في نادي رعمسيس سنة ١٩٠٨

بالاوصاف المادية اذهبوا الى متحفكم بقصر النيل تجدوا في التماثيل والنقوش نفس الاشكال التي أنتم عليها اليوم فانكم ترون أشخاصا طوال القامة نحيفي الاجسام عليهم سمات الشرف والنبل

ولقد وقعت مصر من أول عهدها تحت غارات كثيرة ففتحت المرة بعد المرة وأقدم غارة عرفنا خبرها هي التي شنها الهكسوس أو الملوك الرعاة فانتشر منهم في مصر عنصر جديد متبربر يختلف عن العنصر المصري القديم ولكن لم يمض قرن على زوال حكمه حتي فني بامتزاجه ببقية السكان دون أن يلحق بهم تغيراً بوجه من الوجوه كما يظهر لنا ذلك من تماثيل طيبة.

على أن مصر كان يهدد عنصرها خطر أشد من ذلك بكثير فان عظماء الفاتحين من ملوك العائلة الثامنة عشرة جلبوا اليها في مدة أربعة قرون الوفا من الاسرى رجالا ونساء وأسكنوا بعضهم في المدن حيث اتخذهم أهلها اماء وعبيداً وأقام بعضهم في المزارع لتفليح الاراضي غير أن فريقا منهم بقي على حالة الاسباط والعشائر كالعبرانيين مثلا

وانه بالرغم عما امتزجت به العناصر الاهلية من العنصر الاجنبي الذي كان يؤم مصر بلا انقطاع سواء من الحبشة أو من أسيا فلسنا نرى تغيراً محسوسا في صفات السكان العامة فلو فحصتم اللغة وجدتم انها اقتبست من اولئك الاسرى بضعة الفاظ سامية وليبية أو بربرية ولكن تلك الالفاظ ليست بذات اهمية تقضي بتغير اجرومية او قاموس

اللغة . اذهبوا الى المتحف تروا أشكال الناس في تماثيل ذلك العصر وفي تماثيل العصر السابق له واحدة على الاغلب

ثم عقب ذلك مجيء الليبيين الى مصر وهم قبائل تتكلم بلغات بربرية وتقطن الواحات والبلاد الواقعة في الصحراء الغربية فاسكنهم فراعنة الاسرتين الواحدة والعشرين والثانية والعشرين في عواصم القطر وتبع الليبيين الاشوريون والفرس واليونان والرومان مع ذلك فقد اجتازت هذه العناصر الاجنبية البلاد وامتزجت بعناصرها ولكنها لم تغير شكل سكانها» اه .

وروى أميلينوا المؤرخ الاثري الشهير انه بينما كان عائدا ذات يوم في قطار سكة الحديد من النقطة التي ينبش فيها عن الآثار بوادي الملوك وكان غائصا في بحار التأملات عما شاهده هناك واذا بمفتش التذاكر القبطي قد دخل عليه فجأة وطلب منه التذكرة فرأى في ملامحه صورة حية لأولئك الملوك والعظماء الذين زار مقبرتهم.

وروى ماريت باشا عميد الاثريين واستاذهم ان ما يرى اليوم في هياكل ومقابر طيبة والاقصر وهبوا وابيدوس وممفيس لدليل حي على حسب الاقباط ونسبهم لقدماء المصريين .

وقال السير ولكنسن الاثري الشهير أن الاشكال التي نشاهدها الآن في العنصر القبطي في مصر وعلى الخصوص العنصر القبطي المسيحي تشابه بوجه عام شكل الفراعنة القدماء .

أما وقد ثبت من هذا البحث ان الاقباط هم السلالة الاصلية النقية المصريين فيحسن بنا ان نبحث في اصل حضارتهم الاولى ومن اين تكونت بعد ان نسبها احمد بك كمال الى العرب (١) مندفعا وراء استنتاجات فكرية لم يكن لها في التاريخ ذكر ذاهباً الى ان مينا اول ملوك مصر يعزى اليهم على حين ان جل المؤرخين والاثريين الذين يشار اليهم بالبنان اتفقوا اتفاقا كليا على انه مصري صميم

وانا اذا دققنا الفحص عن حالة مصر عند تأسيس المملكة الفرعونية وبحثنا عن العناصر التي خلفها العالم السابق الى العالم اللاحق سواء كان في النظامات أو المعتقدات في الافكار أو الاحساسات في السحنة أو اللون لوجدنا نفس الصفات مفروسة وجارية في آن واحد بين السلسلتين البشريتين الاولى والثانية بل اذا تركنا الحوادث الظاهرة والتاريخية وبحثنا عن الدولة المصرية الاولى المعروفة بدولة الالهة لوجدنا ان القوات المختلفة التي تنمو في الهيئة الاجتماعية كانت غالبا تتنازع الاستيلاء على السلطة فكان سكان كل بلدة على عداء متواصل مع سكان البلدة الاخرى ويمكننا ان نثبت ذلك من الدين المصري القديم فان اوسيرس الابن الاكبر لنوت (اي السماء) وسيب (اي الارض) قد تزوج قبل ان ولد اخته اسيس فولد لهما هورس واخوه سيت تزوج اخته نفثيس وعاش اوسيرس وأسيس سعيدين

(١) راجع كتاب الحضارة المصرية القديمة الذي القيت مواضيعه في الجامعة المصرية .

جداً لكن اخاها سيتا خان اخاه ووضعه في احدى الولائم في صندوق وأغلقه في الحال وحمله الى النيل والقاه فيه فحزنت عليه أسيس أشد الحزن وأخذت تفتش عليه في كل مكان حتى وجدته فخبأته وذهبت تبحث عن ولدها هورس ليساعدها على الانتقام لابيه (راجع كتاب مصر للدكتور برش وكتاب سكان وادي النيل للعالم ولس بدج)

وقد دامت هذه المنازعات طول مدة الجاهلية التي يعتقد أجدادنا ان ملوكها كانوا من الالهة وانهم تولوا ملك مصر ١٢٣٠٠ سنة على ما روى مانيثو كاهن هيكل هليوبوليس الذي عاش قبل المسيح بنحو ٢٠٠ عام

والذي يزيدنا ايضاحا لمعرفة حالة مصر في ذلك الزمن الجاهلي هو تعدد الالهة واعتقاد سكان كل بلدة باله خاص حتى انه كثيرا ما كان يرى في قوائم الالهة كما قال الاثري رينوف ان هذا الاله هو ذاك ولكنه عدة آلهة مختلفة الأسماء بحسب سكان البلدة التي تعبده. ومعنى ذلك ان مصر كانت في مبدأ أمرها بلاداً متفرقة يحكم كل منها حاكم من أهلها أو بالحري جمعية بلدية تعبد الهاً خاصاً يسكن تلك البلدة ويحميها من غائلة الهاجمين.

ولقد بقيت كذلك زماناً طويلاً لا تعرف لها هيئة ولا نظاماً عاماً ولا مطلق لفظة شعب على احداها حتى ظهر مينا أو منيس من مدينة اتيني

بقرب أبيدوس وهي مدينة مصرية لا يونانية كما قال هيرودوتس وتغلب على قوات المدن الاخرى وأخضعها لسلطانه وبذلك تولى ملك مصر وأسس مدينة ممفيس وجعل معبودها بتاح أي رب الحق الذي خلق الشمس والقمر والبشر

ومن هذا يتبين لنا ان التمدن المصري لم ينشأ في الحقيقة الا من نفس مصر ومن أبنائها الاصليين ثم أوجب بطبيعة الحال بعد تكوين هيئتهم وتأليف وحدتهم سرعة النمو التى نشاهدها في عصور الحضارة الفرعونية وهي التي وحدها حضرت العالم وهذبت الفلاسفة والحكماء وثقفت كل أمة ظهرت في الوجود كائنة من كانت عربية أو أجنبية

الاقباط والمسلمون

٢

ان تلك الامة العظيمة التي تحمل اثنى عشر مليوناً من النفوس وداست العبودية بقدميها بعد ان كر عليها الدهر أثر الدهر وهي تحت سلطة وقوانين واحدة لا يمكن أن تشعر يوما ما باستحالة وحدتها الى أجزاء متنافية الميول والمبادئ بل تعتبر من الخطر الحقيقي عليها وجود فريق متمصر من جنسية غير جنسيتها ووطن غير وطنها يخلط بين الوطنية والدين ويتخذ من كل عمل يرمي الى احياء البلاد وتمدينها قاعدة لنزع روح الالفة والوئام من صدور الوطنيين ليتذرع بها الى التحريض على التفريق والتقاطع

وقد يخطيء من لا يعتقد ان تلك البذور المسمة التي تبثها تلك الفئات المتمصرة تضر وتؤثر بمجموع الامة أكثر من سواها لانها تفضي غالباً الى ايجاد الخلاف منشأ كل عداء وأصل كل خصام بين الافراد وبين الامم على السواء خصوصاً اذا كانت تلك البذور تغرس جذوة الشقاق بين العنصرين المصريين باعتبارهما امتين مختلفتين اختلافا كليا يدعو الى وجود التمايز أو التفاضل بينهما . ولقد ينشرون تلك التعاليم ويكرزون بها وسط الامة بالرغم عما يعلمون من وحدة التاريخ ومن العادات والميول والأطوار المتشابهة والدالة على وجود أمة واحدة من دم واحد وجنسية واحدة ان اختلفت في عقائدها الدينية فانما هو اختلاف بسيط لا يمكن أن يؤول الا الى اعتقاد كل عنصر بكتاب ديني لا يتباين عن الاخر في شيء طالما كان الكتابان يأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر ويرجعان بالامة كلها الى اله واحد هو خالق الخلق ورب العالمين

فاختلاف العنصرين والحالة هذه في الدين لا يعتبر أساساً لوجود أمتين كما تعتبره الفئات المتمصرة انما يعد بمثابة اختلاف شقيقين بحسب الظروف الطبيعية في تقديس مهنة ما وهذا الاختلاف لا يؤدي الى فصم رابطة أخائهما ومحبتهما وانتقال تلك العروة الوثقى الى من تجمعه به جامعة المهنة بل يفضي الى عطف الواحد على الآخر ومناصرته له في عمله بدافع العواطف الطبيعية لانه مهما تكن الجامعة التي تربط أصحاب

المهنة الواحدة أو الدين الواحد فهي لا تجعله يؤثر محبة أفرادها على محبة أخيه وهو جزء من دمه وقطعة من وطنه ولا تستفز عواطفه اذا انفرط عقدها بقدر ما تستفزه اذا انفرط عقد محبته مع أخيه اللهم الا ان كان جامدا او فاقدا لحاسة الشعور الحقيقي الذى يدفع الاخ الى محبة اخيه ومناصرته

وكثيرا ما يذهبون الى اضعاف عاطفة الاخاء بين العنصرين باعادة الحوادث التى وقعت في عصور الجاهلية وأزمنة الاضطهاد . وهو مذهب غريب في بابه لانا لو تتبعنا الحوادث التاريخية وفحصناها بدقة لرأينا أحد العنصرين مع السلطة التي كانت تعطى له من الهيئة الحاكمة في أزمنة مختلفة لملاشاة العنصر الاخر كان لا يتبع أعماله الى النهاية بل ينتقض على مثيره كأن هناك أفكاراً وتأثيرات كانت تقعده عن الوصول وتدفعه الى الانتقاض . واذا سألنا أنفسنا ما هي تلك الافكار والتأثيرات التي كانت توقف تياره الشديد وتحول دون وصوله مع تأييده من السلطة الحاكمة لوجدناها جميعاً تنبثق من ينبوع واحد هو ينبوع العاطفة الاخوية المنبثة في شعوره ودمائه. ومع ما أصاب تلك العاطفة من الاضطراب والتنوع فقد بقيت راسخة في الصدور تزداد نمواً مع الايام حتى أورقت في عصر الحرية التواد والوئام وأثمرت الاخاء والسلام

وكل هذا البحث يوضح لنا أن المرافق المتشابهة والعقيدة الواحدة ليستا في الحقيقة نظرية تتخذ أساسا لاثبات قاعدة المحبة وقوام الاخاء

انما الدم الواحد. انما الجنسية الواحدة انما الوطن الواحد هو وحده المثبت لذلك الاخاء والمظهر لتلك المحبة . واذا كان الامر كذلك وهو الحقيقة والواقع فكل من يتخذ من الدين وطنية انما هو من دم غير مصري وجنسية غير الجنسية المصرية وليس من دليل أثبت به هذه النظرية أقوى من الدليل العام بأن المتبعين لهذه المبادئ العقيمة ليسوا الا أفراداً من سكان المدن امتزجوا بدماء الشعوب المختلفة فصاروا دخلاء في الجنسية المصرية وقد دفعهم هذا الامتزاج الى تحريض فئة من الامة المصرية التي ينتسبون اليها كذبا على اعتبارهم بمثابة اخوان لها أشد ولاء وأخاء ورابطة من اخوانها في الدم والوطنية وفي الحياة والعمل. ولا لوم على هؤلاء المتمصرين المحرضين ولا عتاب فمن يشابه أبه فما ظلم. أما القرويون وبقية أبناء هذا القطر الذين يملأون نواحيه وبلاده ومدنه فهم سلالة الفراعنة الحقيقيين. هم الذين يتشابهون في الملامح والطباع وفي السحنة واللون. هم الذين لا يفقهون للتعصب معنى . هم الذين لا يتخذون الدين وسيلة للمروق والافساد بل هم الذين لا يعرفون غير مصر وطناً لهم ومصر لا تعرف سواهم أبناء لها.

نعم هم كذلك. جل في بلدة من البلاد أو قرية من القرى تر الوطنية الصحيحة والاخاء التام بين المسلم والقبطي . تر العصبية القومية على أجمل مظاهرها بل تر القرويين مع السذاجة والبساطة يعيشون مرتبطين متحابين متآخين متآلفين يتضاغنون فيصطلحون ويتشاحنون

فيتصافحون ويفترقون غضابي فيتلاقون أحبابا وان اشتد بينهم خلاف على أمر شكا الفريق الواحد الفريق الآخر الى عمدة البلدة أو عميدها فيحكم بينهما بالعدل بغض النظر ان كان هذا قبطياً مسلماً أو قبطياً مسيحياً لانهم لا يعرفون الدين الا في المسجد والكنيسة وما بقي من الحياة فهو العمل والجهاد في المزرعة والحقل والراحة والتسامح في المنزل وفي المجتمع .واذا لم يكن في هذا كله ما يثبت وجود الاخاء بين العنصرين فهو كاف لان يعبر عن وجود الوحدة المصرية وعن وجود أمة تختلف في طباعها وعاداتها وخطراتها وخطواتها عن كل العصابة المتمصرة وصحافتها الثائرة التي مهما اشتد امتعاضها ووجدت لها أنصاراً من بعض سذج المصريين الذين يشبهون لوح التصوير الحساس في سرعة تأثره لكل ما يقع عليه حسنا كان أو قبيحا نافعا أو ضاراً فهؤلاء لا يمكن ان يتخذوا دليلا على كل الامة ولا على انحياز الامة لتلك الفئات في ارائها وافكارها وفي مبادئها الشريرة وميولها العقيمة .

فاذا ثبت من هذا البحث ان الاخاء طبيعة في الامة والوحدة فطرة فيها فقد ثبت ايضاً انها من دم واحد وجنسية واحدة وصورة واحدة يصعب معها على الاجنبي والمتمصر ان يميز بين القبطي المسلم والقبطي المسيحي.

قال الاستاذ ماسبرو مدير مصلحة الاثار أن القطر المصري

ينقسم اليوم دينيا الى قسمين عظيمين يتألف أحدهما من الاقباط والآخر من المسلمين فاما الاقباط فهم سكان البلاد الاقدمون واما المسلمون فهم مسيحيون اعتنقوا الاسلام فهم اذاً مصريون ايضاً

والخلاصة انه لا يوجد مصران واحدة مسلمة والاخرى قبطية، بل توجد مصر واحدة لان مسألة مسلم وقبطي هي مسألة دينية وفي فرنسا وطنيون من اديان مختلفة وكلهم ما بين بروتستان وكاثوليك ويهود ولكنهم جميعا فرنساويون

الحزب الوطني

٣

فئة تختفي وتظهر وتموت وتحيي كلما قلدت حكومة مصر بعض الوظائف لغير المستوطنين . وقد أسس هذا الحزب أحمد عرابي زعيم الثورة العرابية لنزع الوظائف العالية من الاتراك والشراكسة وتقليدها للمصريين فالتف حوله عبد الله نديم الكاتب الثوري المشهور يؤيد دعوته. وينشر مبادئه في جريدة الطائف حتى ذاع صيته واشتهر أمره وكثر عاضدوه من الأهالي الذين عادوا فانفضوا من حوله عقب الثورة التي أثارها على عرش مصر ونتج عنها الاحتلال الانكليزي الذي وطد الامن في مصر وأحيى فيها العدالة وصيرها أمة متعلمة متحضرة غنية بعد ان كانت تهيم في دياجي الفقر والجهل والفوضى وسوء النظام

على ان تلك الحضارة التي بسطت انكلترا رواقها في وادي النيل بقوة رجالها وجهادهم المتواصل لم تبدد ميول الحزب الوطني القديم من الصدور ولم تخفت صوته فاعاد نفر من المتمصرين (١) الحركة العرابية الاولى بصوت أشد وقام ينازع الانكليز في الوظائف التي يشغلونها ليتربع فيها ويستعمل سلطته للتنكيل بالامة واعادة المظالم الماضية والاضطهادات الغابرة وقد خال البعض في نغمة الصحافة المتمصرة ان هذا الامل سيحقق بالمساعدة الادبية التي بدت من بعض المستعمرين الفرنسويين ولكن جاءت اتفاقية سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا ضربة قاضية على كل أمل من هذا القبيل .

فهم ادعياء الوطنية مرمي السياسة الاوروبية ورأوا فيها تنشيطاً لانكلترا على اتمام اصلاحاتها في الديار المصرية حتى لا تعود الى الهياج والعصيان مرة أخرى ولكنهم لم يقتنعوا بما رأوه وشعروا به بل اخذوا يضربون على نغمة الجلاء ظاهرا وعلى نغمة المطامع باطنا فانحاز اليهم بعض الموظفين الذين لم تؤهلهم كفاءتهم لنيل الوظائف العالية وفريق من الرعاع والتلاميذ الذين لا يفقهون معنى الوطنية والوطن ثم تمادوا في خطتهم الى درجة انحطوا فيها بالمقت والاهانة على كل من يقول ان

---

(١) أعني بالمتمصرين الفئات التي تتخذ الدين آلة للكسب والشهرة في الاقطار الاسلامية كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده في رده على هانوتو صحيفة ٤٠ فراجعه هناك

الوطنية الحقيقية تأمرنا نحن المصريين باكرم النزلاء والاعتراف بفضل الانكليز واقتباس العلوم الحديثة منهم والاقتداء بهم في حضارتهم واعمالهم . وقد لا ينبغي لنا العجب من تهورهم الى هذا الحد البعيد ليس لانهم اهل وهم وخيال بل لانهم لا يعرفون من الوطنية سوى التعصب والتفريق والاثراء من البسطاء ولا من واجباتهم المقدسة سوى كره الانكليز وبغض الاجانب حتى لتجدن أشدهم ذكاء واكثرهم علما ومعرفة باحوال الامم وطرق ارتقائها يفضل ان يري مصر — وهي ليست وطنه الاصلي — قاحلة قفراء وابناءها فقراء جهلاء من ان يرى انكليزيا او اجنبيا يعمل على عمرانها وزيادة مواردها ورفاهيتها

وقد اشتدت حركتهم عقب قيام شاب مصري المولد بغدادي الاصل يردد أصوات الثوار الفرنسويين وينشر كلماتهم على الامة حرفاً بحرف حتي تمكن من انشاء حزب على انقاض الحزب الوطني القديم . غير ان مدته لم تطل فتوفى الى رحمة ربه قبل ان يتمكنْ من اجلاء الانكليز عن مصر !؟ ..... ومع ذلك فقد كانت وفاته اشبه بقرع اجراس الحزن على فقد قوة الحزب نفسه فانفرط عقده وخرج منه الوطنيون الاصليون بين مسيحيين ومسلمين حتى اصبح قاصرا على جماعة من ابناء الشعوب الاسلامية المختلفي الاجناس كأنه معرض عام في كثرة السحن والالوان المتعددة . والظاهر ان اولئك المندمجين بالقوة في الجنسية المصرية قد راعهم سقوط هذا الحزب وهو يدر عليهم الربح ويذيع صيتهم

بين العامة من الناس فقاموا متسلحين بسلاح الدين وأخذوا يثيرون العواطف ويقلقون الخواطر ويلعبون بعقول الاحداث ويغررون بالرعاع موجهين في الوقت نفسه المطاعن والمثالب الى نبغاء الامة وفطاحل رجالها العاملين على رفع شأن البلاد وتمدينها حتى أثروا على افكار اؤلئك البسطاء المساكين وافهموهم انهم أولياء الله الذي اوحى اليهم ان يهجروا من اوطانهم الى مصر لينقذوها من براثن المحتلين كما انقذ موسي اولاد اسرائيل من براثن قدماء المصريين

صحيح انه يصعب على الذي لم يدرك ميول هذ الحزب المتطرف ان يعرف مبادئه الخفية كما يصعب عليه ان يرى الفاظا يعبر بها عن رغباته المتناقضة انما يستطيع استجلاء هذه المبادىء من أقوال اساطينه وحركاتهم المصبوغة بصبغة الجامعة الاسلامية حتى في ذات مطالبتهم بالدستور والاستقلال فيراهم اذا طلبوا الدستور كان لذلك معنى لديهم غير المعنى المتداول لدى الامم المتحضرة اي انهم يطلبون دستوراً يسلم مقاليد الاعمال والاحكام في البلاد الى فئة من ابنائها دون الاخرى واذا طلبوا الاستقلال كان فقط لجلاء المحتلين المسيحيين وبقاء سيادة العثمانيين المسلمين ولو في بقائها منافاة لمعنى الاستقلال الصحيح .

وربما كان اوضح دليل يؤيد ما ذهبنا اليه من صبغ مبادئهم بصبغة الجامعة الاسلامية التي تستلزم دائما ابدا تهييج الاحقاد الدينية في البلاد طعنهم المستمر في كرامة الاقباط واصلهم ليهيجوا عواطفهم من جهة

ويبذروا بذور الشقاق بين صفوف الامة من جهة اخرى ومع ذلك فان مقالة احد اساطينه المشهورة التي هجا فيها الاقباط هجواً دل على منتهى الوقاحة والبذاءة لم تحرك عاطفة من عواطفهم بل مروا عليها مر الكرام. زد على ذلك مقاومة اولئك المتتمصرين للحكومة وعبثهم بدولاب الاصلاح وبذلهم الكثير من المساعي لايقاد نار الثورة في البلاد ولو تسنى للجمهور المنتمي اليهم ادراك الحقائق لما استمروا الى اليوم عاملين على خراب البلاد وتأجيل زمن استقلالها

نعم ان حركاتهم الصبيانية وصياحهم وعويلهم وندبهم بالجلاء والاستقلال والدستور والحرية والوظائف لم تنلهم مراما وعرفوا حق المعرفة ان أوروبا تأكدت كما يتأكدون ان حركتهم الحاضرة اسلامية لا وطنية او بالحرى حركة لا تستحق التعضيد من القادرين على التعضيد لكنهم ازدادوا تهورا وتعنتا فالفوا الجمعيات السرية لتهديد العظماء والكبراء وشنوا غارتهم القلمية الشعواء على كل ذي سلطة وعقل كبير فلم تعر الحكومة لهم التفاتا ولكن اعضاء الجمعية العمومية ومجلس الشورى طلبوا رسميا من الحكومة وضع حد لهذا الهياج فاضطرت بناء على الحاحهم ان تعيد قانون المطبوعات الذي اصدره المرحوم شريف باشا عام ١٨٨١

ظهر هذا القانون بفضل صياحهم. وطياشتهم فزادهم هياجا وعصيانا ووجهوا المطاعن الى الوزارة البطرسية السابقة والى المحتلين وغيرهم كما

.وا يتغنون بجريمة دنجرا الهندي ليثيروا عواطف البسطاء على اتباع
عواته في ارتكاب جريمة القتل التي نهى الله وكل ذي شعور وانسانية
ا كما نهت الشرائع الارضية ومع ذلك فقد ظفروا بشاب عصبي
اج من عصبتهم قام واطلق مسدسه على المرحوم المغفور له بطرس
ا غالي رئيس الوزارة السابقة فقتله (راجع ما كانت تنشره وريقاتهم
اجع ما كتبه عنهم جناب السير الدون غورست في تقريره عام
١٩) وقد ارتكبوا هذه الجريمة بيد فرد من أفرادهم لا انتقاما من
زير الكبير الذي كان أول العاملين على ترقية الاقباط المسلمين قبل
قباط المسيحيين بل ليحيوا عاطفة الشقاق بين العنصرين فأثاروا فعلا
اطف الاقباط وكاد لولا عناية سمو الخديوي المعظم ورجال الاحتلال
قلاء الامة من العنصرين ان يحصل مالا تحمد له عاقبة ومع ذلك فقد
سل أشد من هذا وأدهى وهو بقاء الاحتلال بقاء ابديا وكلمة تلفظ
، جراي وبيشون وبتمان ورزفلت عن مصر ومستقبلها لا حق
صديق من الف خطبة والف سعي من امثال بلنت ودلونكل والمسيو
انير الاشتراكي الفرنسوي والسنيور انطونيو الفوضوي الايطالي.

واذ ما تم عند هذه النقطة آخر مشهد من الرواية المحزنة التي
نوا يمثلونها من زمن بعيد على مرسح مصر فقد بدأوا بتمثيل رواية
ى اوهموا على مرسحها بسطاء المتفرجين بانهم اصحاب الرأي
نول المسموع في البلاد ولكي يوطدوا تلك الخدعة على قاعدة خيالية

توافق العقول الصغيرة التي يستثمرونها اخذوا يهددون ولاة الامور من وراء حجاب كما هددوا رجال التحقيق والقضاة انهم حكموا على القاتل الاثيم بالاعدام . نعم ان هذه الاعمال الصبيانية جعلت الحكومة تشدد في مراقبتهم ولكن حلمها الواسع بهم وتعودها النظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء زادهم نفوذاً في صفوف البسطاء .

ومن مدهشات الوطنية عند اؤلئك الادعياء انهم الفوا نشيداً يمتدحون فيه القاتل ويترنمون بعمله الفظيع ليجرحوا عواطف الاقباط عموما وينسبوا الى فريقهم المسلم فساد الاخلاق وعدم احترام الموتى ولست اقصد بهذا القول ان اخواننا أخذوا ينشدون هذا النشيد او يظهرون ميلا لسماعه كلا ؛ وانما اقصد فئات الرعاع التي حرضها اؤلئك المتمصرون على انشاده فانشدته مسرورة من نغمته التي تماثل نغمات اناشيدها وهي لا تدري معناه ولا تفقه اسباب وضعه ومن كان لا يفقه ولا يدري فلا عتاب عليه .

واذا كان لا ينبغي لنا الاهتمام بامثال هذه الخزعبلات التي لا تخلو منها امة من الامم فقد ذكرتها فقط لابين نيات هذا الحزب وميوله العقيمة واساليب خداعه مثبتا في الوقت نفسه حادثة وقعت امامي وهي اني حضرت ذات يوم حفلة عند صديق من اخواننا المسلمين وتصادف ان المغنية انشدت هذا النشيد فاسكتتها ربة البيت في الحال واخرجتها قبل ان تنتهي الحفلة ثم اعتذر ربها الى المدعوين جميعا وكان بينهم اثنان

من أولئك الادعياء ولعلهم يذكرون ذلك كما اذكره الآن .

وهذه النتيجة الثانية العظيمة الدالة على كون هذا الحزب دينيا لا وطنيا تؤيد النتيجة الثالثة التي سأشرحها هنا وهي ان من طبعه الغريزي قبول جميع مسلمي الارض في الوطنية المصرية بغض النظر عن الاصل والجنسية ولو ان هؤلاء لا يذهبون مذهبه بل يحافظون بارواحهم على جنسيتهم واصلهم كما نشاهده في العثمانيين وغيرهم ويمكننا ان نثبت هذا الطبع من نفس اقواله المأثورة عنه والمحفوظة في وريقاته قال

« ان الاسلام قد وحد بيننا ومحا من صفوفنا المميزات الجنسية والوطنية وركب من مجموع شعوبنا امة سماها الاسلام فاصبح المسلم لا يهتم ان يليه تركي او عربي او بربري او سوداني وانما يهتم انه لا يليه الا مسلم يشاطره في عقائده الحرة ودستوره الاقدس وفي ميله الى الدولة العلية ميل الوليد الى امه والبعض الى كله »

وكل هذه المبادىء وما ولاها من ضروب الثوران والهياج اضطرت الوزارة السعيدية التي اخلفت الوزارة البطرسية ان تضع حداً لها فشددت في تنفيذ قانون المطبوعات وسنت قوانين جديدة ومنعت كل متمصر مثير من القاء الخطب المهيجة وترديد اقوال الثوار التي يترجمونها من مؤلفات اشتراكيي الغرب وفوضويه وينسبونها الى انفسهم ليحاولوا بها اثارة الخواطر وتهييج الافكار ثم اتمت عملها هذا العظيم بتأليف

لجان من من العلماء لالقاء المواعظ الدينية الممثلة لروح الدين الصحيح في المساجد ليتعلم العامة من الناس اوامر الله ونواهيه حتي لا تؤثر عليهم ترهات اؤلئك المثيرين الذين يزعجهم تنور العقول وارتقاء الافكار واتحاد عناصر الامة

وفعلا فان هذا العمل الممدوح لم يلبث أن اثار ثائرتهم على الوزارة السعيدية فنسبوا اليها كما نسبوا الى غيرها عدم الوطنية والشعور القومي والملي الى آخر ما هنالك من ايات الطائشين ثم حرضوا شابا معدما قتله الجوع وارهقه الظماء على نظم قصائد يمتدح بها القاتل ويطعن فيها على سمو ولي الامر الذي امر الله بطاعته وعلى المغفور له بطرس باشا وعلى الاقباط والمحتلين وعلى ناظر الحقانية وغيرهم فنظمها وطبعها في كتاب خاص فصادره البوليس وقررت النيابة محاكمته ومحاكمة مقرظيه ولكنه كان افلت من جرادة العيار ففر هاربا وترك محرضيه في قبضة النيابة التي احالتهما على القضاء فحكم على اولهما بالحبس ثلاثة اشهر وحدد للثاني جلسة لمحاكمته ومع ذلك فان الحبس لا يثنيهم عن هياجهم والهياج كما هو معلوم يدر عليهم الربح والشهرة

وربما يتساءل القاريء لماذا لم يضعف الحبس نفوذهم بين البسطاء والرعاع فاجيبه بانهم يموهون على اولئك المساكين بان قادة الامم وطلاب الحرية في كل بلد وهم من أمثالهم طبعاً معرضون للحبس والتعذيب والتنكيل ويستشهدون على ذلك بحبس نابليون وواشنطون ويوسف الصديق وجاريبلدي ورشفور وغيرهم ولو انهم لم يقرأوا في

التاريخ أن واحدا من هؤلاء حبس لانه شتم رئيس الوزراء وكبير القضاء ولا أن واحدا منهم هجم على اعراض كرام الناس كما هجموا ولا طعن في الموتى من نوابغ الرجال كما طعنوا ولا تجنس في جنسية غير جنسيته كما تجنسوا بالجنسية المصرية قوة واغتصابا

هكذا يموهون على عقول البسطاء وهكذا يرون السجن يفتح ثم يغلق عليهم وعقلاء الامة وافاضلها ينفضون من حولهم الواحد بعد الاخر والبلاد تقع في ضيق وعوز من طياشتهم والامة تتهم بالتعصب لتعصبهم ولكنهم لم يثوبوا الى الرشد ولا ارعووا عن العصيان بل اتخذوا اساليب اخرى للتغرير تارة بالاحتجاج على احتلال الانكليز وتارة بعقد المؤتمرات التي انتهت بطردهم من فرنسا واعلانها لهم انها لا تقبل في بلادها قوما لا وطنية لهم ولا جنسية صحيحة تدل على مصريتهم وهيهات أن تسمع اوروبا لهم صوتا وهم يحاربون ابناءها بل هيهات أن تسمع نداء غير نداء المصريين الحقيقيين الذين يمثلون الاقباط المسلمين والمسيحيين وهؤلاء يدركون فضل انكلترا في ترقية بلادهم بل اذا رأوا منها تقصيرا ما في شان من شؤونهم طلبوه منها بالدعة واللين وما ينال من القوي باللطف خير مما ينال بالعنف

واذا ما قلنا انهم يحاربون الاوروبيين في مصر فاني اثبت ذلك بنفس اقوالهم المحفوظة في وريقاتهم قالوا :

« يرى بعض خفاف الاحلام أن الوطنية الصحيحة تنافي أن

تتعلق بالتركي والتونسي والمغربي والسوداني كما تنافي أن تتعلق بالانكليزي والفرنسوي والالماني سواء بسواء ولذلك تراهم يتعجبون اذا سمعوا عنا اننا نتقرب الى الاتراك وباقي الامم الاسلامية ونتسامح لهم فيما لا نتسامح به للانكليز وغيرهم من الاجانب ووالله لا ادري هل اصاب هؤلاء (خفاف الاحلام) طائف من الجنون فاصبحوا لا يعقلون(١)

وهناك رسائل عديدة على هذا النحو تملأ وريقاتهم وتثبت طعنهم على الاوروبيين طعنا ثقيلا سقيما ومع ذلك ان لم استطع ايرادها هنا لضيق المقام فاني اعجب منهم كيف يطعنون على قوم ويوجهون اليهم المثالب ثم يستغيثون بهم ويولون شطرهم نحوهم ليأخذوا بناصرهم ويحلوهم من امة هي منهم وهم منها وسلوا اولئك المتمصرين عن ذلك ساوهم لعلهم يجيبون !!

بقي علينا البحث في اعمال هذا الحزب من الوجهة الاجتماعية فنقول أن اول هذه الاعمال انه اوقف بعض الاحداث من الطلبة موقف المجرمين وعطل مئات منهم عن مدارسهم ودروسهم لا لغاية محمودة أو غرض شريف بل ليصيحوا معه صيحات متعارفة متآلفة «ليحي وليسقط» . وغر بعضهم بكلمات الكاتب والخطيب والوطني

(١) راجع الصحيفة الثانية من وريقة . . . . . عدد ٢٣٤ الصادر في ١٧ اغسطس سنة ١٩٠٨

الغيور على كتابة الرسائل طعنا في المحتلين وفي الاجانب والاقباط فعطل مستقبلهم وحرمهم النجاح في امتحاناتهم بل ومما يقضى بالعجب ويضحك الثكلى انه اذا حاول الاحتجاج على المحتلين أوالفرنساويين مثلا أوعلى مشروع عظيم لا يوافق مبادئه العقيمة نشر في وريقاته تلغرافات ممضاة غالبا باسماء افراد لا وجود لهم الا في مخيلته أو اسماء اناس اميين لا حيثية لهم ليزيد البسطاء والسذج تغريرا بان الامة في جانبه . واليك مثالا من امثلة احتجاجاته التي ينشرها من حين الى حين .

« نحن اهالي وراق الحضر نحتج بشدة على بقاء الاحتلال ونطلب من زعمائنا بسط مطالبنا للعالمين »

الامضاآت

الحاج حسن النجار . الحاج محمد الزمار . المعلم جرجس النساج المعلم حنا الطباخ .

واذا بحثت عن تلك البلدة تجدها قرية حقيرة خالية من مكتب للتلغراف وليس بين اهاليها اشخاص بهذه الاسماء ولا واحد يعلم بان هناك حزبا وهميا يعارض الحكومة والمصلحين ومع ذلك فاذا حاججتهم على هذه الاعمال الصبيانية كان مطلق جوابهم نحن قادة الامة نحن نبث الشعور الوطني في نفوسها ولو بتعليمها الكذب والنفاق والتدجيل وقلب الحقائق .

ومما يؤكد القول بصورة واضحة ان الاباء الذين لاحظوا على

ابنائهم الاشتغال في السياسة العاطلة نصحوهم بالعدول عنها وعن الالتفاف حول فئة ثائرة ولكن احداساطينها عز عليه انفضاض التلاميذ من حولها فوقف في مجتمع عام حضره الوف من الطلبة والاحداث وقال لهم بصوت عال

« لا تطيعوا اباءكم فان الزمان كفيل بسحقهم فاعصوهم . اعصوهم ولا تحفلوا بنصائحهم العقيمة »

قال لهم هذا القول وكبار المصلحين والمفكرين في كل ارض وكل زمان يقولون ان خير واسطة لترقية الامم ورفع شأنها انما هو بقاء الابناء في طاعة والديهم وهذا موسى النبي يقول في وصاياه العشر « اطع اباك وامك ». وهذا عيسى في انجيله يقول « أطع أباكَ وأمكِ فانها أول وصية بوعد » وهذا محمد يقول في قرآنه « ولا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » فانظر الى ماقال الله والعلماء والى مايقوله دعاة الوطنية واحكم بعد ذلك بما شئت عليهم .

والنتيجة ان المتأمل في كل ما حل بمصر واصابها من الكوارث والبلايا وتأييد اقدام الاحتلال في البلاد ونزع السلطة الفعلية من ايدى الوطنيين يرجع الى أعمال هذا الحزب التي تنحصر في الامور الاتية وهي

اولا تحريضه الوطنيين على كره الاجانب في حين ان المصريين لا يستطيعون نيل الاستقلال بدون مساعدة الاجانب وانعطافهم .

المستر روزفلت

Mr. Roosfelt

وثانياً ـ طعنه الجارح وحملاته الشديدة على المحتلين واغماض فضلهم مع العلم ان السياسة الاوروبية التي تقلب العالم كما تشاء تسير على قاعدة الحق للقوة لا القوة للحق والمصريون قوم ضعفاء لاحول لهم ولا طول فالاولى بهم أن يوالوا الانكليز ويقتبسوا من مدنيتهم الراقية ما يؤهلهم للرقي .

وثالثاً ـ مساعيه المستمرة لايقاد جذوة الخلاف بين العناصر الوطنية لفصم عروة اخائها وتجزئتها الى فرق متعادية تقاوم بعضها بعضاً مقاومة تمنع عنها احراز ثقة دولة من دول اوربا التي تقدر على منفعتها

ورابعاً ـ تغريره بالطلبة والبسطاء من ابناء الاعيان على عدم الطاعة لوالديهم ومدرسيهم . ولا تخفى النتائج المضرة التي تحصل من وراء ذلك والصفات المنحطة التي تتأصل في نفوس الاحداث والشبان

وخامساً ـ انكاره لفضل النوابغ وكبار الرجال من المصريين امثال المرحومين الشيخ محمد عبده وبطرس باشا وقاسم بك امين و امثال رياض باشا وسعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وغيرهم من الافاضل الذين تفتخر الامة بهم عدا عن طعنه المستمر فيهم . واذا كان غرضه من الحط باقدار الرجال أن يجعل نفسه الالف والياء فقد حط بقدر الامة كلها وانزلها منزلة الشعوب الجاهلة التي لا تعرف فضل العاملين فيها

وسادساً تهييجه العمال على الاعتصاب بحجة الاخذ بناصرهم في حين أنه يقضي عليهم وعلى أرزاقهم ويوقع أولادهم في الضيق والجوع

كما حدث اخيراً. ومهما يكن من استسلام هؤلاء له فهذا شيء لا يهمنا البحث فيه طالما كان الجاهل عدو نفسه ويسهل قيادته خصوصاً في أمة سهلة الانقياد سريعة التصديق .

واني اختم هذه الكلمة بما قاله المؤيد في عدده الصادر يوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ في عرض كلامه عن المسألة المصرية والحزب الوطني ما نصه :

«مهما قال مخالفونا السياسيون عنا ومهما اعتدوا على شرفنا ورمونا بخيانة الوطن ومناصرة أعدائه ـ مهما قالوا وتقولوا علينا فاننا نناديهم بجرمة الوطن ونناجيهم بحقوقه المقدسة ونستحلفهم برفات اجدادهم في قبورهم ان يعدلوا خطتهم وان يعتدلوا في مسلكهم وان يحكموا العقل قبل الشعور في أقوالهم وافعالهم فانه يوشك ان يكون رد الفعل مهدداً بدلا من ان يكون منقذا وأن حكم القائل خطأ في تاريخ الامم حكم القاتل عمدا وقانا الله شر بوائق المهلكتين »

يستحلف المؤيد مخالفيه المتطرفين في المسألة المصرية بان يحكموا العقل قبل الشعور ولكنه أخطا في تحليفهم بوطن ليس وطنهم وباجداد ليسوا باجدادهم ومع ذلك فتقرير هذه القاعدة في اوسع الجرائد الوطنية انتشاراً واحسنها مكانة في قلوب العقلاء والمعتدلين دليلا من الادلة على ان كل الامة شاعرة بضرر هؤلاء المتمصرين .

وقالت جريدة الاهالي في عددها الصادر في ٤ دسمبر الماضي عن هذا

الحزب ما نصه ايضا

« ما منا من يجهل اننا لو وقفنا اليوم في وجه الاحتلال وقفة الخصم للخصم والعدو للعدو لبؤنا بالخيبة وخسرنا في اقل من خطوة واحده مستقبلا كاملا ومن شر انواع الحماقة ان نريد الحرية فنقضي على انفسنا هذا القضاء »

« ان سلاحنا وقوتنا في المستقبل ما نعده اليوم من العلم والتربية وما نبذله من الجهد في ترقية احوالنا الاقتصادية فان نحن اعددنا من ذلك ما يكفي فزنا بأمنيتنا وان نحن اهملنا ورضينا بالكلمات نرسلها نعيب بها من لا يضرب الاحتلال بعصاه لسبب ولغير سبب ومن لا يصرخ مع الصارخين بالالفاظ المنتفخة بقينا الى الابد كما نحن وازددنا ضغثا على ابالة »

هكذا تقول جريدة الاهالي لسان حال الوزارة المصرية الواقفة على دخائل الامور وعلى هذا النحو يقول المقطم والاهرام ومصر والوطن ويقول العقلاء في كل مكان ومع ذلك ازداد المتطرفون تهورا وتعنتا وهو امر لا يجب ان يفضي الى العجب طالما كانت البلاد غير بلادهم وطالما كانت الشعوذة هي الطريق الوحيد لارزاقهم

واجمال القول أن الحركة الحالية حركة وهمية يقوم بها أفراد من غير المصريين اصحاب البلاد ويسيرون على مبدأ الصراخ والاستصراخ أو بعبارة اصرح على غير نظام معروف أو مبدأ مالوف اللهم الا في

أساليب استغلال المال ونيل الشهرة ولعل تلك الكلمة التي أجملناها تجعل المصريين عموما الذين ينشدون استقلالهم أن لا يحفلوا باعمال هذا الحزب والاعيبه الصبيانية وأن لا يتأثروا بمطاعنه وخزعبلاته بل يجب أن يتركوه ينتحر كما انتحر الحزب العرابي من قبل

وطنية الاقباط

هي تلك الوطنية العالية التي رآها العالم تعمل كثيراً وتقول قليلا بل هي ذلك الشعور الوطني القويم الذي مجدته الامم لانه تسلسل الى الاقباط من دماء اجدادهم. مجدته لان المظالم والاضطهادات لم تثنهم عن التفاني في حبه . مجدته لانهم يجاهدون في سبيل خدمته جهاد الانبياء مجدته لانهم لبثوا يرشدونه في ازمنة الضيق والجهل كما صاروا روحه العاملة في عهد الحرية والنور.

سلوا مصر وحدها فهي تقول لكم أن الاقباط يقدمون لي ٣٠ في المائة من مجموع المتعلمين ليأهلوني الى الاستقلال ونيل الدستور . سلوها تجيبكم بان الاقباط يرفعون شأني بمحافظتهم على اموالهم من الضياع وهي قوتي الاولى للتحضر والارتقاء . سلوها تجيبكم باني سميت باسمهم لان كلة اجبت معناها « ارض القبط ». نعم سميت بهالانهم يحبونني ويتفانون في حبي كما يرعون عهدي

اجل واذا كان الاقباط لا يحبون وطنهم الذي اظلهم واقلهم كل تلك القرون والاجيال ولا يدافعون عنه باموالهم ويفتدونه بارواحهم أتحبه

تلك الفئة المتمصرة التي فرت من وطنها الاصلي وتناست حبه وحب الوطن من الايمان .

ارجعوا الى التاريخ الصامت المتكلم. ارجعوا اليه تعلموا ان الاقباط أكثر وطنية واشد جهاداً في المحافظة على وطنهم لان البلاد بلادهم والحياة التي تجري في واديها حياتهم والرقي الذي يبسط جناحيه في ارضهم هو ثمرة جهادهم المنبعث في عواطفهم والخارج من صدور أجدادهم الذين ان دالت مملكتهم وذهبت في جوف الفناء فقد أبقوا لهم هذا الوطن الخصيب يجاهدون في سبيله جهاد الانبياء ليعيدوا اليه مجداً أذهب واستقلالا فقد.

يجاهد الاقباط هذا الجهاد العنيف لا بالصحف وان كان لهم منها حظ وفير ولا بالخطب والصياح ولكن بالتعليم والتهذيب والوطنية الحقة التي تقضي عليهم باتباع المدنية الغربية حتى يصلوا اليها ويكونوا اهلاً لان يسيروا معها جنباً لجنب بل اهلا لان يكونوا احراراً في بلادهم متساوين مع الغير في مرافقهم ومصانين في اموالهم وأرواحهم

ولا جدال في ان كل جهاد من هذا القبيل انما هو مقرب لزمن الحصول على الاستقلال والحرية وما عداه من عقد المؤتمرات الى قلب الحقائق الى شراء الصحف للتشهير بالحكومة والطعن على المصلحين انما هو فضلا عن مخالفته للعقل والنقل وفضلا عن ظهوره من أفراد عرفوا بالتعصب الديني فهو مؤخر ليوم الاستقلال وساعة الدستور التي لا يعلم الا الله متى يكونان ؟

يقول أولئك الطائشون ويقول اتباعهم الاعمياء ان الانكليز يقاومون الرقي ويعاكسون التعليم وينفقون اموال البلاد في غير سبيلها فليكن ما يقولون - ولو انهم الذين يقاومون ويعاكسون ويسلبون أموال البسطاء والعامة لانفاقها في ملاهيهم وشهرتهم - لان وطنية القبطي تقضي عليه بان يترك الانكليز يعملون ما شاؤوا في الحكومة وما أرادوا في البلاد مادامت أغراضهم موجهة الى الخير وعنايته هو موجهة الى الاخذ باسباب التعليم والتهذيب وترقية الصناعة وكل ما يؤول الى تمدين أمته وايصالها الى نقطة تؤكد للانكليز وللعالم أنها أصبحت حية وخليقة بان تترك وشأنها لتحكم نفسها . وأظن ان هذه الوطنية الصريحة هي خير مثال لكل أمة محكومة ومغلوبة على أمرها أما اعتقاد المتمصرين أن الوطنية لا تقوم الا بالقول والاستقلال لا يتم الا بالصياح فهو اعتقاد فاسد واما اذا حاولوا ان يهزوا عواطف الاقباط ويغيروا خطتهم الرشيدة الى خطة الطائشين فقد حاولوا مستحيلا. ولو تصفحوا التاريخ لتأكدوا أن الحكومات التي توالت على مصر ما استطاعت بقوتها ومظالمها أن تخمد جهاد الاقباط في سبيل اعادة مدنيتهم الذاهبة وحضارتهم البائدة ولا ان تغير عاطفة الوطنية العالية من صدورهم وهي منقوشة عليها لن تمحى ولن تزول

ومن ينكر على الاقباط وطنيتهم العالية وهم أول من رفع نير الظلم عن عاتق مصر في أخريات حكم المماليك بدهاء رجل منهم لا تنساه

ولا ينساه التاريخ وهو المعلم رزق وزير علي بك الكبير الذي ذاقت مصر في عهد وزارته الراحة والهدوء . من ينكر عليهم تلك الوطنية وهم أول من عضد محمد علي باشا الكبير في ترقية مصر وتهذيبها برجال منهم استوزرهم فكانوا أعلاما في التاريخ . من ينكر عليهم تلك الوطنية وهم أول من انفض من حول عرابي يوم كانت الأمة كلها تسير وراءه وأكبروا جريمته للامة والوطن . بل من ينكر عليهم تلك الوطنية التي أظهروها بابتعادهم عن حزب طائش يؤخر البلاد بدلا من أن يقدمها ويطمس عقول أبنائها بدلا من أن ينيرها ويزيد تعلقهم بتركيا لتبقى بلادهم الى الابد مستعبدة لغيرها . وكل هذا ينافي وطنية الاقباط التي تعمل للاستقلال التام ولايجاد مملكة حرة مستظلة بعلم مصري بحت يمثل عناصرها المختلفة ويمثل وحدتها ويمثل هذه الوطنية الشريفة تعتز الامم وترتقي الاوطان

وزارة المعلم رزق

بقيت تلك الوطنية الراقية حية في صدور الاقباط نامية في عواطفهم بالرغم من ظهور العاطفة الدينية باجلى مظاهرها في عهد الحكومات التي تولت ملك مصر بل وبالرغم من سيطرة تلك العاطفة على نفوس الامة سيطرة فعلية جعلتها راضية بكل ما يصيبها من خير ومن شر . من سعادة ومن شقاء . من عبودية ومن حرية . ولو عددنا الجهل من اكبر الاسباب التي وطدت دعامة تلك العاطفة وزادتها

رسوخا فان العلم في ظروف كثيرة حال ايضاً دون الامة في تكييف الفروق بين البداوة والحضارة وبين الرقي والانحطاط بل وبين العبودية والحرية ولولا الوطنية العالية التي تمشى في صدور الاقباط وتدفعهم المرة بعد المرة الى خلاص بلادهم وكسر اغلال العبودية المتسلطة على الشعب بتعليمه الوطنية الصحيحة وكيفية تأثيرها على حياة الامم لما عرف هذا الشعب معنى الوطن ولافقه لذة الحرية

على أن تلك الحوائل والاسباب تجعلني اتخطى بسرعة القرون والاجيال التي تقهقرت فيها شيخة المدنية القديمة وعادت الى عصر الطفولية الساذجة لاقف على عتبة حكم المماليك الذين حاولوا أن يستقلوا بملك مصر الهائم متمصروها في حب شيخ المغول (نسب الاتراك) الذين وقفوا في سبيل امنيتهم بان احدثوا شبه احزاب مماثلة للاحزاب الحاضرة من حيثية عاطفتها الدينية وتطرفها في حب تركيا واحتمالها لكل اضطهاد وضيق في سبيل سيادتها على هذه الديار

احس المماليك بهذه العاطفة فاعتقدوا أن المصريين اهل عبودية ورق فاستهانوا بهم وسلطوا عليهم تيار اضطهادهم الذي كان يتدفق بلا رحمة ولا شفقة حتى جعلوا منازلهم مقابر يدفنونهم فيها احياء ومقابرهم مراسح يمثلون عليها كل انواع الهمجية والتوحش وكان للاقباط اكبر نصيب من هذه الاضطهادات لا لميلهم الى تركيا وتعبدهم لها تعبد الحبيب لحبيبه الكثير الصدود بل لاقليتهم من جهة ولمخالفتهم للعقيدة

العامة التي يدين بها العدد الا كبر من الامة من جهة اخرى .

شعر الاقباط بما امست فيه البلاد من المذلة والمهانة فانتبهوا من غفوتهم واندفعوا ينقذون انفسهم واخوانهم من هـذا الشر المستطير بان جاهروا بلسان عميدهم المعلم رزق وزير علي بك الكبير الذي خدم مصر الخدمة الجليلة التي خلصتها من غائلة الغائلين بما كان يجول في نفوسهم ونفس هذا الامير ورجاله من اعلان استقلال مصر وجعلها مملكة حرة منفصلة عن تركيا تمام الانفصال ليريحوا حكومتهم من دسائس تلك الدولة العاتية وليحفظوا للامة ثانياً تلك الجزية الباهظة التي تمكنها من الانفاق على مصالح واعمال شتى تزيدها رقيا وتمدنا

اظهر الاقباط تلك العاطفة الوطنية الشريفة في زمن لم تعرف فيه مصر من اين تولد ولا من اين تخلق ليعلموا المماليك انهم امـة تحب الحرية وتجاهد في سبيلها ولـكن الاحزاب المماثلة للاتراك راعتهم هذه المجاهرة باعتبار أن الاستقلال مشين والحرية مخطرة أن لم يكونا تحت نظر تركيا وانعطافها وبذلك انبثت في الامة فـكرة العبودية لتركيا والرضوخ لها ولو أن تلك الفكرة كانت في مبدأ الامر ضعيفة ولـكنها قويت ثم صارت عزيمة فعقيدة امتزجت بعواطف الامـة وشعورها ودمائها وميولها فافسدت ما كان يرمي اليه الاقباط من سعادة البلاد وتحريرها

ليت تلك الاحزاب التي تظهر وتختفي بين زمن واخر بظهور

الوطنية العالية في صدور المصريين اكتفت باكبر اثم ضحت فيه الوطن واهله بل اخذت تدس الدسائس وترفع التقارير الى تركيا حتى اقلقتها ومشت الخوف في صدرها واضطرتها في نهاية الامر الى ارسال بعض رجالها لقتل علي بك ووزيره المعلم رزق ولكن حرص الثاني وحذره مكن الاول من قتل هؤلاء الرجال بسيفه واخذ منهم الاوراق التي يحملونها الى والي مصر المعين من قبل السلطان والمختصة بقتله وقتل وزيره وتلاها في مجلس مؤلف من اعيان المماليك والمصريين فاثار عواطفهم على تركيا حتى انهم اقروا على طرد الوالي واعلان استقلال الديار المصرية .

وقف علي الكبير عقب ذلك الانتصار في وجه الدولة حتى اضطرت الى التسليم بمشيئة في استقلال الديار المصرية تحت سلطته وقد أعلن ذلك الاستقلال رسمياً عام ١٧٦٨ ميلادية وما اذيع هذا النباء في انحاء البلاد حتى أقيمت الحفلات والمهرجانات تخلصاً من مظالم تركيا وكان اكثرها بهاء وزخرفا ورونقاً ما اقامه الاقباط تيمنا باعادة الاستقلال الى وطنهم المحبوب الذي يعيشون فيه حتى قدر المستر بروس السائح الانكليزي الشهير الذي اخترق القارة الافريقيه وقتئذ نفقات حفلات الاقباط بعشرين الف ليرة انكليزية . وهنا تتمثل الوطنية الحقة بل هنا يلقى الاقباط المبادىء الصادقة لكل من أراد ان يكون وطنيا أو أن يعرف ما هو الوطن

على ان ذلك العمل الكبير الذي قام به علي بك بدهاء وزيره المعلم رزق العلامة الفلكي كما كناه المستر بروس زاد هذا الحزب المتطرف في حب تركيا والمشتغل في الخفاء لصالحها حقدا وحنقا فاندفع يعيد الدسائس والفتن والمشاغبات والقلاقل حتى تمكن من اثارة خواطر المماليك وعاطفتهم الدينية فخانوا علي بك وقتلوه على ما هو معروف في التاريخ ثم حاول أن يثيرهم على المعلم رزق فخابت مساعيه لتقربه منهم ومحبتهم له فاعتمد على قوته في البطش بهذا الوزير بان حرض رجلا يدعى أحمد الشنان تربص له اثناء خروجه من منزله وطعنه بخنجر أودى بحياته . وهكذا فقدت مصر استقلالها وعادت فوضعت رأسها في فم الحوت كما عاد أبناؤها فوضعوا أرواحهم واموالهم وأجسادهم تحت نير الاضطهاد والمحن الشداد التي توالت عليهم زمانا طويلا حتى عهد محمد علي باشا الكبير .

فما الذي يتضح من كل ماتقدم ومن هذا الحادث التاريخي العظيم ؟ الا يتضح ان في مصر وطنيتين أو عاطفتين مختلفتين شكلا وصورة فاية عاطفة منهما أرقى . أوطنية الاقباط التي ترمي الى الاستقلال البلاد استقلالا تاما والسعي في ترقيتها وتمدينها بقوة أبنائها أم وطنية الذين يجاهدون في بقائها تحت سيطرة الدولة ونفوذها وعبوديتها الى ما شاء الله فوق مبلغ السبعماية والخمسين الف جنيه الذي تأخذه من عرق المصريين وتعب المصريين بدون أدنى مسوغ شرعي وبغير خدمة

عميمة ينتفعون منها وبلا جميل واحد يحفظونه لها من أول عهدهم بها .
ان المنصف لا يسعه الا الاكبار بوطنية الاقباط وحبهم لبلادهم حباً صحيحا ان لم يكن لجهادهم في تحريرها فبأخذهم باساليب المدنية الغربية لا الشرقية وبعنايتهم العظيمة في ترقية التعليم وفتح المدارس وتعضيد الزراعة والصناعة وتنمية روح الاقتصاد وتعميم التجارة ولولا هذا الحب الوطني الشريف الذي لا يعرف فرقا دينيا ولا يهتم بالانعطاف على امة غير أمته لما مدوا ايديهم ووهبوا نوابغ وجالهم في كل زمان لاستقلال بلادهم وتعليم الأمة أن العاطفة الدينية هي العثرة الوحيدة في سبيل هذه الأمنية خصوصا اذا كان ما وراء هذه العاطفة خسارة مبلغ عظيم هي في اشد الحاجة اليه وتضحية الصوالح العامة على مذبح دولة لم تمد لها يدا في اوقات ضيقها وشقائها ولم تنل منها في كل أدوار حياتها الا المظالم والعبودية

على اني أعتقد انه لا يوجد مصري صميم يميل ان يكون عبداً أو مسوداً لامة اخرى أقل منه حضارة ومدنية وحرية وثروة وعلما وتقدما بل يحب أن يكون سيدا عليها ان لم يكن مماثلا لها وما نحن الا أمة تترفع عن الضيم والعبودية وعن محبة المستبدين وسلوا التاريخ فهو وحده يذكر وطنية الاقباط العالية واجتهادهم في خدمه بلادهم بالهدوء والاخاء والتسامح

الاحتلال الفرنساوي

ان الظروف الشديدة والتقلبات المستمرة التي توالت على مصر بعد موت علي بك الكبير واعادت السلطة العثمانية ثانية اليها قد اعادت كل انواع الفتن والمشاغبات وضروب الفوضى والاضطرابات التي اهلكت القرى واهلها وصيرت الجميع حيارى لا يعرفون كيف يتقون النوازل المتعددة التي تقودهم بين كل لحظة واخرى الى الموت على أفظع انواعه وتسوقهم من حين الى حين الى الفقر المدقع والقحط الشديد الذي لا يصفه فكر ولا يصوره قلم . وبالرغم عن سعي المعلمين ابراهيم الجوهري وملطي يوسف وواصف المصري وفلتيوس حنا كبار الاقباط في ذلك العهد وتأثيرهم على المماليك بتلطيف ميولهم في معاملتهم للاهالي فان الولاة الاتراك الذين كانوا ميالين لاستعباد الامة ومص دمائها على مذبح ظلمهم المريع كانوا يدسون الدسائس بطبيعتهم الفطرية بين امراء المماليك ليستمر قتالهم حتى يستمروا هم على ارتكاب المظالم والاضطهادات بين الاهالي بلا رقيب ولا مقاوم . وكم من ايام وليال هائلة رأتها مصر يعيون أهلها ولا يمكن حصرها في حدود معلومة وان أمكن وصفها بالدمع واللهيب فيمكن وصفها أيضاً بأنها روت أديم الارض بالدماء وسمدتها بالجثث ويبستها بالمنازل المتهدمة على سكانها كما قلبت أفراحها أتراحا وغناءها عويلا وثروتها فقرا وسعتها ضيقا وياالله من تلك الليالي السوداء ومن الطامحين لاعادتها في هذه الايام

بقيت مصر هكذا تتردد بأهلها بين الموت والحياة وبين الشقاء والظلم مدة حكم الولاة العثمانيين حتى احتل الفرنسيس وادي النيل وهزموا المماليك والعثمانيين شر هزيمة بجوار الاهرام وما والاها ونكلوا بهم تنكيلا يعرفه التاريخ الصامت المتكلم فتنفس المصريون من كربهم وتراجعت اليهم ارواحهم وعاد أملهم باعادة العدالة والحرية الى بلادهم ولو بشكل سيمنع الاعتداء عنهم ويصون اعراضهم من الضعة واموالهم من السلب وارواحهم من ضروب الجور وسلوا الارواح التي استشهدت على مذابح الارهاق والعذاب والذل بلا ذنب ولاجريرة لتجيبكم عما اصابها بل سلوا ارواح حسن باشا البحري وطاهر باشا وعابدي باشا وغيرهم من الولاة الاتراك لتجيبكم عن عذابها المهلك في الاخرة لشدة ما ارتكبته من المظالم والمغارم في مصر ولكثرة استعبادها لبني الانسان استعباداً شدد عليها عقاب الله الآمر بالعدل والانصاف بين الناس

على أن فريقا من ابناء البلاد المتمذهبين بالمذهب السيادي (الارستوكراتي) وجماعة المتمصرين المتشيعين للمذهب وللدين أخذوا يشتغلون في الخفاء لاعادة سلطة تركيا حتى لا يزول نفوذهم وحتى لا تمحى سلطتهم على الاهالي وسيطرتهم في السلب والقتل بلا حساب ولاثمن ولاعقاب ولا مراقب غير أن مساعيهم هذه فقدت خاصيتها في مبدأ الامر لوقوف الاقباط حيالها وجهادهم في تفهيم أصحاب السلطة

الشرعية في البلاد بما تنويه تلك الفرق الضالة من نشر الفوضى وتعميم الظلم فحفظوا بهذا الصنيع الدال على الوطنيه العالية والتسامح الفطري أرواح الامة وصانوا أموالها من عبث العابثين ولو أن الامة لم تعرف مقدار هذا الصنيع وفضله الا بعد ان بثت الفرق روح الفتنة بين العامة والرعاع ودفعتهم الى القيام بمشاغبات عديدة ومتوالية كانت نتائجها هلاك الكثيرين منهم بالرصاص والقنابل في جهات الازهر وباب النصر والحسينية وايجاد النفرة والحقد في نفوس الفرنسيس للتنكيل بالمصريين واستعمال كل شدة في مقاومتهم وكبح جماحهم ولكن وطنية الاقباط أبت الا أن يعيش اخوانهم في الحرية التي يجاهدون لاجلها في سبيلهم وفي العدالة التي يتحملون كل ضيم لرفع منارتها بينهم فتوسط كبار رجالهم وأعيانهم لدى الجنرال نابليون بونابرت وكليبر حاكم مصر في ذلك العهد بان يرفقا بالمصريين وان لا يأخذاهم بجريرة رعاعهم وحرافيشهم الذين يوجد امثالهم في كل أمة وكل بلاد فعمل بونابرت باشارتهم وامر رجاله باستعمال الرفق والعدالة مع الاهالي اجمعين (راجع تاريخ مصر للمسيو فليكس منجين المؤرخ الشهير)

جاءت تلك الوساطة خيرا على مصر بان نسخت أية المظالم والشرور واقامت مكانها آيات العدالة والحرية فرتع الاهالي في بحبوحة الهدوء والرخاء زمنا ليس بالقصير تمكنوا في خلاله من الاهتمام بشؤونهم الداخلية واصلاح احوالهم وتنمية مزارعهم واعادة ثروتهم . غير أن هياج

لحزب المهالي للاتراك ازداد تطيراً عن الاول فاستفحل امره وكثرت دسائسه بين الاهالي والعامة باسم الدين حتى ذاع نباء خروج الفرنسيس من مصر عقب المعاهدة الاولى التي ابرموها مع الدول فاثار العامة على قتل الاقباط فعمت الفوضى وانتشر القتل والسلب ولم يسلم من الاقباط الا بعض كبارهم وافراد قليلين منهم افتدوا انفسهم بالمال الكثير كما افتدى الشيخ خليل البكري نفسه أيضاً لانه كان مواليا للاقباط ومدافعا عنهم .

قدر الله بعد ذلك بانتصار الفرنسيس على الاتراك بضربهم تلك الضربة الكبرى في المطرية التي لم تزل تئن الى الساعة من هولها (راجع التاريخ ان اردت) فانكمش بعض المثيرين للفتنة في منازلهم وأخذ البعض الآخر ينزوي في المغائر أو في الصحراء خوفا على ارواحه من بطش الفرنسيس الذين دخلوا القاهرة ثانية والقوا القبض على السادات وبعض المشايخ والبكوات والاغاوات وزعماء الفتنة وزجوهم في السجن لاعدامهم على ما جنوا ومع علم الاقباط أن هؤلاء المسجونين قتلوا اخوانهم ودمروا بيوتهم واستعملوا كل ما يمكن للمضطهد استعماله من عوامل العذاب والفظاعة فقد ترفعت وطنيتهم العالية عن تركهم في ظلمات السجون كما شاء تسامحهم الفطري أن يحفظوهم من يد الجلاد فتوسط كبارهم لدى الفرنسويين حتى اطلقوا سراحهم وامنوهم على ارواحهم واعادوا اليهم ممتلكاتهم ولو انها سلبت سلبا من الاهالي على

مختلف مذاهبهم واديانهم .

على أن عمل الاقباط في ذلك الحين لم يكن نتيجة تزلف ونيل غرض بل كان نتيجة ميل صحيح لاخوانهم وتسامح حقيقي منهم لاحياء الاخاء الذي مات تحت ظلمة الجهل ونير العبودية . غير انهم لم يسلموا من اذى الذين حافظوا على ارواحهم وناصروهم في ازمنة القرنسيس والمماليك ولم يجدوا منهم الا كل اضطهاد احتملوه بفارغ الصبر ويتكلم عنه التاريخ دليلا على عظمة وطنيتهم وعلى تسامحهم ازاء التهيجات الدينية التي تظهرها الفئات المتمصرة على مرسح مصر في كل حين .

استتب الاحتلال الفرنساوي فتولى كبار الاقباط اقاليم القطر لعالميتهم ودهائهم وحسن سياستهم وحدة اذهانهم فتفرد المعلم فلتيوس حنا باقليم الغربية والمعلم واصف المصري باقليم المنوفية والمعلم انطون ابو طاقيه باقليم الشرقية كما تولى المعلم جرجس الجوهري وزارة الداخلية أو الادارة المحلية والمعلم شكر الله جرجس وزارة المالية أو جباية الفردة والرسوم والمعلم ملطي يوسف وزارة العدلية أو رئاسة محكمة القضايا والمعلم لطف الله المصري عضوية مجلس التجارة العام فأحسنوا الى الاهالي وعدلوا بينهم وخدموهم خدمات جليلة اقر بها المؤرخون الفرنسويون جميعاً في مؤلفاتهم والجبرتي نفسه في مؤلفه وان اهمل ذكر أعمالهم وحمل حملات شعواء على الجنرال يعقوب القائد القبطي فاتهمه باستعمال الشدة مع الاهالي في جباية الرسوم ثم فند اقواله في باب آخر

بقوله انه ظهر لمحمد باشا ابي مرق الذي تولى مصر بعد خروج الفرنسيس أن الظالم الحقيقي للاهالي في الجباية كان مصطفى الطاراتي مقدم القائد المذكور ولذا سجنه وقطع رأسه بين المفارق بباب الشعرية عام ١٨٠٢

ولم يكتف الاقباط بتلك الخدمات العظيمة لبلادهم اثناء ترأسهم عليها بل بذلوا جهدهم في نشر العدالة والحرية والاخاء بين عناصرها كما فتحوا جيوبهم لتقرير سعادتها وتمدينها وكما عضدوا الكتاتيب القليلة بمالهم وانشاؤا غيرها في كثير من البلاد بعد أن عهدوا الى المعلم الياس بقطر العلامة القبطي الشهير وصاحب اول قاموس وضع باللغتين العربية والفرنسوية بتأليف كتب ابتدائية لتنوير العقول وتهذيب النفوس بالرغم عما كانوا يلاقونه من المصاعب في تنفيذ اعمالهم الرافعة لشأن الوطن وبالرغم عما كوفئوا به بعد خروج الفرنسيس من مصر واعادة السلطة التركية من السلب والحبس والقتل الى آخر ما هنالك من ضروب الجور والاغتصاب التي اشتهرت في ذلك الحين ولكن ثبات الاقباط دحر كل ظلم حتى ظهر محمد علي باشا الكبير وعرف وطنيتهم العالية واخلاصهم الشديد وامانتهم التامة في العمل ومحبتهم الاكيدة لاخوانهم وتسامحهم المعروف فاحسن اليهم وحررهم من العبودية التي كادت تقضي على مجتمعهم الهيئوي

وزارة المعلم غالي

هب محمد علي من قلب مقدونيا الى ارض الفراعنة فرأى بقية أمة

تحمل في صدرها العاني وطنية عالية وفي قلبها الصبور روحا شريفة بل رأى أمة لم تحلم بعد ان ضاع عرشها بعرش وتاجها بتاج ولكنها تحلم بامير عادل يخرجها من طور الرق الى نعيم الحرية فكان هو ذلك الامير المرجى الذي حيته فحياها واكبرته فاكبرها وكانت له خير عضد فكان لها أكبر نصير

وما كانت تلك الامة التي رآها محمد علي وملأت صفحات التاريخ باخلاصها لوطنها وبلادها الا الامة القبطية سلالة الفراعنة الاولين الا تلك الامة التي عز عليها ان ترى محمداً علياً عند دخوله أرض مصر يحتاج الى المال لتنظيم جيشه وتهيئة ملكه الكبير ولا تبسط له أكفاً وتفتح له خزنا حتى بلغ ما قدمته اليه حسب رواية المسيو ريم المؤرخ الفرنساوي ٢٠٠ الف كيس من الذهب تقدر بربع مليون من الجنيهات ولم تكتف بذلك العمل العظيم بل عاونته برجالها الذين وجد فيهم رؤوساً مفكرة وأيد عاملة كما وجد فيهم اخلاصا شديدا في خدمة الامة وتفانيا كبيراً في حفظ الوطن وسلامته من الطواريء وقد كانت هذه الصفات العالية من متممات حسن ثقته بهم ومحبته لهم وهو الرجل الذي لم تشب ارادته الفعالة عاطفة دينية ولا مقدرته العظيمة تعصب مذهبي أو جنسي بل هو الرجل الذي حطم نيران التعصب المستطير من ارض مصر وأقام مكانه هيكل التساهل كما قال المسيو جيمار الكاتب الافرنسي الشهير .

ولقد استوزر محمد علي عقب توليه عرش مصر رجلا عصاميا وهو

المعلم غالي الذي كان وكيلا لمحمد بك الالفي الزعيم الاكبر للمماليك . استوزره لرقيه العقلي وبعد نظره بل لقوة ارادته وشعوره الشريف الدال على وطنية عالية وحزم فعال . وقد ساس هذا الوزير الملك بحكمة ودبر الاعمال برزانة حتى تمكن في خلال مدته الطويلة ان يحفظ عرش مصر من الدسائس التي كانت تحيط به ومن الحيل السياسية التي كانت ترمى الى أضعاف سيطرة مصر واهلاك نفوذها حتى ابقى له حسنات لا تنسى واعمالا خالدة حفظها التاريخ في صدر صفحاته دليلا حيا على عظمة الرجل وفضله

ربما يتساءلون عما أتاه هذا الوزير القبطي من العجائب ؟ وعما هي تلك الاعمال التي رفعته الى مصاف عظماء الرجال وجعلتنا نذكره اليوم مع التعظيم والاجلال

على اني ان أجبتهم الى ما يتساءلون احتجت الى بحث طويل لاجمع فيه سلسلة تلك الاعمال المتفرقة في صفحات التاريخ وفي الصدور وعليه تراني لا استطيع أذكر منها الا ما يقتضيه بحثي الحالي من الوجهة الوطنية فان فيها دليلا كافيا على مبدأه العالي ووطنيته الصحيحة بل فيها تبصرة وذكرى لامة تنشد الاستقلال في الليل والنهار

ولست في حاجة بعد هذا البيان ان أدون شيئا من فتوحات محمد علي في بلاد تركيا ولا انتصاراته العظيمة على جيوشها الضخمة وانما الخص فقط تلك الرواية التي ارادت أن تمثلها الدولة بمساعدة روسيا على

مرسح مصر لاعادة المظالم والفوضى اليها فاكتشفها المعلم غالي ببعد نظره وأخفق مساعي الدولتين بحكمته وحسن اخلاصه

تسألوني ماذافعلت الدولة؟ فاجيبكم ما برحت عقب خذلانها المتوالي وانحلالها المستمر تنتهز الفرص لاهلاك محمد علي حتى تمكنت في آخر الامر أن تشكل فئات من ضباطها وجنودها بشاكلة المزارعين وتظهرهم للناس يلباسهم وهيئتهم ثم ترسلهم الى مصر بكتب من السلطان لتقطعهم الحكومة الخديوية ارضا يزرعونها ويستغلون منها ما يقوم باودهم وما يحسن الاحوال في مصر حتى بلغ عدد الوافدين من حملة السلاح ألفاً أو يزيدون وبعدهم جاءت ارسالية رابعة في غياب محمد علي فاضطر زعيمها أن يقابل المعلم غالي ليبسط له مطالبه فلم يحسن وفادته ولم ينظر اليه الا بالعين المجردة عن كل احتفاء فعظم الامر عليه وخرج حاقدا متوعدا مندفعاً هنا وهناك للاستغاثة والتظلم حتى عاد محمد علي وعرض عليه شكايته فداخلته الريبة أولا في أعمال وزيره ولكن ما اعظم اندهاشه حينما سأل ذلك الوزير عن السبب في توقفه عن منح رجال الارسالية ما يطلبون حسب ارادة السلطان فاجابه بقوله ـ ان ملك السلطان اوسع من مصر ـ قال نعم ياغالي وقد لا يكون في تلك المطالب دليل حسن .قال وأي دليل يامولاي والدولة التي لم تقو على مصر بجيوشها وأساطيلها تريد ان تؤلف جيشاً من تلك الوفود في بلادك حتى اذا تقوى ساعدهم ثاروا عليك وخرجوا عن طاعتك الى محاربتك قال لقدفقهت الدسيسة وعرفت العدو الكامن

في ثوب الصديق ولكن قبل كل عمل يجب أن نعيد تلك الوفود جميعا الى أوطانهم وما هي الا عشية وضحاها حتى كان هذا الجمع العظيم الذي ملأ جوانب مصر يسير على بارجة مصرية في عرض البحر عائدا الى بلاده ملوما مدحوراً .

أجل لقد كبر أمر تلك الدسيسة على محمد علي فجمع رجاله وشاورهم فاقترح المعلم غالي أن تنشأ قناة بين بحر الروم وبحر العرب تقام عليها الحصون المنيعة لصد الغارات عن مصر من الجهة الشرقية فأمن الجميع على رأيه ولكن ما هي الا أن شكلت لجنة برئاسة لينان بك وموجل بك المهندسين الكبيرين لدرس المشروع ووضع الرسوم اللازمة له حتى أبطل مجاءة لاشارة البعض على محمد علي بضرورة تأليف شركة أجنبية لتنفيذ المشروع حتى لا يكون هناك اعتراض ولتوقف المعلم غالي عن الاقرار على هذا الرأي قائلا اذا كان ولا بد من انشاء القناة فلتنشأ بمال مصر لتكون في أيدي أبنائها وحكومتها وحتى لا تكون في البلاد سيطرة أجنبية تؤدي الى المنازعات الدولية في مستقبل الايام فتضر من حيث يراد منها النفع (راجع مجموعة الكولونل كمبل من ضباط البحرية المصرية في عهد محمد علي)

هذه كلمة خرجت من صدر وزير محمد علي في اوائل الجيل الماضي فكشفت الايام دخائلها بعد حفر القناة حيث أصبحت المسألة موضع المنازعات في هذا الجيل

وليست هذه كل وطنيتنا التي لا تتكلم ولا تملأ الارض صياحا وعويلاً بل ان محمدا عليا احتاج الى بنادق لجيشه ولما ان رأى ثمنها في اوروبا يوازي نحو نصف المبالغ التي يجب انفاقها على صنعها في مصر جمع وزراءه وشاورهم في الامر فاتفقوا جميعا على مشتراها من اوروبا الا المعلم غالي الذي قال يجب ان تصنع في بلادنا حتى لا تخرج اموالنا الى بلاد غيرنا وحتى ينتفع أبناء وطننا والصناع منهم فوافقه محمد على واكبر قدره

ولم يكتف المعلم غالي بكل تلك الاعمال العظيمة بل مسح عموم اراضي القطر المصري وجزأها الى بلاد ثم جزأ اطيان كل بلدة الى حياض وجعل لكل منها زمام مخصوص وبذلك عرفت الحكومة ميزانيتها بل بذلك نمت ايراداتها نموا عظيما ولقد اشفع تلك الخدمة الوطنية الجليلة بخدمة اخرى فقسم القطر الى اقاليم واخطاط منظمة وجعل لكل اقليم عاصمة يستقر فيها الوالي ولكل خط بندرا يستقر فيه الحاكم وكان يسمى اغاء وبعد ان اتم كل هذه الاعمال العظيمة كثر حساده فنفاه محمد علي الى دمياط وعين مكانه المعلم منصور صربمون رئيس جمركها ثم عفا عنه وخلع عليه خلعة سامية وعينه في منصبه كما كان ثم عاد فعزله وعين مكانه المعلم منقريوس البتانوني وأخيراً أعاده الى منصبه وقد بقي فيه حتى قتل عام ١٨٢١ وتولى مكانه ولده باسيليوس بك

فانظروا الي تلك الوطنية العالية والى الفرق بينها وبين وطنية قوم يقزعون في كل حادث بدون ترو الى حيز النفوذ العثماني ليثبتوا على

الامة المصرية انها فقيرة في الحياة الوطنية لا تستحق استقلالا ولا تستحق ان تكون يوما ما حرة في بلادها سعيدة في وطنها لها علم يخفق بين أعلام الامم وعرش سلطان يهز عروش الممالك

البطريرك بطرس

اجهد محمد علي نفسه وبذل قواه حتي احيي مصر من العدم ونشطها من الجمود فبرزت الى عالم المدنية والحياة تفتح الامصار وتدوخ الاقطار وتعيد الى الاذهان عهد الفراعنة الاولين وعصر فتوحاتهم في بلاد العرب وأرض الاشوريين

واذا ما قلنا ان ذلك الملك الكبير ملك محمد علي قلب الخلافة في فاروق فارتجف رعبا فانا نقول ايضا ان روسيا قامت للتنكيل بقوته حتى لا تحول مطامعه العظيمة دون آمالها الكبيرة في بلاد الشرق وسلطنة آل عثمان .

ظهرت تلك الدولة العاتية في صدر الجيل الماضي من ضفاف نهر النيفا تلعب على ضفاف نهر النيل ليس بقوة السيف والمدفع ولا بتجيش الجيوش وارسال الاساطيل بل بقوة الدهاء وحيل السياسة فما ذا عملت؟ انها فكرت في ان تحتضن الامة القبطية التي تربطها واياها رابطة الدين والعقيدة لتكون قوة في يدها على اقلاق راحة محمد علي واذلاله . وقد وجدت الفرصة مناسبة فنزلت الى ساحة العمل وارسلت اكبر امرائها الى مصر بتوصية من السلطان الاعظم لتمثل آخر ادوارها فوق ذلك المرسح الذي لعبت عليه

كل امم الارض . وقد جاء الامير الروسي الى هذا القطر وبدأ سياسته ولكن باية صورة بالسياحة في طول البلاد وعرضها تعمية لاغراضه وايهاما بما يجول في صدره ثم عاد الى القاهرة ويمم الدار البطريركية القبطية لزيارة بطريرك الاقباط خليفة مار مرقس الرسول لينفذ امله وغاية حكومته التى ارتكب لاجلها المشاق والاسفار وما كان اعظم اندهاشه حينما رأى ذلك الرئيس الديني لاكبر امة مسيحية في القارة الافريقية جالسا فوق منصة من الخشب تملأها الكتب بعد ان كان يظن انه فوق عرش يحفه الذهب بل ما أعظم اندهاشه حينما رآه محاطا بمقاعد خشبية مبعثرة هنا وهناك بعد ان كان يظن انه وسط المقاعد الثمينة والرياش الفاخر وحسب ان ذلك علة الفقر والشقاء وما درى انه نتيجة النسك والتقوى . أدهشه ما رأى وجلس مفكرا ؛ فما كانت أفكاره ياترى ؛ أكانت في كل ما يحيط به من صور المسيحية الاولى التي لا تعرف ابهة ولا جلالا أم كانت في أمر مهمته التي تشغل باله وتقلق صدر حكومته من ابتداء السفر الى منتهاه . من كان يعلم ما يجول في فكره هذا الضيق غير الله . انما سكونه وخشوعه دفعا البطريرك الى ان يقول له لا تجعل ثوبي حاجزا بيني وبينك فان تحت هذا الثوب رجلا من الشعب وللشعب ولعلك سررت من حالة بلادنا وجوها فاظهر سروره من كل ما رآه من مظاهر الحفاوة والاكرام وضروب التقدم والرخاء مظهراً الم الشديد مما هي فيه الامة القبطية

من شقاء تنؤ تحت أثقاله واخطار عظيمة تتكبدها في سبيل الحصول على بقاء الحياة فقال البطريرك صدقت ولكنها تؤدي واجب الطاعة والامانة للوطن الذى تعيش في ظلاله وبين جوانبه غير يائسة من رحمة الله وعدله . قال الامير لقد سمع الله دعوتها فانفذني لانقاذها من شر عوادي المحن بوضعها تحت رعاية مليكنا العظيم حامي حمى الملك والدين الارثوذكسي القويم فثارت هذه الكلمة في صدر البطريرك وأجابه بشيء من البساطة هل مليككم يحيى الى الابد .قال لا ياسيدي الأب بل يموت كما يموت سائر البشر . فاجابه اذن انتم تعيشون تحت رعاية مليك يموت أما نحن فنعيش تحت رعايه مليك لا يموت تحت رعاية هذا الاله العظيم الذي لا نريد أن نتخذ غيره بديلا فلم يسع الامير عند ذلك الا أن يقف مبهوتا امام عظمة ذلك الرئيس الديني ومبادئه العالية قائلا له فليهنأ محمد علي بوطني مثلك فلو وافقتني اليوم على ماسمعت لرأيت غداً علم روسيا يخفق فوق جدران كنيستك ولرأيت ملك مصر محطما واستقلالها مفقودا قال لا تعجب أيها الامير فتلك مشيئة الله ومن ذا الذي يرى تلك القدرة الالهية العظيمة وينظر الى قدرة الشر

وما انقضى عمر اليوم على هذا الحادث حتى بلغ مسامع محمد علي فقام اساعته الى الدار البطريركية ودخل على البطريرك يحييه بكلمات الشكر على ما أبداه من الشهامة والوطنية والاخلاص

الشديد لملكه ولآله أجمعين . فاجابه البطريرك لا تشكر من قام بواجب عليه نحو بلاد تظله وتظل اخوانه في الجنسية والوطنية ولا تعجب بما حدث فلقد عقدنا الصلاة الحبية ورابطة الاخاء التي لا تقطعها عوامل الايام مع محمد الكبير حين استيلائه على مصر ـ يريد به النبي عليه السلام ـ ونوقع عليها اليوم مع محمد الصغير يريد به مخاطبه ـ فلنقابل الأخطار والمتاعب معا فانحدرت الدموع من عيني البطل المقدوني العظيم وقال لقد رفعت بعملك شأني وشأن أمتك فليكن لك مقام محمد علي ومركزه في مصر ولتكن مركبة معده لركبك كمركبته لانك أثبت اخلاصك الحي واخلاص امتك التي أهلكها الوطن وأشقاها وهي متفانية في حبه بكل شعورها وجوارحها

هكذا حفظ شيخ الاقباط ورئيسهم الديني عرش مصر وصان استقلالها بالرغم عما تحمله أبناؤه من الخسف الذي لم تتحمله أشد الامم تعاسة وأكثرها شقاء ولا عجب في عمله لان الوطن اسمي وأعلا من أن يكون عرضة للضياع من أجل مظالم ان بقيت اليوم فقد تذهب غدا

هذه هي الوطنية العالية التي يجب أن يسجلها التاريخ للاقباط في صفحاته كما سجل آثام عربي وأعماله التي زعزعت استقلال امة ينحرها الحزب الوطني اليوم في مذبح التعصب ويدفنها في لحد التفريق

عهد سعيد واسماعيل

كانت سياسة سعيد واسماعيل بوجه الاجمال كسياسية محمد علي مطابقة لروح الوطنية ومنمية لعاطفة الاخاء بين عناصر الامة وقد اظهر الاقباط في العهدين من دلائل الوطنية العالية التي عرفوا بها وعرفت بهم ما جعل لهم بعض النفوذ أو كله في بلادهم وفي بلاط المليكين فوضع سعيد باشا كل ثقته فيهم ومع انه الغى كل الدواوين ومنح موظفيها ارضا لتفليحها واستغلال خيراتها فقد جعل كل موظفي دائرته منهم ثم ازداد ميلا اليهم لما رآه من تفانيهم في حب وطنهم حيث قدم عمدهم وكبار اسرهم اولادهم للتجند في الجيش عقب القرار الذي اصدره بتأليف جيش من ابناء العمد واكابر الاسر في الاقاليم ليدافعوا عن حوزة وطنهم دفاعا تاما باعتبار انهم اصحاب المرافق في البلاد واذا نظرنا الى تنصل كثير من ابناء الاعيان في ذلك الحين عن التجند والترفع عنه وقبول الاقباط له عن طيب خاطر واضفنا الى ذلك تداخل الانبا كيرلس الرابع بطريرك الاقباط بين سلطنتي الحبشة ومصر وعقدة اتفاقية سلام بين البلادين منعت تعدى الاحباش على الحدود السودانية وعلى الاملاك المصرية ثبت لنا مقدار وطنية الاقباط العالية وشعورهم القويم لخدمة وطنهم

اما اسماعيل فعرف وطنيتهم العالية كجده ورأى منهم تفانيا في خدمة بلادهم وتمدينها فوثق فيهم وقلدهم على ما المعنا في الجزء الاول

من هذا الكتاب المناصب العالية والاخطاط في الاقاليم وزارهم في قصورهم بالصعيد مع الامبراطورة اوجيني واعجب برقيهم وبغناهم الواسع وباحوال مدارسهم التي كانت وحدها تعلم ابناء العنصرين واظهر دهشته خصوصا من العروش التي اعدها آل عبيد في قنا والبطارسة في جرجا لجلوسه وجلوس الامبراطورة المشار اليها حيث كانت جوانب تلك العروش من الذهب الخالص. وقد عاد فزارهم مرة ثانية مع الملكة فيكتوريا مظهراً لها أن الاقباط قوة صحيحة في نهضة البلاد وتمدينها

عرف اسماعيل فضل الاقباط في خدمة بلادهم ورأى ما تخرجه مدارسهم في القاهرة من نوابغ المصريين بين مسلمين ومسيحيين فاحسن عليها بالف وخمسمائة فدان ورتب لها ٢٠٠ جنيه سنويا. وقد أحيت هذه المساواة التي أوجدها بين الموظفين جميعاً روح الالفة والوفاق حتى لم يكن في عهده ما يسمى مسلم أو مسيحي أو ما يسمى تفاضل بين عنصر وعنصر وبديهي أن الامم لا تسير في داخليتها على نواميس المساواة الا اذا رأت حكومتها تسير عليها وتتبعها.

واذا ما رأيت كيف أن اسماعيل وضع أول نظام للمساواة في حكومته فلأن له موهبة الحكم. وهذه الموهبة وحدها أوجدت الوطنيين في صف واحد وأظهرت قوة الرجال القادرين على خدمة بلادهم الخدمة الصحيحة ومنعت وجود المتطرفين والمتطيرين كما هيأت الامة الى التدرج بسرعة في الحكم الدستوري.

نعم ان بعض ولاة الاقاليم في عهده استبدوا الاهالي وعاملوهم بالقسوه وكان جلهم من الشراكسة ولكن هذا لم يمنعه عن تأديبهم عند وضوح الشكوى على واحد منهم وثبوتها عليه أما ما ينسبونه اليه من زيادة الضرائب على الفلاحين وغيرها فهذه المظالم كانت عامة والظلم في المساوة عدل .

عهد توفيق وعباس

هو اسمى عهد ظهرت فيه وطنية الاقباط وحبهم الشديد لوطنهم وميلهم الاكيد لرفع شانه وفيه ظهر أعظم رجالهم ونبغ منهم أقدر رجال مصر السياسيين في العصر الحديث وقد أفردنا له فصلا خاصا تراه في تاريخ هذا الفقيد العظيم الذي ملأ عهد المليكين وبلاده عملاً وجهاداً واخلاصاً

الدستور والاقباط

٥

اذا افتخر الاقباط بوطنيتهم العالية فيحق لهم الف مرة ومرة أن يفتخروا بانهم واضعوا اساس الدستور المصري وأول من علم الامة معنى الحكم الذاتي ولا اذهب بعيدا فاقول لكم ان اجدادنا في العهد القديم الفوا أول مجلس نيابي في العالم وعنهم تلقت الامم والشعوب الحكم الشوري ولا اقول لكم ان رئيس حكومتنا السابق المغفور له بطرس باشا وسع السلطة النيابية بمشروع مجالس المديريات وعلنية

مجلس الشورى وزيادة اختصاصاته بل فقط اقول لكم ان الاقباط في سنة ١٨٧٣ يوم كانت الامة لا تستطيع أن ترفع صوتا في وجه الهيئة الحاكمة والسلطتين المدنية والدينية الفوا مجلسهم الملي الذي هو عبارة عن انتخاب أفراد منهم للنظر في أحوالهم الداخلية التي كانت في يد رئيسهم الديني وله مطلق التصرف والهيمنة عليها .

وبعد أن سار هذا المجلس في عمله سنوات ووضع لائحته الداخلية المغفور له المرحوم بطرس باشا غالي انبثت منه الفكرة النيابية في بعض الخاصة الذين كانوا يحتكون باعضائه فقاموا يطالبون الحكومة بتأليف مجلس نيابي يشترك مع هيئتها في التسلط على الشعب فمنحتهم هذا المجلس في سنة ١٨٨١ ومع ذلك لم يعمر طويلا ليس لان المدارك لم تكن ناضجة ولا ذات استعداد بل لان التفاضل الحسي الموجود بين العناصر لاشيء وحده ما يسمى حكماً ذاتيا

وبديهي ان الاقباط لم يؤلفوا مجلسهم الا بعد ان وحدوا قوميتهم وعرفوا معنى التضامن الفعلي الذي يعد القاعدة الاساسية الاولى لكل شعب يريد الهيمنة على أحواله الداخلية . قال المسيو كيزو الفرنسوي الشهير في مؤلفه « تحضر الامم الاوروبية » ان أول أمر نلاحظه في عدم توفيق الفرنسويين للحصول على الحكم النيابي في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان لتفرق جامعتهم ولو كان بينها شبه امتزاج وعلائق ولكن حينما تتحد عناصرهم وتزيل ما بينها من الفروق بترقية التعليم

والاخلاق يتمكنون من الحصول على الحكم الذاتي تدريجياً» فانفصام عروة الجامعة القومية والحالة هذه في أية أمة كانت مبعداً لزمان الوصول الى هذا الحكم لأن من مستلزمات التفرق تفشي الجهل والتبذير اللذين تستدعيهما المقاومة المستمرة بين أبناء الامة الواحدة في حين ان العلم والمال هما الدعامة الثانية التي يتوطد عليها الدستور

واذا تقرر ذلك وجب علينا أن نبحث في الدستور الذي يعبرون عنه في مصر بسلطة الامة وفيما اذا كان في الوقت الحاضر ذو فائدة ونفع للمصريين أو هو طريق يريد المطالبون به العبور الى شاطئ أمانيهم وأحلامهم في السيطرة على الشعب واستعباده وفي مقاومة الحكومة في اصلاحاتها فنقول ان الناظر الى الحالة الحاضرة في مصر يعلم ان الحكم النيابي خطر على كيانها وعلى حريتها وعلى سلامة مستقبلها لاسباب كثيرة منها ان الشعب غير متضامن فلا تتوفر العدالة والمساواة بين عناصره فيها لو سلمت اليه مقاليد الاحكام ومنها انه جاهل كل الجهل بموهبة الحكم الدستوري فاذا أناب نوابا عنه فقد حريته في الحال ومنها ان معظمه من العامة فلا بد أن تنتهي أزمة الحكم الى بعض القوالين الذين ينجحون في استمالته بالضرب على النغمات التي تطربه ومنها ان القوالين في كل أمة أكثر الناس عجزاً عن السير بالسلطة في طريق العقل والحكمة ومنها ان اعطاء الشعب حرية أوسع من الحرية الحالية المتبذلة قبل أن يتم نضوجه انما هو تنشيط له على الرجوع الى عهد الهمجية والبداوة

اللورد كرومر

Lord Cromer

وهذا القول الحق لا يقبل جدلا وأمامكم انكلترا التى خلقت ميالة للحكم الدستوري حتى كأنه طبع من طباعها لم تنله بمعناه الكامل الا في القرن الماضي أي انه سار مع شعبها على سنة الارتقاء تدريجياً فتغير في القرن الرابع عشر ثم عاد فتغير تغيرا يستحق الاعتبار مدة رئاسة المستر بت للوزارة وهكذا بقي يتدرج من حال الى حال حتى اكتمل في عصرنا الحالي . أضف الى هذا ان انكلترا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع استقلالها التام كانت أرقى بكثير من حالتنا اليوم ومع ذلك فان نظام حكومتها الدستوري في ذلك العهد كان أضعف من نظام حكومتنا الحاضر

وبناء عليه يكون هياج فصيلة الصياحين في مصر لترويج كلمة سلطة الامة التي يعبرون عنها بالدستور قبل أن تقوى مدارك الامة وتثقف عقولها وأخلاقها وتتعلم تدريجياً كغيرها من الامم الحكم الذاتي ليس الا تغريرا بها وتثبيطاً لعزيمتها عن الوصول الى مرتقى هذا الحكم .

وبديهي كما قال غمبتا أحد رؤساء جمهورية فرنسا انه كلما ترقت العقول وتنزهت عن النقائص الأخلاقية نهضت فيها الديموقراطية من تلقاء نفسها وتدرجت في الحكم الذاتي بكفاءتها وقد لا يمكن أن يوجد شعب واحد يستطيع أن يشترك في السلطة مع الهيئة الحاكمة التي تعد غالباً أرقى هيآته الا اذا أثبت كفاءة وتفوقا علمياً عليها والا كان اعطاؤه الحكم بمثابة تسليم قيادة الجيوش لرجل لا يحسن الرماية

ولا يعرف طرق النجاح والفوز فيلقى بها في هاوية الفناء والموت »

وهذا ما سيكون في مصر لو اعطيت هذا الحكم قبل أوانه وقبل أن تنهض فيها الديموقراطية بالدلائل الحسية لا القولية ليس لان المطالبين بالدستور لم يثبتوا سبباً واحدا يؤيد دعواهم في نيله بالصورة الكاملة بل لانهم لم يوجدوا التضامن بين عناصر الامة ولا هم عضدوا الاقلية في نيل حقوقها ولا هم تركوا تلك الاقلية بدون وخز وبدون وضع العثرات في سبيل مطالبها العادلة . ولا هم أظهروا برهاناً واحدا على كفاءتهم الذاتية وأي كفاءة لاشخاص تجارتهم القول وعيشهم الصخب وحياتهم الاثراء من السذج وادابهم الطعن في كل عظيم ونابغة وعملهم مقاومة المحكومة في اصلاحاتها مهما عادت بالخير على الامة والبلاد .

قوم يريدون الاشراف على ميزانية الحكومة وأحوالها ومشاركة رجالها في أعمالهم على حين ان أكثرهم لم يستطع مع جهاده المحافظة على ثروته القليلة والاشراف القويم على أعماله الخصوصية الصغيرة التي لا تحتاج الى تدقيق وعناية كما تحتاج مالية الحكومة وأعمالها . ولا أقول ان صراخ هؤلاء من البله أو الشطط بل فقط أقول انه من حب الذات الذي تملك الكثيرين منهم ودفعهم الى الظهور بين العامة بمظهر المدافع عن الوطن والمجاهد في سبيله والله أعلم بأنهم سبب شقائه وعلة بلائه وويلاته .

قال الاستاذ مدحت افندي الكاتب التركي الشهير « بث دعاة الوطنية في نفوس عامة المصريين بأنه لا تقوم لهم قائمة الا اذا منحوا مجلساً نيابياً يعطي لهم الحرية المطلقة في مراقبة أعمال الحكومة والاشراف على اجراءاتها وقد رسخت هذه العقيدة في نفوسهم حتى أصبحت أنشودتهم وأصبحوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً ان لا صلاح لحالهم الا بنيل الدستور . وهذا أكبر خطأ ارتكبه مدعوا الوطنية في مصر لان طلب الدستور لا يعطى لامه لا تفقه له معنى ولا تعرف له وزناً خصوصاً وان تسعة أعشارها لا يقرأون وجل أغنيائها مثقلون بالديون .»

ولقد صدق هذا الاستاذ في قوله لان من يجول في بعض البلاد التي تسمم أهلها بميكروبات المتطرفين لا يسمع منهم الا الطعن والسباب في الانكليز لانهم لا يريدون على زعمهم اعطاءهم الدستور واذا سألهم واحد ما هو الدستور استغربوا جدا سؤاله واستجهلوه وقالوا له عجبا ألا تعرف ما هو الدستور وربما أقسموا عليه بأغلظ الايمان انه لا يدرك شيئا فيتركهم وشأنهم بعد أن يستخلص من حديثهم انهم لا يدركون شيئا وانهم كالفونوغراف يحفظون الاصوات ويلفظونها كما هي .

نعم ان المتطرفين يتخذون المئوية في التعليم برهانا قويا على ادعائهم ولكن فاتهم ان الفضل الاكبر في بلوغ تلك المئوية الى الدرجة

التي يتمشدقون بها ترجع الى الاقباط وحدهم لان نسبة المتعلمين فيهم تفوق كل نسبة اخرى . ومع ذلك فالاقباط لم يظهروا يوما صخبا ولا عويلا بطلب الدستور ليس لانهم لا يريدونه بل لانهم يعملون لنيله بواسطة الطرق المشروعة التي سارت عليها كل أمة وهي العلم والمال فاعملوا عملهم وسيروا على خطواتهم وانشروا التعليم وحافظوا على المال وادخروه اذا اردتم ان تشاركوا الهيئة الحاكمة في السلطة والاهيبات ان تنالوا شيئا في زمن العمل الذي لا ينفع فيه القول وفي عصر النهضة الذى لا يفيد فيه الصياح والبكاء

وطنية الاقباط العالية

في عهد الخديوي الاسبق وعصر سمو مليكنا الحالي

اوفذلكة من تاريخ وزير مصر العظيم

المرحوم المغفور له

بطرس باشا غالي

٦

تلك اثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

نعم انظروا الى تلك الاثار ترون عملا مجيدا وجهادا حيا ووطنية عالية واخلاصا شديدا بل افتحوا التاريخ الصامت المتكلم ترون أمة ظهرت قبل عهد الانبياء فهذبت الامم ومدنتها ثم ابقت بعدها سلالة حية هي

تلك الذرية النامية التي ملأت وادي النيل جهادا وعملا ولقنت ابناءه دروس الوطنية العاملة واحيت بينهم القانون الدارس ورفعت شأنهم بين المتمدنين الذين اذ ذكروا مصر في عصرها الحالي قالوا أمة رعمسيس واذا ذكروها في هذا العصر قالوا أمة بطرس غالي

ذلكم مجد يعلو على السماكين وفخر يسمو على النيرين واي مجد أرفع من مجد أمة اعرق الامم حسبا ونسبا. واي فخر اعظم من فخر شعب كثير المواهب عديد العظماء يملأ صفحات التاريخ باعماله وخدماته لوطنه وبلاده فظهر منه في عصور الهمجية والاضطهاد رجال يعد الواحد منهم بالف رجل وظهر منهم في عصر الحرية انبغ من انبتته مصر منذ قرون واجيال وهو السياسي القدير والوزير الخطير المرحوم المغفور له بطرس باشا غالي

ذلك الرجل العظيم الذي جمع الى العلم العمل والى قوة الذكاء قوة الدهاء والى ثبات الجنان سعة الصدر والى محبة الوطن خدمة الامة والى عظمة النفس مكارم الاخلاق مات الى رحمة ربه ولا يزال ذكره حياً حتى لكأن الحياة لا تزال كامنة في صورته تلوح منها أخلاقه وشمائله وتنبثق من شعاعها مهابته فتكاد لولا التقى تمشي لها القلوب في الصدور وتطمح لها العيون وهي شعلة من نور

على انا اذا حصرنا الاعمال الكثيرة التي قام بها لوجدناها هائلة او لاحظنا الاقتدار العظيم الذي استمر يخدم به بلاده لوجدنا تاريخاً

عظيما أضاف فخراً جديداً الى تاريخ مصر والى الفراعنة الاول . وقد يكون من السهل أن يمحى كل أثر في الوجود ولكن من المحال أن يأتي زمن تمحى فيه من صحف القلوب والتاريخ اسم بطرس غالي الذي يلقنه الاباء للابناء فيذكرونه ويمتدحون صفاته ونبوغه الى أبدالايدين

تاريخ بطرس الكبير

حياته المدرسية

ولد المرحوم بطرس باشا غالي في القاهره بالخطه المعروفه بدرب الحمام من أعمال قسم عابدين يوم الاربعاء ١٥ اكتوبر سنة ١٨٤٥ تلوح عليه مخائيل النجابة والذكاء وايات النشاط والاقدام التي تظهر في نشأة عظماء الرجال ونوابغهم الذين خدموا امهم واوطانهم خدمات عاليه ابقت لهم حسن الاثر وخلدت لهم عاطر الذكر. ولما ان شب عن الطوق ادخله المرحوم والده غالي بك نيروز مدرسه حارة السقايين القبطيه فظهر نبوغه وذكاؤه على حداثة سنه بل ظهر نشاطه العظيم وقوة ذاكرته وصفاء ذهنه وهو في العاشرة من عمره حيث تعلم اللغتين الافرنسيه والعربيه واتقن التكلم بالاولى في زمن قصير اتقانا جعل مدرسوه يكبرون قدره ويمتدحون ذكاءه وسرعه خاطره وسعه حافظته ويتنبأون له بالمستقبل المجيد والمجد الرفيع حتى ان الانبا كيرلس الاكبر الملقب بابي الاصلاح حينما زار المدرسه لتعهد أحوالها وتفقد

شؤونها لحظ في الفيقد ذكاء نادرا ونشيطا غريبا فقربه منه وأحسن عليه بجائزة تنشيطا له ثم أوصى به الاساتذة خيرا كما أخذ يسأل عنه بين حين وآخر ليقف على أحواله الدراسية وهو مكب على الدرس والمطالعه حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فدرس اللغة الايطالية على المرحوم يعقوب بك نخله رفيله الذي كان يدرسها وقتئذ في المدرسة لضروريتها في الاعمال التجارية فاحسن التكلم بها في عام واحد وما بلغ الرابعة عشرة حتى اتقنها ومهر فيها واتم دروسه في مدرسته باقرب ما يمكن من السرعة والسهوله . ثم خرج من هذه المدرسة صبيا ذكيا واديبا المعيا مشهوداً له من اساتذته بالاجتهاد والذكاء ودخل المدرسة المرقسية الكبرى بالازبكية فاتقن بها اللغة الفرنسوية على استاذه المرحوم مصطفى بك رضوان ثم انتقل وهو في الخامسة عشرة من عمره الى مدرسة المرحوم فاضل باشا فاتم بها دروسه التي تعلمها في صغره وتفقه في اللغتين التركية والفارسية لمواصلته الليل والنهار في الدرس والمطالعة ولميله الصحيح الى اجتناء العلوم والمعارف حتى قيل انه من شدة مثابرته على الجد والاجتهاد خشي بعض اقاربه على صحته فطلب من المرحوم والده ان يمنعه بما استطاع عن تمضية الليل الطويل في المطالعة التي انهكت قواه ولكن كل ذلك لم يحل دون استمراره على خطته حتى اتقن العلوم واللغات ومهر فيها وصار يبدي للتلامذة والاساتذة علائم التقدم والنجاح وكبر القلب والعقل في السن الصغير والفتاء المقبل ذاك فضلا عن

تمضية اوقات راحته في شرح الدروس لاخوانه باسلوب سهل وذكاء وقاد حتى صار مرجعهم في كل امر فان استعصى على احدهم فهم درس ما قال له بقيه رفقائه اذهب الى بطرس فهو يشرحه لك فكان رحمه الله حلال المصاعب لاخوانه في صغره وحلال المشكلات لحكومته في كبره

ولم يكتف رحمه الله ببروجرام الدراسة بل اتخذ استاذا من أهل خان الخليلي يتفقه على يديه اللغتين الفارسية والتركية ويدفع أجرته من الدراهم القليلة التي كان يتقاضاها من المرحوم والده ليتفكه بها وبهذا تمكن من اللغتين تمكنا تاما وخرج من حياته المدرسية يعرف اللغات العربية والافرنسية والتركية والفارسية والايطالية كأحد بنائها ومبادئ اللغات القبطية والالمانية والانكليزية التي تفقه فيها ومهر في حياته العمليه . وبالاجمال فان الزمن القصير الذى قضاه بطرس الكبير في التعليم مع تمكنه من اتمام دروسه ومعرفته بعدة لغات كان من الادلة على ذكائه ونبوغه وعلى صعوده أول درجة في سلم المجد بل كانت صفاته العاليه وقوة عارضته وغزارة مادته مع طبع لين وخلق سهل من الاسباب التي رفعت قدره في نظر أساتذته الذين مالوا بقلوبهم اليه وتحولوا بابصارهم وأفكارهم نحوه حتى ان استاذه المرحوم مصطفى بك رضوان صرح مراراً بانه سيأتي يوم يكون فيه تلميذه بطرس وزيراً فصدقت نبوته وصار بطرس بذكائه وعلمه وفضله وخدماته الشريفة لبلاده

وزيرا كبيرا لم تنجب مصر أكبر منه ولم ينبت في أرضها سياسي مثيله

حياته العملية

خرج الفقيد العظيم بعد هذا الجهاد المدرسي العنيف الى ميدان الحياة والعمل شابا نابغاً وعاملا قديرا طماحاً الى المعالي ميالا الى خدمة وطنه وامته فعين في اول أمره استاذا في مدرسة حارة السقائين القبطية براتب ٧٠٠ غرش وهو اكبر راتب كان يعطى وقتئذ للمدرسين ولكنه استقال منها بعد قليل لقلة الراتب وعدم استطاعة الدار البطريركية زيادته فخلو خزينتها واخذ يعطي دروسا خصوصية لبعض التلامذة مع مداومته على الدرس والمطالعة والتبحر في العلوم واللغات التي اتقنها صغيرا حتى بلغ أمره للوزير راغب باشا فقربه منه واختاره لتعليم ولده ادريس بك راغب وتهذيبه فاحسن مهمته وعلم ادريس وهذبه أحسن تهذيب جعل له المكانة الرفيعة والمنزلة السامية في نفس الوزير الذى اصطفاه جليسا له وملأ المجالس والمجتمعات بامتداح صفاته ونبوغه حتى زاره يوما الوزير شريف باشا فقدمه اليه مطريا في اخلاقه وفي توقد ذهنه فلحظ منه شريف باشا ذلك الذكاء الوقاد في محادثته فاكبر قدره وشمله بانظاره وتوقع له مستقبلا حسنا في خدمة بلاده

بدأ عقب ذلك ظهور الفقيد بين أهل العلم والفضل فانتظم في سلك مترجمي نظارة الخارجية وكلهم من تلاميذ العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى فصرف حوالي الثلاث السنوات حتى برع في الترجمة

براعة جعلته موضع الثقة في كل عمل وكل مشروع يراد ترجمته ولما آنس في نفسه انه اصبح على علم تام وكفاءة عالية تؤهله ان يحوز دواما قصب السبق على كل موظف وكل ذى علم تقدم في الامتحان الذي اجراه مجلس تجار الاسكندرية في اوائل عام ١٨٦٧ لاختيار بعض المترجمين الاكفاء ففاز على كل الممتحنين واعجب به رؤساء المجلس وكل مطلع على أوراق امتحانه والحقوه بوظيفة مترجم مؤقت في ١٨ مايو من تلك السنة براتب ١٢٥٠ غرشاً ثم عينوه فيها نهائياً في يوم السبت ١١ اكتوبر من تلك السنة براتب الف غرش مصريا حسب ترتيب محافظة الاسكندرية ونظامها

خدمته في الحكومة

برهن الفقيد العظيم اثناء قيامه بوظيفة الترجمة في مجلس تجار الاسكندرية على اقتدار عظيم وكفاءة تامة بما اؤتيه من سعة العقل وتوقد الذهن حتى فضله المجلس على رئيس كتبته في حضور الجلسات وجمع الآراء لثقة الاعضاء الوطنيين والاجانب به ثم رقاه في ٦ يونيو سنة ١٨٧٢ باشكاتبا له فتولى هذه الوظيفة والرأي في كل أعمال المجلس رأيه والملاحظات التي يبديها في ترقية داخليته القول والفصل . وقد اتفق ان عرضت على المجلس قضية لاحد محسوبي المرحوم اسماعيل باشا صديق ناظر المالية وقتئذ وصدر الحكم ضده فادعى على المترجم باضاعة حقه لافشائه أسرار المصلحة وابلغ الامر لمولاه الوزير فشق عليه ما حصل

وذهب في الحال الى المرحوم شريف باشا ناظر الداخلية لتبعية المجلس له وعرض عليه الامر مكبرا فاحضر الفقيد وسأله عن التهمة الموجهة اليه ففندها واظهر حقيقتها فلم يعجب اسماعيل باشا من جوابه وأخذ يتكلم مع شريف باشا باللغة التركية طعنا عليه ولكن ما كاد يتم كلامه حتى رد عليه الفقيد العظيم بهذه اللغة رداً بليغا افحمه واندهش الوزير شريف باشا الذى حكم ببراءته مما نسب اليه وازداد محبة له وتكبيراً لقدره وتعظيما لشأنه

بقى المترجم يشتغل بهمته العالية وذكائه الوقاد في مجلس التجارة حتى أسست الحكومة المحاكم المختلطة في عام ١٨٧٣ وجعلتها نظارة مستقلة تحت رئاسة شريف باشا الذي كان أول عمل له فيها استدعاء الفقيد اليه وتقليده رئاسة كتابها في ٢٨ سبتمبر من تلك السنة نظراً لما يعرفه فيه من الكفاءة والاقتدار ثم رقي بكفاءته في ٢٤ يونيه سنة ١٨٧٥ رئيساً للقلم العربي والترجمة بها براتب ٤٨٤٦ غرشاً و٢٣ باره اي بزياة ٢٢٤٧ غرشا و٢٣ باره على راتبه وفي يناير سنة ١٨٧٦ رقي الى وظيفة ناظر ادارة الاقلام العربية والترجمة ومنح الرتبة الثانية مباشرة مكافاة له على نشاطه واجتهاده وفي ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ زيد مرتبه الى ٧٠ جنيها مصريا وفي ١٤ سبتمبر زيد عشرة جنيهات أخرى ورقي سكرتيرا عاما لنظارة الحقانية وانعم عليه برتبة المتياز الرفيعة مكافأة له على وضعه للقوانين الحالية وتنقيحها وفي سنة ١٨٨٠ عين باشكاتبا للنظارة بمرتب ٧٠ جنيها

حسب نظام الميزانية وفي سنة ١٨٨١ أعيد سكرتيرا عاما للنظارة براتبه وفي ٤ سبتمبر من تلك السنة صدر امر عال بتعيينه باشكاتبا لمجلس النظار براتب مائة جنيه بدلا من كحيل بك حيث انسوا فيه الكفاءة والهمة والتضلع في اللغات وفي ١٠ اكتوبر من تلك السنة أيضا صدر أمر عال آخر بتعيينه وكيلا لنظارة الحقانية مع بقاء وظيفة باشكاتب مجلس النظار في عهدته وفي ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ استقل بوظيفة وكيل الحقانية وانعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة وهذا أول قبطي حاز لقب باشا وفي أيام الثورة العرابية تشكلت وزارة شريف باشا الثانية فعهدت اليه سكرتارية مجلس النظار علاوة على منصبه وفي يناير سنة ١٨٩١ جعل راتبه ١٢٥ جنيها وفي ١٥ يناير سنه ١٨٩٣ عين ناظرا للمالية براتب ٢٥٠ جنيها وفي أول ابريل سنة ١٨٩٤ أنعم عليه برتبة روملي بكلربكي وفي ١٦ منه عين ناظرا للخارجية ولبث في هذا المنصب الى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ حيث منح لقب عطوفة وعين رئيسا لمجلس النظار وناظرا للخارجية لغاية ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ فتكون خدمته للحكومة ٤٢ سنة و١١ شهرا و١٩ يوما

أعماله القضائية

لما قامت حركة نوبار باشا المشهورة بقصد توحيد نظام القضاء في مصر وخصوصاً فيما يختص بالاجانب اعتمد على المرحوم بطرس باشا في تحضير القوانين المختلطة بالاعتماد على القوانين الفرنسية فاشتغل مع المرحوم قدري باشا في ترجمة تلك القوانين المعمول بها الى الآن ثم عادت

الحكومة في سنة ١٨٨٤ وعزمت على تحوير تلك القوانين وتعديلها فشكلت لجنة برئاسة نوبار باشا وعضوية الفقيد ووكلاء الدول وتداولت في مسألة طلب تشكيل لجنة للنظر في المهمة فاختلفت الآراء في هل تكون اللجنة من المندوبين الثواني مع قناصل الدول العظمى والثانوية معاً أو من الدول العظمى فقط وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على تأليف اللجنة من مندوبي الدول الكبرى تحت رئاسة المرحوم بطرس باشا غالي فأتمت التعديل المطلوب ثم الفت تلك اللجنة ثانية في أوائل هذا القرن برئاسة الفقيد أيضاً لتعديل بعض مواد القوانين المذكورة ولو ان ذلك كان داخلا في اختصاص ناظر الحقانية.

وقد تمكن الفقيد في اثناء اشتغاله بترجمة هذه القوانين وتعديلها من تحضير القوانين المصرية المعمول بها الى الآن في محاكمنا الاهلية ومن التبحر في الشريعة الاسلامية تبحرا شهد له به علماؤها وأفاضلها . ولما أن أتم وضع القوانين الاهلية وعرضت على اللورد دوفرين الذي جاء مصر في سنة ٨٣ لدرس أحوالها وافق الفقيد على انشاء المحاكم الاهلية وعدت جريدة التيمس وقتئذ وجود بطرس باشا في نظاره الحقانية من الادلة على حسن النتائج المقبلة وقالت الاستندار ان وجوده بصفة عامل في المشروع ضمانه عظيمة لنجاحه ونشر لواء العدل فوق ربوع الديار المصرية

وفي يناير سنة ١٨٨٤ افتتحت تلك المحاكم التي قن لها القوانين

وناب عن نظارة الحقانية في رئاسة حفلات افتتاح المحاكم الاهلية في الوجه البحري فرأس في صباح يوم السبت ٥ يناير من تلك السنة حفلة أفتتاح محكمة الاسكندرية والقي فيها الخطبة الاتية

« ان سعادة ناظر الحقانية قد انابني عنه في افتتاح مجلسكم هذا الذي هو من أهم المجالس الجديدة لوجوده في أعظم مركز تجاري من القطر فاهنيء حضراتكم حيث ان ثقة الحضرة الفخيمة الخديوية وحكومتها السنية باهليتكم وجدارتكم قد دعتكم لاشتراك في عمل جديد يعد مبدأ لعصر جديد يجتني منه المصريون ان شاء الله مما تغرسون بينهم من أصول العدالة والحقانية ثمرات الرفاهية والطمأنينة

تعلمون ياحضرات القضاة ان سعادة الامم لا تأتي الا بتأمين افرادها على المال والنفس وبتعينكم لوظيفة القضاء الشريفة اعني لتنفيذ القوانين الكافل لهما صرتم مسؤلين عنهما ولا شك انكم ستمهرون وتشمرون عن ساعد الجد للقيام باعباء ما كلفتم به خير قيام فان الرجال بالاعمال وتيقنوا ان الاهالي والاجانب واقفون لكم بالمرصاد وعيونهم شاخصة اليكم واذنهم صاغية لتتلقى اخباركم فاثبتوا بنتائج اعمالكم ان في المصريين رجالا يقدرون العدل حق قدره ولا يخشون فيه قدح قادح ولا يحيدون عنه ابتغاء مدح مادح وبهذا تكونون قد برأتم ذمتكم امام الحق سبحانه وتعالى وحافظتم على شرف ابناء بلادكم واستحققتم ممنونية الجناب العالي الخديوي ورجال حكومته وتشكر

الاهالي عموما.

نعم انه لامر طبيعي انكم ستصادفون بعض المشاق في الابتداء ولكن بالنظر لما هو معهود فيكم ومشهور عنكم من الكفاءة والاستعداد لا بد وان تزول كل الصعوبات حقق الله فيكم الامال ووفقكم الى خير الاعمال

هذا ولكونكم حلفتم اليمين حسب الاصول أمام محكمة الاستئناف بمصر لم يبق سوى مباشرتكم العمل بمقتضى القوانين فاعلنكم ان مجلس الاسكندرية قد افتتح اعتباراً من يومنا هذا»

وبعد أن اتم مأموريته هذه قصد طنطا حيث افتتح محكمتها صباح يوم ٧ يناير والقي فيها الخطبة الاتية

«أن كل مشروع لا يوكل الى اناس خبيرين به قادرين على القيام بواجباته لا يتولد عنه ادنى فائدة ولا بد أن يتلاشى ويزول فالعمدة اذن في جميع الاعمال على الرجال ولما كان اصلاح المحاكم وتطبيق القوانين التي وضع لها أجل مشروع يلزم الاعتناء به والمحافظة عليه وجب حينئذ الا يعين لاجرائه الا من كانت حليته الذمة والكفاءة وسجيته الصداقة والاستقامة فاهني حضراتكم بما نلتموه من ثقة الحضرة الفخيمة الخديوية ورجال حكومتنا السنية بكم بانتظامكم في سلك من انتخبوا لهذا العمل الجليل الا وهو اجراء العدل الذى هو الاساس الوحيد لسعادة الاهالي وحيث انكم عالمون بواجبات وظائفكم ومقدار المسؤلية

التي تحملتموها أمام العزة الالهية والناس اجمع

لهذا اعلمكم بالنيابة عن سعادة ناظر الحقانية ان المحكمة الابتدائية في طنطا قد افتتحت اعتبارا من يومنا هذا فارجوكم ان تحققوا امال الحضرة الفخيمة الخديوية حكومتنا السنية فيكم بان تظهروا من نفحات اعمالكم ما يقر اعين الناظرين ويشنف آذان السامعين نسال الله التوفيق انه بالاجابة قدير »

ثم أفتتح محاكم شبين الكوم وبنها والزقازيق وخطب فيها خطبا انيقة بين فيها واجبات القضاة ومركز ثقتهم الادبي وما ينتظره سمو الخديوي المعظم وعموم الناس من أعمالهم الحسنه العائدة على البلاد باجل الفوائد

ولما ان عاد الى القاهرة الفت الحكومة لجنة لانتقاء نواب القضاء ومساعدي النيابة فانتخب رئيسا لها كما انتخب رئيسا للجنة انتخاب قضاة المحاكم الشرعية في سنة ١٨٨٦ حيث له اليد الطولى والقدح المعلي في اصلاح تلك المحاكم وتنظيمها وحل معضلات القضايا التي كانت تستعصى على القضاة الشرعيين والعلماء الاجلاء . وقد حدث في عام ١٨٨٧ ان نفس الشيخ المهدي كما قال صاحب كتاب الكافي مالت الى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعي الى صنائعه والاغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبد الخالق وقد كان اعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا الى لجنة يرأسها بطرس باشا غالي وكيل الحقانية والشيخ

عضو عن اعضائها فمانعه بطرس باشا غالي في ذلك واشتد في ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ واخذته هزة الاحزاب فاستمال الى رأيه جماعة من العلماء واعضاء شورى البلاد فكان لاحديث لهم في سمرهم الا خبر وقوف بطرس باشا في وجه الشيخ والحيولة بينه وبين هواه واتفق ان رجلا من اهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا باحد شوارع القاهرة واخر يمتلك دارا امام دار ذلك الجزائرلي قد تداعت الى السقوط فاخذ صاحبها في لم شعثها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائرلي ومنعه من العمل وقال له ان منافذ دارك تكشف عورات داري فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال ان بين الدارين طريقا ولا سبيل قط الى المعارضة وطال بينهما الخصام اياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائرلي الى قاضي قضاة مصر فحكم له القاضي بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها حكم القاضي وازعجه اي ازعاج فرفع ظلامته الى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة الفرنسيس فانصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هي وحكمت على خصمه بشيء من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعي فلما شاع خبر ذلك بين الاحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدي الامر وأعظمه جدا وقال انما هو عمل من أعمال بطرس باشا الذي يقصد بها الصاق الخزي باصحاب الشريعة الحنيفية ونصرة

اصحاب شريعة الفرنجه وسعى الشيخ مع جماعه من أعضاء مجلس شورى البلاد والاعيان عند الخديوى ووشوافي حتى الباشا ومازالوا بالخديوي حتى كادوا يستهزونه ويغرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوي وأعلمه بحكاية الجزائرلي وما جرى لصاحب الدار المتداعيه وما حكم به قاضي قضاة مصر وحكم المحكمه المختلطه فكبر عليه فعال الشيخ المهدي واعظم مقارعه المحازبين له من الاعيان وشورى البلاد وأرسل في طلب الشيخ وكلمه في ذلك طويلا ورسم الى بطرس باشا بعمل مافيه المصلحه تسكينا لتلك القلاقل فأشار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل في هذا الصدد فلم ير مناصاً من الاذعان وكتب من وقته الي الجريدة الرسميه وصحف الاخبار المحليه يعلمهم بانه لم يحصل شيء مما ذاع خبره البته وان جماعه العلماء براء من كل تهمه أو فرية يفتر بها عليهم المفترون وأن لا صل لما أرجف به المرجفون العاملون على ايقاظ الفتنه فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوي ماداخله من بغض الشيخ المهدي فخلعه من منصبي الافتاء ومشيخه الازهر وولى مكانه فى مشيخه الجامع الشيخ محمد الانبابي وفى منصب الافتاء الشيخ محمد البناء الاسكندري

وما زال فقيدنا المرجع الاعلى في سائر الاعمال القضائية والمستشار المسموع الرأي لسائر مستشاري اقلام قضايا الحكومة ومنازعاتها ومشاكلها الى يوم وفاته حتى كانت تتحول عليه دائما اثناء توليه نظارة الخارجية اعمال نظارة الحقانية مدة غياب ناظرها في الاجازة ويتفق

وائما وقوع حوادث هامة ذات شأن في اثناء نيابته فيحلها بفكره الثاقب ودهائه العظيم . ومن هذه الحوادث الجسام

حادثة دنشواي

التي اعتدى فيها بعض مزارعي دنشواي على الضباط الانكليز وقتلوا منهم واحدا وجرحوا اخرين بصورة فظيعة فرأس الفقيد بالنيابة عن ناظر الحقانية الذي كان غائبا وقتئذ بالاجازة المحكمة المخصوصة التي الفت لمحاكمة المجرمين من الدنشاويين واصدرت حكمها باعدام اربعة وجلد وسجن اخرين. قال المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية والعضو بالمحكمة المذكورة ان هيئة المحكمة كانت مصممة على اعدام خمسة لولا اصرار بطرس باشا الذي لم يوافق ايضاً الاغلبية على اعدام الرابع وقال أن ضميري غير مرتاح لاعدامه، ولذلك فقد سعى رحمه الله عقب الحادثة في مفاوضة الحكومة الانكليزية في العفو عن المسجونين وبعد اخذ ورد طويلين وافقت على العفو الذي اصدره الجناب العالي الخديوي رسميا يوم عيد جلوسه السعيد عام ١٩٠٧ . وقد اكبر هذه الحادثة دعاة الوطنية واخذوا يتاجرون بها ويستثمرون اموال الامة على حسابها الى اليوم حتى انهم ادعوا أن هياجهم وحده هو الذي ارجف الانكليز فاصدروا امرهم بالعفو عن المسجونين مع أن الفضل الاكبر في العفو عن اولئك المعتدين يرجع الى مداخلة سمو الخديوي المعظم

ووزيره العظيم بطرس باشا كما يستدل من الاوراق الرسمية المحفوظة الى اليوم .

وحدثت عقب ذلك حادثة اخرى اتخذتها صحافة ادعياء الوطنية ومن والاهم من المجانين سببا للمتاجرة وهي حادثة الزوجية الشهيرة للحيلولة بين الاستاذ الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وحرمه كريمة المرحوم الشيخ عبدالخالق السادات ولكن الفقيد حلها أيضا بعقله الرشيد . وله مواقف اخرى تثبت علو كعبه في القوانين والشريعة الاسلامية تراها مفصلة في حياته السياسية .

اعماله الطائفية

قل بين رجال الامة المصرية ونوابغها من خدم امته كما خدمها صاحب الترجمة فهو ابو الاصلاح بين الاقباط ومؤسس دستورهم ومحي جامعتهم ومؤلف شتاتهم ورسول البر والاحسان بين فقرائهم فاليه وحده يرجع الفضل في تشكيل المجلس الملي وتاسيس الجمعية الخيرية القبطية وتعضيد سائر الجمعيات القبطية والاعمال الخيرية والادبية فيها . وقد ظهر عاملا في وسط طائفته عام ١٨٧٣ أى بعد تعيينه في نظارة الحقانية وانتقاله الى القاهرة حيث الف جمعية من رجال الطائفه ثم سعى سعياً مشكورا حتى حمل المرحوم الانبا مرقس مطران البحيرة ووكيل البطرخانة على مشاركة الشعب للاكليروس في مهام الامة وبذلك تألف المجلس الملي الاول على يديه في ١٦ يناير سنة ١٨٧٤

وانتخب وكيلا له ورئيسا للجنة المدارس والمطبعة والكنائس ولكي يجعل للمجلس صفة رسمية كتب بيده الكتاب الاتي في ٢ فبراير من تلك السنة ووقع عليه المطران المذكور وارسله مع المرحومين دميان بك جاد ونسيم بك شحاته الى المرحوم اسماعيل باشا المفتش ليرفعه الى المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق وهذا نصه :

«لما كان جل مقصود الذات العلية الخديوية ارتقاء الرعايا لاقصى درجات التمدن وكانت مصالح الطائفة القبطية المختصة باوقافها ومدارسها وكنائسها وفقرائها ومطبعتها بحسن توجهات العواطف الداورية آخذه في التقدم والعمارية وقد انطبع في قلوب الرعايا حب زيادة التقدم اقتداء بمن احيالهم اسبابه ادامه الله فرأينا انه اذا تشكل مجلس من ابناء الطائفة ليتحد معنا في نظر وادارة خصوصياتها المعتاد نظرها بالبطريكخانة كان ذلك داعيا لزيادة ترقية تلك الامور ونجاحها وبذا نكون اجرينا ما فيه رضي السدة العلية . وعليه دعونا من لزم من ابناء الطائفة لانتخاب اثنى عشر عضوا يتركب مجلس منهم واثنى عشر نائبا لهم . وبانفاس سمو الخديوي المعظم قد تم الانتخاب بمحضر عمل بالبطريكخانة واقتضى ترقيمه لسعادتكم نؤمل عرض الكيفية للاعتاب السنية حتى اذا وافق الارادة العلية الاحسان بصدور الامر الكريم لمحافظة مصر باعتماد المجلس المذكور لرؤية الامور البادية الذكر كان ذلك من ضمن الاحسانات المنسجمة على هذه الطائفة»

وقد وقع هذا الكتاب موقع القبول من نفس المرحوم اسماعيل باشا فاصدر أمره العالي في ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ بتنفيذه فقام الفقيد لساعته ووضع اللائحة الاولى للمجلس الذى استمر عاملا على خدمة الطائفة وترقيتها شؤونها حتى شهر نوفمبر الذي عقبه انتخاب غبطة البطريرك الحالي ووقوفه عثرة في سبيل اعماله فخاف الفقيد ان تؤول هذه العراقيل الى تاخير امد الاصلاح فاتفق مع البطريرك على تقرير راتب شهري له قدره ٣٠ فنتيا بشرط ان تنفذ اجراآت المجلس جميعها على حسب حدوده الموجودة بدون نقض ولا ابرام ولكن لم تمض على ذلك ايام كثيرة حتى عاد البطريرك الى مناوأة المجلس حتى عطل اجتماعه وانحل بالرغم عن المساعي التي بذلت في سبيل بقائه ولم يجد الفقيد حيلة لاعادته في ذلك العهد خصوصا وأنه كان أمام الامة مسألة هامة وهي مسألة اعتناق القمص مخائيل رئيس دير انبا بولا الدين الاسلامي لعدم انتخابه بطريركا ومطالبته البطريركخانة بنقل تكليف ٨٨ فدانا الى اسمه الجديد بحجة انه اشتراها بماله وقد ابدى الفقيد غيرة شديدة على مال الفقراء فسعى لدى الحكومة حتى شكلت لجنة برئاسة نخري باشا وعضوية اربعة من أعضاء مجالس الاحكام وهو من بينهم ونظرت في هذه المسألة ورفعت بها تقريراً الى مجلس النظار الذى وافق عليه وقرر بان كل ما يمتلكه الراهب عائد للدير والكنيسة التابع لها وانه لا يرث ولا يورث وبناء عليه انحلت تلك المشكلة وعادت الاراضي الى

الوقف ثانية الذى بقي يديره البطريرك والاكليروس الى عام ١٨٨٣ حيث شعر فضلاء الشعب ان التأني والامهال تجاوزا الحد وبلغا درجتي الفتور والاهمال فطلبوا من الفقيد التداخل في الامر بكتاب رفعوه اليه في ٢٦ يناير من تلك السنة فاتفق معهم بعد اجتماعات خصوصية كثيرة على عقد اجتماع عام فعقدوه في ١١ فبراير وقام فيه الفقيد خطيباً فقال:

»ان الغرض من هذا الاجتماع هو أخذ قرار بضرورة أعادة المجلس لينظر في الخلل الواقع في المدارس والاوقاف وأحوال الفقراء فاجمع الكل على الموافقة وتعين وفد قابل البطريرك وابلغه ذلك فلم يذعن ثم تعين وفد آخر فلم يذعن له أيضاً ثم قابله المترجم شخصيا فلم تأت المقابلة بفائدة ما وأخيراً قر الرأى على عرض المسأله على الحكومة فصدر امر عال في ١٣ مارس سنة ٨٣ بضرورة تشكيل المجلس فلم يسلم بها فتعين له من لزم من ابناء الطائفة وافهمه ضرورة احترام الامر العالي فلم يذعن لذلك أيضاً وكتب خطابا الى الحكومة بعدم ضرورية المجلس لان المسائل التي يطلب التداخل فيها هي مسائل دينية ومن خصائصه ولكن الهمة التي بذلها الفقيد فى تأليف المجلس لخدمة أمته ولو بخلع البطريرك وانتخاب غيره أدته الى الاذعان وبناء عليه اجتمع أبناء الشعب في ٢٢ مارس لتجديد المجلس ووقف في وسطهم الفقيد خطيباً فقال :

« انه بتوفيق العزيز ورعاية مولانا الخديوي وعناية رئيس مجلس

النظـار ورضي وبركة الاب البطريرك لانتخـاب أرباب المجلس الذي تشكل تحت رئاسـته للمعاونة على النظر في مهام الطائفة وفيما يوجب تقدم شؤونها فلنترك التباغض والتفاخر ونخلص ضمائرنا ولا ننتخب الا المشهود لهم بالفضل والحكمة حتى نتحصل من أولي الفضل والمعرفة والذمة على الفائدة المقصودة ثم استشهد عن ضرورة انتخاب اللائقين بما ورد في أخبار الرسـل عن انتخاب السبعة الشمامسة لسياسـة أمور الارامـل ص ٦ وبما جاء في سفر الامثال عن ضرورة المشورة وفوائدها ص ١١ وص ١٥ ثم قال ولنعلم ان كلنا أعضاء بيت واحد ويلزم أن تكون غاية الجميع عمرانه وتشييده فلنتحد ولنكن يدا واحدة على قلب رجل واحد لنصل الى الغاية فبالاتحاد والتعاون يؤمل النجاح وبالمثابرة والثبات نصل بمشيئة الله الى ذروة التقدم والفلاح »

وفي يوم ١٢ ابريل افتتحت الجلسة والقى فيها المترجم العظيم خطبة افتتحها بحمد الله وشكره على تمام المشروع وتمام افتتاح المجلس ثم بين المأمورية التي القيت على المجلس والمسؤلية التي اتخذها أمام الله وملائكته والعالم بأسره » ثم انتخب وكيلا للمجلس بالاجماع وسن لائحته المعمول بها اليوم وحسم مشكلة القس تاوضروس الراهب بعد ان اشتد النزاع بسببها بين أعضاء المجلس وتوسط في اشكال قام بين الحكومة والبطريكخانة بخصوص ارض أوقفها المعلم ابراهيم الجوهري في جهة فم الخليج وادعى بعضهم انها وقف الانصاري وحسمها باثبات وقفيتها

سیر غورست

Sir Eldon Go

فعلا للاقباط وصدر الامر العالي بتسليم الارض اليهم واعطائهم الاجر المتحصلة في مدة وضع يد الحكومة عليها وقدرها ٣٤٠٠ جنيه . وما زال الفقيد مجاهدا في تثبيت المجلس لاصلاح أحوال طائفته حتى عاد البطريرك الى مناوأته وأخذ يحاربه بكل الوسائل حتى أصبح شبيها بالمنحل وما جاءت سنة ١٨٩١ حتى عقد الشعب العزم على تجديد طلب الانتخاب ولكن البطريرك كتب بلاغا الى المحافظة بمنع الاجتماع بعد ان عقد مجلسا من رجال الاكليروس وطلب منهم التوقيع على قرار وضعه يقضي بعدم الجواز لابناء الطائفة التداخل في تدبير أمور الكنيسة ومتعلقاتها ولكن المرحوم الايغومانس فلتاؤوس أبى التوقيع على القرار ومن ثم استفحل الامر واضطر فقيدنا الكبير ان يسعى للتوفيق بين الطرفين فتمكن من اقناع البطريرك بوجوب الاذعان لمطالب الشعب فاذعن وعقد المجلس في ٣١ اكتوبر سنة ١٨٩١ فوقف فيه المترجم خطيبا فقال

« انه وان كان سيادة البطريرك غض الطرف عن الخلاف السابق وقد اذعن مصرحا برضائه عن جميع اعمال طائفته كما أن حضرات اعضاء المجلس اغضوا عن كل ما سبق حصوله ولكن ارى أن يكون افتتاح هذه الجلسة باعادة استسماح حضرة البطريرك وتكرار الدعوات منه اليهم والتصريح برضائه عنهم واخلاص نيته من جهتهم كذلك اطلب من المجلس أن يكون همه دائما النفع العمومي ومطمح انظاره تأليف

القلوب وسعيه قاصرا على ما يؤول الى تقدم الطائفة ورفاهيتها »

ولكن هذا الصلح لم يلبث بضعة اشهر حيث عاد البطريرك فكتب الى الحكومة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٩٢ يدعي أن المجلس مخالف للدين وانه لا يوافق عليه فاضطر المغفور له بطرس باشا أن يجعل حدا لهذا النزاع فعقد اجتماعا من وجهاء الطائفة وكتب الى الحكومة كتابا طويلا يطلب فيه رفع يد البطريرك من رئاسة المجلس ومن ادارة كل ما يتعلق بشؤون الطائفه فوافقت عليه ونفذ قرارها في اول اغسطس فتوسط في المسألة قنصل روسيا الجنرال وسأل الفقيد حل الخلاف فعقد مع البطريرك الوفاق الآتي القاضي بتعديل بعض المواد لائحة المجلس

أولا ـ أطيان أديرة الرهبان تقدم حساباتها لغبطته وزائد نقودها يحفظ لمحلاتها وثانيا الاعمال المختصة بالاكليروس يكون نظرها بالاتحاد مع المجلس الروحي وثالثا ـ المادة المختصة بالاحوال الشخصية تنظر فيها المواد المختصة بالشريعة بالاتحاد مع المجلس الروحي أما الاحوال المتعلقة بالمجالس الحسبية فتنظر بالمجلس ورابعا ـ ديوان البطريكخانة يكون بمعرفة البطريرك ولا اختصاص للمجلس فيه وخامساً ـ حجج وسندات الاوقاف بعد تسجيلها تحفظ بمحلات أوقافها وسادسا ـ امتعة واواني الكنائس والاديرة تحرر بها كشوفات للتسجيل وتبقى بمحلاتها كما هي وسابعاً ـ رئاسة المجلس تكون لغبطة البطريرك ومن يوكله بمعرفته من الاكليروس وثامنا ـ أعضاء المجلس المنتخبون الآن يجري

تعديل الغير موافق منهم وتاسعاً ـ بعد التعديل يكون ثلث المجلس من المنتخبين بالمجلس الروحي والثلث من الشعب . وعلى هذا الاتفاق قد قبلت العمل ومن الآن يجري تعديل المواد المختصة بالاكليروس والحجج والاثاث حالا . وعند عودة البطريرك لرئاسة المجلس واشتغاله بالبطريكخانة في وظيفته قبل مدة شهر يجري تعديل بقية المواد .

«بطرس غالى»

غير ان البطريرك ازداد تصميما على رأيه ومقاومة للمجلس ولما أن علم الفقيد ان الحكومة عزمت على خلعه لعدم احترام أوامرها رأى أن يتداخل المجلس في الامر حتى لا تتخذ الحكومة هذه المسألة وسيلة تتمكن بها من عزل وتنصيب رؤساء الدين ولذلك طلب المجلس من الحكومة رسمياً خلعه فصدر الامر العالى بذلك في ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٢ ثم علم الفقيد بعزم رياض باشا على التداخل في الامر وعرقلة مساعي المصلحين فأسرع بحل المجلس وعقب انحلاله استرجع البطريرك من منفاه في ٤ فبراير سنة ٩٣ وتصالح مع الاكليروس بحضور المترجم وحده الذي تمكن من حل الاشكال كله ومن ايجاد الاتفاق بين الشعب والاكليروس بتأليف لجنة ملية مؤقتة تشتغل مع البطريرك في مهام الطائفة مع قيامه بحسم كل اشكال ونزاع يعوق أمته عن الارتقاء والتمدن

وقد بقيت اللجنة الملية ١٣ سنة مغلولة الايدي لا قدرة له على القيام

بالاصلاح والعمل حتى تذمر الشعب وقام في أواخر سنة ١٩٠٥ يطالب بتأليف مجلسه الملي القديم فعقد الفقيد اجتماعا مع البطريرك وبعض رجال الاكليروس واتفق معهم باوفقية تشكيل المجلس حسب اللائحة والاتفاق الذي سبق عمله في سنة ٩٢ مع تعديل المواد الاولى والثانية والرابعة والتاسعة منه كما يأتي :

المادة الاولى ـ يضاف عليها بانه اذا كان يستجد عمل خيري عام وتشترك فيه الامة فيكون من الواجب ان رؤساء الاديرة يتبرعون ايضاً من مال الاديرة مساعدة للمشروع بحسب مقدرة كل دير وظروف الوقف ويصير تحسين حالة مدارس الرهبان الموجودة الان والسابق تقريرها من المجمع الروحي وتزاد مدرسة لدير انبا بولا ويكون التعليم في المدارس المذكورة بصفة الزامية ونفقاتها تكون على جهاتها كما هو جارى

المادة الثانية ـ تعدل بان يتعين اربعة من المطارنة والاساقفة تحت رئاسة البطريرك للنظر فى جميع ما يختص بالاكليروس بدون مدخل للمجلس في ذلك

المادة الرابعة ـ تعدل بان اعمال مستخدمي ديوان البطريكخانة متعلقة باعمال المجلس فيكون من حقوق المجلس النظر في أمورهم تحت رئاسة البطريرك

المادة التاسعة ـ تعدل بان يشكل مجلس روحي يتركب من اربعة

للنظر في الاحوال الشخصية الموجودة بالائحة

وفي ٢٢ دسمبر انتخب اعضاء المجلس تحت رئاسته وصدر الامر العالي باعتماده في ١٤ فبراير سنة ١٩٠٦ الا انه تعطل عن العمل لكثرة العثرات والعراقيل التي وضعت في سبيله ثم اشتد الخلاف بين أعضائه والبطريرك واستفحل الامر الى درجة كادت تعيد حوادث عام ١٨٩٢ ولذلك حاول الفقيد ان يصلح بين الفريقين بالتوفيق بين مطالبهما فلم تمهله الايام حيث قضى على حياته العزيزة ذلك الشقي المجرم الدني وعطل اصلاح طائفة برمتها وجنى على وطني كبيرا كبر جناية يلعنه عليها كل انسان في الارض

اعماله الخيرية

اي صفحات تسع تلك الاعمال الخيرية العظيمة التي قام بها فقيد مصر فقد كان رحمه الله اب الفقيد وعضد اليتيم والارملة انفق من امواله شيئا كثيراً في سبيلهم وقضى حياته عاملا على خيرهم فأسس الجمعية الخيرية القبطية في اول يونيو سنة ١٨٨١ للقيام باود المحتاجين ومعالجة المرضى المعدمين ودفن المتوفين ومساعدة أولادهم وتعليم الاطفال المنقطعين الى غير ذلك من الاعمال الجليلة العائدة بالنفع على الفقراء اجمعين وقد احتفل بافتتاحها رسمياً في ٨ يناير سنة ٨٢ وخطب فيها الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار والسيد عبد الله نديم وأديب بك اسحق ولبثت تخدم الفقراء واليتامى والفقيد يعضدها بما في وسعه

وبما تجود به يمينه المبسوطة كل البسط حتى انه كان يتأفف كثيرا من امتداح الجمعية للمحسنين اعتبارا منه ان الاحسان واجب على كل انسان رحمة باخوانه المعدمين . وقد قامت تلك الجمعية بخدمات عظيمة وكثرت أوقافها وايراداتها وأسست المدارس الخيرية التي يتعلم فيها أبناء القطر على مختلف أجناسهم ويتلقى كل فريق منهم دينه وعقيدته على أساتذة من أئمته .

ولم يكتف رحمه الله بذلك بل طبع على انقاذ المعوزين وتعضيدهم حتى لم يخل عمل خيري من تبرعاته الكثيرة التي انهالت على سائر الجمعيات الخيرية والمشروعات العامة وعادت على البلاد واهلها بالسعادة والارتقاء ومما يؤثر عنه انه اول رجل في مصر أرشد الامة الى ان مساعدة الفقير خير وابقى من أحياء الحفلات والقيام باود عدة عائلات فقيره بائسة خير من انفاق المال على الخمر والمأكل وسماع الالحان يثبت ذلك انه ابطل اقامة مهرجان لزواج أولاده في ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ ليحيي بنفقاته حياة عشرات من البشر. وقد كان في وسع الوزير رحمه الله ان يقيم مهرجانا عظيما يستقطر كل رؤوس الاقلام وريش المصورين ولكنه تبرع بثلثمائة جنيه للفقراء بدلا من المظاهر الباطلة فابقى له ذكرا صالحا ومجدا حقيقيا بل وضع بعمله هذا المبرور حجر الزاوية في مبدأ كاد ان يتناسى وهو مبدأ محبة الانسانية والبر بالفقير والمعدم وهكذا الرجل العظيم هو الرجل الاول الذى يضع خطة العمل ويمشي في طليعة

قومه في عمل مفيد ويسير بامته الى حياة جديدة هي كل الحياة وكل النور وكل الامل وكل الرقى والسعادة

أعماله الادارية والمالية

لم تر الامة المصرية منذ عهدها الاول الى عصرها المنير رجلا له اليد الطولى في كل عمل من اعمالها سواء في التشريع او في الاعمال الادارية والمالية مثل المغفور له صاحب الترجمة فكان اول من نظم المصالح الادارية في مصر ثم استلم زمامها اثناء الثورة العرابية ثم رأس في سنة ١٨٨٤ بالنيابة عن نوبار باشا لجنة توسيع سلطة المديرين ووضع القانون الاداري الذى يشمل بيان الحقوق والواجبات المفروضة على كل موظف وقس على ذلك سائر القوانين الادارية الاخرى التي وضعها واجاد فيها بتدبيره وعقله الرشيد ومنها قانون النفي الاداري الذى صدر في عهد وزارته وكانت نتيجته نقصان عدد الجرائم في بلاد القطر

أما أعماله المالية فتدل على نبوغ رجل عصامي في الاعمال الاقتصادية فانتخبته الحكومة اثناء توليه رئاسة كتاب الحقانية مساعدا لرياض باشا الذي عين نائبا عن الحكومة المصرية في مجلس تصفية ديونها عند ما ارتابت الدولتان الانجليزية والفرنسوية في مالية مصر وعينتا مندوبين من قبلهما ولما ان اعتزل الرئيس الاجنبي منصبه وتولى رياض باشا مكانه عين الفقيد وكيلا له في الدفاع عن مصالح الحكومة وقد اتاه هذا المنصب على غير استعداد اذ لم يكن له المام في الشؤون المالية

ولكنه عول على نفسه وعلى جهاده فاكب على دراسة الموضوع ليلتين حتى تمكن من خاطره فوضع تقريره المشهور ومذكرة عن الضرائب والاطيان بصورة يتراءى لقارئها من الماليين ان المترجم درس الموضوع من عدة أعوام كما اوضح ذلك جرجس بك حنين في كتابه الاطيان والضرائب في القطر المصري والكبتن ليونس مدير مصلحة المساحة السابق في كتابه الذي وضعه عن اعمال المساحة والمالية في مصر وكذلك اعتمد على تقرير الفقيد يعقوب ارتين باشا في كتابه المسمى الاحكام المرعية في شأن الاراضي المصرية والسير الدن غورست في كتابه الذي وضعه في ١٨ يوليو سنة ١٨٩٢ يوم كان مراقبا للاموال المقررة وسماه القوانين العقارية في الديار المصرية

وفي ٥ ابريل سنة ١٨٠٠ صدر أمر عال بتعيين أعضاء قومسيون التصفية الذين عينتهم الدول والفقيد نائبا فيه عن الحكومة المصرية فقامت تلك اللجنة بوضع التقرير ورفعته الى المرحوم الخديوي توفيق في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فصدر الامر العالى بالتصديق عليه في ١٩ منه وهذا ملخصه :

قدرت لجنة التصفية بالاتفاق مع الحكومة المصرية التي ينوب عنها بطرس باشا غالى مطالب ادارة البلاد بنحو ٤٩٠٠٠٠٠ جنيه سنويا ومن ضمنها الجزية العثمانية وقدرها ٦٧٨٠٠٠ جنيه وما عليها دفعه لانكلترا عن أسهم قناة السويس وقدره ١٩٤ الفا ومساعدة ايرادات

الدائرة بما تقديره ٣٤ الفاً وقسط المقابلة وقدره ١٥٠ الفا. أما الايرادات المخصصة لفوائد الدين المؤلف من ٢٢٥٨٧٠٠٠ جنيه للدين الممتاز و٥٧٧٧٦٠٠٠ جنيه للدين الموحد فتؤخذ للاول من ايرادات مصلحة سكة الحديد ورسوم ميناء الاسكندرية وتؤخذ للثانى من ايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط ما عدا ٧ في المائة تؤخذ منها مصاريف الادارة

وحيث ان فائدة الدين الممتاز باعتبار ٥ في المائة يبلغ سنويا ١١٨٧٠٠٠ جنيه فتقرر ان يجرى استهلاك هذا الدين ابتداء من سنة ١٨٨٠ بطريقة سحب النمر كل نصف سنة واذا قصرت الايرادات المخصصة له عن المطلوب يجري سداد ذلك من الايرادات المخصصة من الدين الموحد

أما الدين الموحد فجعلت فائدته ٤ في المائة مع كفالة الحكومة المصرية له متى حصل عجز في الايرادات المخصصة له ويستهلك بطريقة المشترى العمومي من زيادة الايرادات المخصصة بعد سداد فوائدها واقساط الممتاز. واذا كانت زيادة الايرادات المخصصة غير كافية بعد سداد تلك المطالب باستهلاك قيم الدين الموحد البالغة ٢٨٨ الفا (نصف في المائة من رأس المال) تكون الحكومة ملزمة بسداد ذلك العجز اه

ثم وضع القانون شروطا أخرى تجرى عليها بقية الديون ورسم نظامات جعلها قاعدة لتوزيع بقية الايرادات على مصالح الحكومة ونظم اختصاصات صندوق الدين. وبالاجمال فان هذا القانون عم

نفعه الدائنين والحكومة المصرية ورعاياها لانه باسقاط معدل فوائد الدين من ٧ في المائة الى ٤ فقط خفف عن كواهل المصريين الذين يدفعون الضرائب الاميرية اثقال مليوني جنيه اي خمس ميزانية الحكومة وقتئذ

ولما ان حصلت الثورة السودانية وطلبت الحكومة المصرية في عام ١٨٨٤ عقد قرض جديد عين الفقيد عضوا في اللجنة المشكلة للنظر في ذلك وهكذا لبث الى آخر حياته نائباً عن بلاده في كل عمل مالي خطير فضلا عن الخدمات الجليلة التي اداها للاهالي بتخفيف بعض الضرائب عنهم اثناء توليه نظارة المالية وفضلا عن اتفاقه في سنة ١٩٠٤ مع الدولة المحتلة عقب الاتفاق الانكليزى الفرنسوي على اطلاق يد الحكومة من الاسر المالي التي كانت فيه فترك لها بذلك المال الاحتياطي تتصرف فيه بلا منازع بعد أن كانت يدها مغلولة عنه كل الغل

حياته السياسية

ظهرت قدرة الفقيد السياسية العظيمة عند ما انكسر الجيش المصري ايام الثورة العرابية فانه تمكن بحذقه ودهائه من انقاذ البلاد من هؤلاء الثائرين المتهيجين وذلك انه لما جاء عرابي مخذولا من موقعة التل الكبير واراد اقامة الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية لصد الانكليز لم يتفق معه الضباط الذين ثاروا ضده واضطروه ان يعقد مجلساً عرفيا حضره كبار الضباط

والاعيان والعلماء والرؤساء الروحانيين ثم وقف هو في مقدمتهم خطيبا مبينا لهم النتائج السيئة التي تعود على البلاد واهلها من وقوع الحرب في وسط القاهرة وما زال يدحض كل رأى او ملاحظة تبدو من الحاضرين حتى حول أفكارهم جميعا الى السلام ثم عرض عليهم أن يكتبوا عريضة استرحام للجناب الخديوي فاشاروا على عبد الله نديم بكتابتها فحاول أن ينسب الحركة الى رأي الخديوي وشدد هو واعوانه في ذلك فلم يوافقهم الفقيد واضطروا في نهاية الامر أن يطلبوا منه كتابتها فاملاها عليهم وملخصها : « قد أخطأنا في ما وقع منا. ونرجو من ولي النعم العفو عنا » .ثم حملها رؤوف باشا ومحمد باشا الروبي وقدماها الى الجناب العالي في سراي رأس التين فرفض قبولها

ولما ان انتهت تلك الثورة لبث الفقيد موضع ثقة الحكومة والمساعد الكبير للنظار في حل المشكلات الداخلية والخارجية حتى أن الحكومة الانكليزية حينما سعت لعقد مؤتمر من الدول الاوروبية ينظر في حالة مصر المالية وغيرها أشارت التيمس أن يكون الفقيد نائبا فيه عن الحكومة المصرية لاختباره باحوالها خبرة تامة ولمواهبه السامية التي عرف بها في كل ادوار حياته وفي سنة ١٨٨٨ قامت مشكلة عظيمة بين الاحباش عقب وفاة الملك يوحنا حيث قام الامبراطور منلك الحالي مطالباً بالعرش فابى المطران بطرس ان يمسحه لانه اعطى عهدا ليوحنا بمسح ولده ملكا على الاحباش فذهب الى الاسقف متاؤوس

المطران الحالي وطلب منه ان يمسحه فتوقف اولا لعدم سماح القانون له بذلك ثم مسحه وكتب مناك الى البطريرك كتابا يخبره فيه بما حصل ويطلب موافقته فاشار الفقيد العظيم على البطريرك بضرورة الموافقة منعا لنشوب الحرب الاهلية بين الاحباش ثم رسم له الخطة التي يجب ان يتبعها فى الرد وبذلك حقن دماء الالوف من العباد. وما زال يحل المشكلات برأسه الكبيرة وعقله الرشيد حتى قلد بكفاءته نظارة المالية في ١٩ يناير سنة ١٨٩٣ واظهر الجناب العالي لرجال الاكليروس القبطي عند تشرفهم بمقابلته انه مسرور جدا من تقليد بطرس باشا لوزارة المالية لانه من رجال حكومته المخلصين الامناء المدربين على العمل والمعروفين بكبر العقل والحكمة. ثم قلد وزارة الخارجية في ١٦ ابريل سنة ١٨٩٤ لاعتقاد الحكومة بكفاءته التامة في حل العسير من المشاكل فكان فيها قط الدهاء والسياسي الشرقي الوحيد الذي يندر وجوده. وقد امتاز في انه كان يلبس لكل حالة لبوسها وهي مزية عظيمة في نظارة الخارجية خصوصا في بلاد مثل مصر ولكن هذه المزية كما قالت التيمس كانت مقرونة باكثر مما يوجد غالبا في الساسيين الشرقيين من الصراحة والشجاعة والاستقامة والاخلاص لخدمة الامة والوطن

وقد تمكن رحمه الله من التوفيق بين مصالح الدول المتعددة التي كانت تحيط به ولها مصالح واموال ووضع معها سائر المعاهدات

التجارية المعمول بها الى اليوم وذلل الصعوبات العظيمة التي كانت تقوم دواما بين الحكومتين المصرية والانكليزية بدهائه وسعة حيله العقلية وفي اوائل سنة ١٨٩٩ خابر بطريرك السريان الباب العالي بان لشعبه في مصر اوقافا اغتالها الاقباط فرفعت خارجية تركيا الامر الى الحكومة الانكليزية ولكن الفقيد تمكن من اقناع اللورد كرومر بعدم احقية السريان للاوقاف وبذلك حفظ تلك الاوقاف لامته وحسم الاشكال . وفي شهر ابريل من تلك السنة وضعت الحكومة مشروع امر عال باصلاح المحاكم الشرعية ، تغيير هيئتها وعرض هذا المشروع على الجمعية العمومية فقدم الشيخ جمال الدين قاضي مصر وقتئذ والشيخ حسونه النواوي شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية اعتراضا خطيا على هذا المشروع مفاده أن العمل مخالف لنظام الشرع الاغر بدليل أن جلالة السلطان وحده هو الحاكم الشرعي المطلق في الامور الشرعية والقاضي الاكبر نائبه يعين بارادته ويفصل بمجرد ارادته ولا حق للحكومة المصرية باحداث اي تغيير في هيئة المحكمة الشرعية الكبرى لان ذلك التغيير ليس من خصائصها فضلا عن أن كل حكم يصدر من غير قاضي مصر ومن دون اذنه لا يكون شرعيا ومن الواجب أن يكون القاضي في المحكمة الشرعية متصفا بصفات التمكن من الشريعة وله قدرة تمكنه من معرفة الاحوال الراجحة شرعا من غير الراجحة والاقوال الصحيحة من غيرها أيضاً والمشروع لا يكفل

ذلك وبناء عليه يعد مخالفاً لنظام الشرع فلما أن سمع الاعضاء هذا الاعتراض وافقوا عليه بالاجماع . ثم عرض المشروع على مجلس الشوري في ١٠ مايو بحضور النظار والسير مكلريث المستشار القضائي الذى اكد للاعضاء بان الحكومة لا ترمي الى مس الشريعة الغراء بشئ في هذا المشروع أو سواه وبعده وقف الفقيد العظيم وخطب زهاء الساعة بما اوتيه من طلاقة اللسان وبراعة الالقاء فدحض وجوه الاعتراض الذي اعترضه القاضي ومتولي المشيخة والافتاء ذاكرا انه اضطر الى التعرض للسياسة في هذا المشروع لان الاعتراض الذي وجه اليه مبني على السياسة وهو القول بان تولية قاضي مصر من حقوق الخليفة الاعظم دون سواه وانه ليس لسمو الخديوي المعظم حق تنصيب القاضي الشرعي مع أن تعيين نافذ افندي قاضيا لمصر في عهد المرحوم اسماعيل باشا شاهدا على أن للامير من الحق في هذه المسألة عين ما للخليفة ثم ذكر شيئاً من اللوائح والترتيبات التي ادخلتها الحكومة على المحاكم الشرعية ولم يعترض عليها قاضي مصر ولم يعدها مخالفة للشرع الاغر وعليه يكون المشروع الحالي لا يخرج عن كونه مشابها لتلك اللوائح والترتيبات التي وافق علها القاضي بدون ادنى اعتراض وبدون حاجة الى المناقشة والجدال » .

ولما أن انتهى من خطبته صمم القاضي والمفتي على رأيهما فقال لهما الفقيد أن الحكومة تستبدل القاضيين الاهليين في هيئة المحكمة بعالمين

من علماء الازهر وسألهما هل يبقى المشروع مخالفا للشرع الشريف فاجابا كلا ولكننا لانوافق عليه ووافقهما مجلس الشورى وعندذلك دخلت المسألة في دور سياسي كبير حيث عزز الباب العالي القاضي في اعتراضه على المشروع ولكن الفقيد ارتأى ان توافق الحكومة عليه وتعين قاضيا شرعيا آخر بدل القاضى المعترض وتعزل الشيخ حسونه من وظيفتي الافتاء ورئاسة المشيخة فعلمت بذلك الحكومة العثمانية واضطرتها الاحوال الى اصدار أوامرها للقاضى بالتساهل في المسأله منعا للاشكال وما وردت هذه الاوامر حتى كانت الارادة السنية قد صدرت بعزل الشيخ حسونه وتعيين الشيخ عبد الرحمن النواوى شيخا للجامع الازهر والشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية والى هذا الاخير يرجع الفضل الاكبر في ادخال النظام الى المحاكم الشرعية بعد تعيينه في هذا المنصب وانتهى عام ١٨٩٩ بتوقيع الفقيد الكريم على اتفاقية السودان المشهورة بعد موافقة مجلس النظار عليها ولا حاجة بي الى شرح شيء عنها بعد الذى قاله المستر روزفلت عن السودان في انكلترا وتراه منشورا في غير هذا المكان .ثم وفي أوائل هذا القرن قام الاحباش ينازعون الاقباط في ملكية دير السلطان بالقدس الشريف فقام الفقيد في سنة ١٩٠٤ الى الاستانة العلية وحسم المسأله بدهائه وحسن سياسته حيث تحصل على ارادة شاهانية بملكية الاقباط للدير دون سواهم ثم قابل السلطان في سراي يلديز فاحسن وفادته واكرمه وانعم عليه بالنيشان المجيدى المرصع واهداه علبة سجاير

مرصعة منقوش عليها طغراء اسم جلالته بالاحجار الكريمة ثم عاد مع الجناب العالي في بخت المحروسة وبالرغم عن صدور هذه الارادة فقد عاد الاحباش في سنة ١٩٠٨ للمفاوضة مع الدولة العلية في اخذ الدير وساعدتهم الحكومة الايطالية ولكن مساعيهم ذهبت ادراج الرياح ودلت على اقتدار عميدنا العظيم ودهائه الكبير الذى شهد له به اكبر سياسي العالم من مشرقه الى مغربه فقال عنه اللورد كرومر ماقاله روزفلت والسير غورست والسير جراي والمسيو بيشون والبارون دارنتال والسنيور جوليتي وغيرهم من اقطاب السياسة

قال اللورد كرومر في كتابه مصر الحديثة وقد اشغل قبطي (بطرس باشا غالى) ذو كفاءة عالية لمدة طويلة مركز وزير الخارجيه ونال لنفسه شهرة بلغت حد الاقاق » ثم قال عنه في خطبته التي القاها في الاوبرا الخديوية يوم وداعه ومما أوجب لى السرور العظيم انني عاشرت ناظر الخارجية المصرية مباشرة طويلة . وكان يؤدي اعظم منفعة وأجل خدمة نافعة بما أوتي من سعة الحيلة العقلية في حل المشكلات التي تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية . ومع ذلك فقد قال المؤيد في اليوم التالى وقد مدح اللورد كرومر بطرس باشا غالى بسعة الحيلة العقلية في حل المشكلات وهي كلمة صغيرة جدا في جنب ما أداه هذا الوزير من الخدم الجليلة للبلاد في حل المشكلات بين اللورد والجناب العالي من جهة وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى.

وقال السير جراى رداً على سؤال لاحد أعضاء مجلس البرلمان «انني لا أود أن اسمع كلمة سوء عن بطرس باشا فان خدمات الرجل أعظم من أن تؤثر عليها سفاسف المتطرفين وذوى المآرب والاهواء»

وزارته القصيرة

ان اقتدار الفقيد العظيم واخلاصه في خدمة بلاده جعلت الجناب العالي والحكومة الانكليزية عقب استقالة وزارة مصطفى باشا فهمي يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ان يكلفاه بتشكيل وزارة جديدة وصدرت اليه الارادة السنية الآتية :

سعادتلو بطرس باشا غالي حضرتلرى

بناء على ما هو معلوم فيكم من الكفاءة والدراية ووثقنا بكم قد وجهنا لعهدتكم مسند رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نكلفكم بتشكيل هيئة نظارة جديدة وكونوا على يقين من تعضيدنا ومساعدتنا اياكم في جلائل الاعمال التي عهدنا بها اليكم ونسأل الحق جلت قدرته أن يوفقنا جميعا لما فيه خير البلاد ورفاهية العباد انه نعم المولى ونعم البصير

١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ عباس حلمي

فقام الفقيد وشكل الوزارة وعرض على الجناب العالي ما يأتي:

مولاي

قد تفضلت ذاتكم العلية بتوجيه رئاسة مجلس النظار الى عهدتي وكلفتني بتأليف هيئة نظارة جديدة فاتشرف ان ارفع الى مقام سموكم

« تابع ملزمة ١٢ »

اسماء من تشكل منهم هذه النظارة وهم اصحاب السعادة: سعد باشا زغلول ناظرا للمعارف العمومية وحسين باشا رشدي ناظراً للحقانية ومحمد بك سعيد ناظراً للداخلية واسماعيل باشا سري ناظرا للاشغال واحمد باشا حشمت ناظرا للمالية

فان حازت هذه التعيينات القبول لدى سدتكم العلية" التمس صدور الامر الكريم باعتمادها وتقليدى نظارة الخارجية كما تعطف جنابكم الرفيع وعهد الي رئاسة مجلس النظار واني مع غاية الاجلال لمولاي

عبده الخاضع الامين

بطرس غالي

وفي ذلك اليوم صدر الامر العالي باعتمادها ثم تشرف حضرات النظار بمقابلة الجناب العالى شاكرين فقال لهم سموه« اخترت بطرس باشا لرئاسة الوزارة لانه طويل الخبرة في أعمال الحكومة ولانه مخلص لبلادي ولشخصي وطالما كان عوني في صعاب الامور وشدائد الحال »

تقلد الفقيد العظيم رئاسة الوزارة فكانت باكورة اعماله حل مشكلة الازهريين واراحتهم من المتاعب حتى ان الحكومة لما صممت على اغلاق الجامع قال لا يمكن ابداً في عهدي ان يمس الازهريون بسوء ثم وضع مشروعا يقضي بسفر العلماء في قطارات سكة الحديد بنصف أجرة واصدر امره بتعطيل دواوين الحكومة في يوم رأس السنة

الهجرية وغير اسم الحكومة المصرية باسم الحكومة الخديوية واصدر لائحة رسوم المحاكم الشرعية

ولما كان رحمه الله عليه اول من هيأ لطائفته مجلسا نيابيا ومنه دبت في صدور امته الميل للحكم الذاتي فقد نفذ مادة من مواد القانون النظامي كانت مهملة من قبل وهي المادة المختصة بحضور النظار في جلسات مجلس شورى القوانين ففي جلسة ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨ للمجلس المذكور حضر مع النظار والقى على الاعضاء الخطبة الاتية

ايها السادة

«ان المادة السابعة والعشرين من القانون النظامي اجازت للنظار الحضور في جلسات مجلس شورى القوانين والاشتراك في مداولته برأي شوروي»

«ولما كان الغرض من ذلك هو ان يوجد دائما تفاهم بين هيئة الحكومة وبين أعضاء شورى القوانين في درس المشروعات التي تعرض عليهم فلهذا قد عزمت اناورفقائي على حضور جلسات المجلس كلما كانت لديه مشروعات ذات بال واتعشم انه بهذه المشاركة تقوى ثقة كل منا بالاخر وتزول ان شاء الله اسباب سوء التفاهم الذي كان يوجده دائما عدم تمكن حضراتكم من أخذ الايضاحات التي ترون لزوم طلبها من النظار» وما انتهى من خطابه الا وقام رجال الشورى وشكروه وعدوا هذا اليوم فاتحة عصر جديد للتقدم والنجاح ثم دخلت سنة ١٩٠٩

فاقام مهرجانا عظيما يوم عيد الجلوس دليلا على اخلاصه فكان أول وزير مصري قام باحياء هذا العيد في قصره وحضره كل عظماء مصر وامرائها واكابرها ونظم فيه شوقي بك شاعر الامير القصيدة الاتيه :

على « منازل غالي » فزنا بصفو الليالى
تزينت وتجلت في رونق وجلال
وأشرقت بالدراري من سادة وموالي
ومن كواكب حسن ومن شموس جمال
كأنها « دور » يحيي حين الزمان موالي
للعز والانس فيها مظاهر ومجالي
يمشي الزمان اليها كلائذ بالظلال
والخلق يحيون فيها عيد «الجناب العالي»
عيد السرير المفدي بكل نفس ومال
مرمى رجاء الرعايا وموئل الآمال
كم اشتباك عقول عند اشتباك العوالي
الصائلات قدودا في (البال) اي مصال
الناعمات النواهي العاطلات الحوالي
الغاديات بابي الرائحات ببالي
من جؤذر ثم يرنو وشادن مختال
وظبية تتثنى في راحتي زئبال

يا ليلة نجتليها سنية في الليالي
في دار أمجد سمح مهذب مفضال
في المسلمين وجيه وفي بني القبط غالي
وبنت شامبان تزري على قطوف الدوالي
اتى العهيد عليها من السنين الخوالي
وما تزال فتاة مرجوة لوصال
يكاد يحيي (ابن هاني) شرابها المتلالي
شربتها ووقاري منزه عن زوال
ظرف (النواسي) لكن في ثابت كالجبال
اراح بالي اني بحاسدي لا ابالي
وبالصديق حفي وبالمحب مغال
طربت والعيش لهو مال العذرل ومالي
على ولاء امين و «بطرس» وآل
كل غراس أميرى وموضع الاقبال
يا بطرس الخير دمتم في العز والاجلال
ملكت كل فؤادى وحزت رق الرجال
بباهرات الايادي وطاهرات الخلال
بك الصليب تسامى وانت عند الهلال
كلاهما فى احتفاء بعهدكم واحتفال

ثم غير لائحة المعاشات الملكية بطريقة أصلح لمستخدمي الحكومة وعرض على الجناب العالي تعيين دولة الامير حسين كامل باشا رئيساً لمجلس الشورى لكي توجد له صبغة عظيمة وهيبة كبيرة وصدر الامر العالي بالموافقة على ذلك في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩ فتقدم المجلس وزاد احترام الحكومة والشعب له ثم أصدر أمراً عالياً آخر بجعل جلسات المجلس علانية فكان ذلك عهدا جديد للمجلس وتقدمه وجعل الرقابة عليه حقا للامة ثم وضع مشروع توسيع اختصاصات مجالس المديريات وأصدر به امرا عاليا في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ وفيه توسعت سلطة هذه المجالس حيث أعطيت لها فرض ضرائب معلومة على الاطيان لصرفها في المنافع العمومية وخصوصاً التعليم ودل ذلك باوضح عبارة على أنه عامل على اعطاء الامة حق اشتراكها مع الحكومة في أعمالها وفي ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ أصدر قرارا بناء على رغبة والحاح مجلس الشورى والجمعية العمومية باعادة قانون المطبوعات الذي وضعه المرحوم شريف باشا في سنة ١٨٨١ ثم خول مجلس الشورى حق سؤال النظار ومناقشتهم في جميع المسائل التي يرون لزوم عرضها عليهم . وقد كان بعض الاعضاء غير موافقين عليه للقيود التي وضعت في طريق وضع الاسئلة على مثال القيود الموضوعة في المجالس البرلمانية باوروبا لخافت الفقيد من هذه الحركة مخافة ضياع هذا الحق المفيد من يد المجلس فحضر الجلسة المعينة للمناقشه في هذا المشروع وهناك وقف موقفه المشهور ولم يخرج من

هذه الجلسة الا وقد اقنع جميع معارضيه بفائدهذا المشروع فاقروا عليه بلا استثناء فكان هذا فوزا عظيما له في معرض الجدال وذكره بالاعجاب دلالة على قوة حجته وشدة عارضته وقد أعادت هذه الاعمال العظيمة الثقة بالبلاد ثانية فخفت وطأة الازمة المالية كثيرا وعاد الرخاء الى الاهالى ومع ذلك فقد نقم عليه جماعة المتمصرين المتطرفين الذين يعيشون باسم الدين فارسلوا اليه كتب التهديد والوعيد حتى اضطر سعيد باشا ناظر الداخلية أن يشير عليه بتعيين حرس له فابى وقال « اني لا أقبل نطعياً ان أوصم بلادي بوصمة التعصب اذا اتخذت حرسا لى »

وفي ايامه افتتحت الجامعة المصرية بصفيه رسمية وحج الجناب العالي المعظم فناب عنه كما ناب اثناء تغيبه في أوروبا وفي املاكه بالاناضول . ثم في اخريات حياته فاوضت شركة قنال السويس الحكومة بتمديد أجل امتيازها فرأى أن يعرض المشروع على الجمعية العمومية لاخذ رأيها فيه بعد ان بين لها الفوائد التي عرضتها الشركة ورأى الحكومة فاتخذ المتطرفون المشروع سلاحا في ايديهم وقاموا يناهضون الحكومة ويهيجون العامة وانحاز اليهم بعض أعضاء لشورى وقبل ان يبت رأى في المشروع توفى الى رحمة الله فخسرت مصر بفقده اعظم رجالها واحكم ابنائها واشدهم اخلاصا وتفانيا في خدمتها تشهد بذلك خدماته وتقدير الدول المتمدنة العارفة باقدار الرجال عماله فمنحته اكبر وساماتها حتى بلغ عدد ما يحمله منها ٧٥

وساما فنال من الدولة العلية وسام الامتياز العظيم والمجيدي الاول والعثماني الاول والمجيدي المرصع وهي اكبر الوسامات العثمانية التي تهدى الى ملوك اوروبا. ومن انكلترا وسام الحمام ووسام القديس مخائيل والقديس جرجس ووسام صليب فيكتوريا مع لقب سير ومن فرنسا وسام اللجيون دونور من رتبة جران اوفيسيه. ومن المانيا وسام تاج پروسيا ووسام فيليب دي دهيس ومن النمسا وسام تاج الحديد ووسام ليوبولد الامبراطوري ومن روسيا وسام القديس اتيان ومن ايطاليا صليب تاج ايطاليا الكبير وصليب القديس موريس ولعازار الكبير ومن أسبانيا صليب ايزبلا الكاثوليكي الكبير ومن البرتغال وسام الحمل الكبير وصليب وسام يسوع المسيح الحربي الكبير ومن نروج صليب وسام النجمة القبطبة الكبير ومن اليونان كردون وسام المخلص الكبير ومن ايران وسام شير خورشيد من الطبقة الاولى ومن سيام وسام النيل الابيض الاكبر ومن الحبشة الوسام الاكبر ومن الدينمارك كردون وسام دارنبورج الملوكي الكبير

هذه فذلكة صغيرة من حياة ذلك الفقيد العظيم الذي رقد الرقاد الاخير فرقدت معه الصفات العالية والعقل الرشيد والحكمة الواسعة والسياسة القويمة . الا رحمة الله عليه

الحادث الفظيع

٧

كل هذه الاعمال العظيمة والحسنات الخالدة والخدمات الوطنية الشريفة التي لم يقم بها مصري قبل اليوم هيجت ما يسمونه أو يسمي نفسه الحزب الوطني فاخذ يطعن في وريقاته على الوزير الخطير حتى اثار احد اعضائه المجرم الاثيم المدعو ابراهيم ناصف الوردانى فقام وتربص للفقيد العظيم صباح يوم السبت ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ ليقتله ولكن خانته قواه فذهب وهو يؤمل أن يجد واحدا ممن ورطوه في السياسة وسلبوا ما له واضاعوا مستقبله أن يمد له يد المساعدة لينشله من ضيقه فلم يجد الا ما زاده شغفا بانفاذ نيته الخبيثة . فعاد ظهر اليوم التالي (الاحد) وتربص في حديقة النظارة حتى اذا خرج الوزير الكبير افرغ فيه مسدسه فاصابه بخمس رصاصات واحدة اخترقت جنبه الايمن الى الجنب الايسر واستقرت تحت الجلد وثلاث منها في عنقه وواحدة في كتفه الايمن وعندها اقبل على صوت الرصاص رشدي باشا وفتحي باشا زغلول وعبد الخالق ثروت باشا والقوا القبض على القاتل الاثيم ونقلوا الجريح العظيم الى غرفة ناظر الحقانيه حيث اجريت له الاسعافات الوقتيـة ثم نقل الى مستشفى فيكتوريا لمعالجتـه بعد أن بلغ خبر الحادث الى سمو الخديوي المعظم فاظهر الحزن والكدر واوفد رجال السراى الى المستشفى للاستفسار عن صحته ثم زاره بنفسه وقبله في خديه باكيا

وطالبا له الشفاء العاجل فقابل الفقيد الكبير هذه العواطف الشريفة بالشكر الكثير ولم يكتف سموه بالزيارة بل كان يسأل عن صحته بين كل دقيقة واخرى ثم وفد الامراء والنظار والعلماء والعظماء وقناصل الدول وكل ذي حيثية ومقام رفيع على المستشفى يسألون عن صحته وكلهم اسف واجم أما السير الدن غورست فكان في البدرشين ولما بلغه الخبر حضر مسرعا على قطار خاص وعلامات الاضطراب والانفعال بادية على وجهه وزار الجريح في المستشفى حيث كان قد صدر التقرير الطبي الاول ونصه :

«أن عطوفة بطرس باشا غالي اصيب بعدة رصاصات اغلبها غير مهم ومرت واحدة منها في البطن ولكنها مخطرة . الحالة الآن حسنة . ربما عملت لعطوفته عملية جراحية» .

ملتون . خياط .

ثم صدر التقرير الثاني في منتصف الساعة الثامنة مساء ونصه :

« عملت عملية جراحية لعطوفة بطرس غالي باشا واستخرجت الرصاصة التي مرت في الكبد والامعاء وقد تحمل عطوفته العملية متجلدا صابراً »

ملتون . خياط .

وقد قال رحمه الله عقب اجرائها « اني كنت افضل القتل فجأة عن أن اعذب بعملية » ثم قال « يعلم الله اني ما اتيت امرا يضر ببلادي » .

وظل متجلدا حتى الساعة العاشرة مساء وبعدها تغير وانحطت

قواه وقضى ليله هادئا .

وفاة الوزير الخطير

في الساعة السابعة والدقيقة ٤٥ من صباح يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ حاول الدكتور خياط أن يغذي الوزير العظيم بانبوبة فلم يلبث الا بضع دقائق حتي شهق شهقتين وتوفي الى رحمة ربه في الساعة الثامنة والدقيقة ١٥ وعندما بلغ الجناب العالي خبر نعيه أجهش في البكاء وقال «واحسرتاه واحسرتاه عليك يا اعظم الرجال واقدر الوزراء وأكبر المخلصين » وفي الحال نشرت الحكومة بلاغا رسمياً قالت فيه.

« عطوفة بطرس باشا غالي رئيس النظار توفي الى رحمة مولاه في الساعة الثامنة والدقيقة ١٥ صباحا »

ثم عقد مجلس النظار برئاسة الجناب العالي في سراي عابدين وقرر ما يأتي ؟

اولاً ـ تعطيل نظارات الحكومة وجميع مصالحها والمدارس الاميرية الى اجل غير مسمى .

ثانياً ـ تنكيس الاعلام على الثكنات العسكرية ودور الحكومة حداداً على فقيد مصر العظيم

ثالثاً ـ تشييع الجنازة في صباح يوم الثلاثاء بمعرفة الحكومة التي تتولى ترتيبها ويكون سيرها من المستشفي الى الكنيسة المرقسية الكبرى ومنها الى دير انبا رويس بالدمرداش

تشييع الجنازة

بكر الناس في صباح يوم الثلاثاء الى الاحياء التي تسير منها جنازة فقيد مصر العظيم حتى خلت المنازل والقصور من سكانها وتعطلت كل الاعمال والسيارات وعربات الترام واغلقت المصارف المالية والحوانيت التجارية ونكست الاعلام على جميع المباني الاميرية والقنصليات وفي كل مكان وجلل ناديا رعمسيس والنيل وكنيسة الاقباط الكبرى بالسواد وشارات الحداد وأخذت الاجراس تدق دقات الحزن والمدافع تطلق من القلاع بين التنهدات الخارجة من الصدور والدموع المسيلة من العيون على اعظم رجل انبغته مصر. وفي منتصف الساعة الحادية عشرة شيعت الجنازة في موكب لم تر له مصر مثيلا حتى في وفيات ملوكها وامرائها وناهيك بالجموع المحتشدة داخل المستشفى وخارجه. وقد تقدم الموكب فرسان البوليس المصري فرجال المدفعية الانكليزية بموسيقاهم المجللة بالسواد والعازفة بنغمات الحزن فلواء الفرسان فاورطة يوركشير منكسة البنادق فرجال الجيش المصري بموسيقاهم فالاي الفرسان فكبار ضباط الانكليز والمصريين في الجيش المصرى فتلاميذ المدرسة الحربية بكساوي التشريفة فالمدفعية المصرية بموسيقاها فشمامسة الكنيسة المرقسية الكبرى حاملين الصلبان والاعلام فقسوس وقمامصة الاقباط الارثذوكس فالرؤساء الدينيون للطوائف الاجنبية فمندوبو الاقباط الكاثوليك وحاخام باشي اليهود وبطريرك الروم الارثذوكس وبطريرك

الروم الكاثوليك والمطران دريان النائب البطريركي للموارنة والقس جاردنر الانكليزي . ثم مطارنة واساقفة الأقباط الأرثذوكس فابسطة الرحمة يحمل الاول سير الدون غورست ومحمد سعيد باشا وسعد باشا زغلول وفخري باشا والسير بول هر في المستشار المالي والمسيو سيمرنوف قنصل روسيا الجنرال ويحمل الثانى حسين رشدي باشا والمسيو موهل العضو الالماني في صندوق الدين والسير مكاريث المستشار القضائى والمسيو ربيو متولي أعمال الوكالة الفرنسوية ويحمل الثالث اسماعيل سري باشا والمستر دناوب مستشار المعارف والمستر ديبوي مستشار الاشغال والمسيو دمرتينو قنصل ايطاليا الجنرال والمسيو زبلر متولي أعمال الوكالة الالمانية ويحمل الرابع حشمت باشا والمسيو روكاسير المستشار الخديوي والمسيو فان ليب قنصل هولاندا الجنرال والمسيو أوساريو قنصل اسبانيا الجنرال ويحمل الخامس المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية والمسيو موريندو رئيس محكمة الاستئناف المختلطة وباغوص باشا نوبار ثم نعش الفقيد الجليل على عربة مدفع يجرها أربعة من جياد الخيل ومجللا بالعلم المصري وعليه سيف الفقيد تحيط به كوكبة من الفرسان وحوله عشرة من حجاب الخارجية يحملون أوسمته وخلف النعش أولاد الفقيد وشقيقه وصهره فدولة الامير محمد علي باشا بالنيابة عن الجناب العالي والامراء وحسين كامل باشا ورياض باشا ورجال المعية السنيه وكبار موظفي الحكومة وأعضاء الجمعية العمومية ومجلس الشورى وقناصل

الدول والعلماء ورجال المحاكم الاهلية والمختلطة ونجت باشا والجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال واللورد ملنر حاكم افريقيا الجنوبية سابقا وبالاجمال جميع العظماء بين وطنيين وأجانب . ثم عقبهم أعضاء الجمعيات ومستخدموا المصالح من الاقباط فطلبة مدرسة الحقوق فالطب فاعضاء جمعية ثمرة التوفيق فجمعية التوفيق المركزية فعمال جريدة مصر فمندوبو جمعيتي الاخلاص في الاسكندرية والمنصورة فمدرسة الاقباط الكبرى فالمدرسة الاكليريكية فجمعية المعارف الادبية فتلاميذ مدرسة المعلمين التوفيقية فمدرسة الصنائع القبطية ببولاق فمدرسة الاقباط بحارة السقايين فجمعية الرابطة المسيحية فجمعية الشبان المسيحية فجامعة المحبة وغيرها من أعضاء الجمعيات القبطية وكل جمعية منها كانت تحمل علمها مجللا بالسواد واكليلا من الورد وسار الموكب على هذا النظام مخترقا شارع القاصد فشارع المدابغ مارا من البنك الاهلي فشارع المناخ فساحة الاوبرا فشارع كامل فشارع نوبار وكان أول الموكب قد وصل الي محطة باب الحديد وآخره عند البنك الاهلي . ولما أن وصل الجيش الانكليزي الى أول شارع كلوت بك انقسم الى قسمين فسارت أورطة المشاة الى العباسية مخترقة شارع الفجالة وسار لواء الفرسان والمدفعية الى دير انبا رويس من الشارع العباسي حيث اصطف أفراده ابتداء من كلية البنات الأميركية الى المقبرة . أما فرق الجيش المصري فاصطف قسم منها في شارع كلوت بك من جهة الفجالة والقسم الثاني في أول الشارع العباسي أما المشيعون فقد

حجزوا في أول شارع الفجاله ولم يبح لغير الاكليروس وحملة الابسطة وكبار الموظفين بمرافقة النعش داخل الكنيسة ولذلك سار أعضاء الجمعيات وتلاميذ المدارس الى الدير صفوفا منتظمة يحملون الاعلام وباقات الزهور بشكل مؤثر يملأ النفس حزنا وشجنا .

وقد استمرت الاجراس تدق حتى اذا ما ادخل النعش الى الكنيسة أوقفت مؤقتا وبعد أن تولى المطارنة والاساقفة صلاة الجناز وقف مطران قنا وحبيب افندي جرجس رائيين الفقيد بعبارات مؤثرة ثم خرج المشيعون في الساعة الاولى بعد الظهر الى الدير وكانت تتلو عربة المدفع الحاملة لنعشه عربة الموتى وعربته الخصوصية مكللتين بالاكاليل والزهور ونحو عشرين عربة أخرى ممتلئة بالاكاليل التي أرسلها العظماء على مختلف أجناسهم وتتلوها عربات المشيعين وبعضهم سار على الاقدام الى الدير حيث دخل كنيسته كبار الاكليروس وبعض القناصل والنظار ولم تستأنف الصلاة عليه لضيق الوقت بل اكتفى الحاضرون بالزيارة ثم نقل الفقيد الى مقبرة العائلة فألقيت الأكاليل على جدرانها وذهب المشيعون الى السرادق المعد لاستقبالهم حيث عزوا آل الفقيد ثم وقف مرقص افندى حنا الحامي في وسط هذا المشهد المؤثر وذلك الموقف الرهيب مؤبنا الفقيد فقال:

أيها السادة :

كل ما في العالم عرض زائل وظل حائل لا جاه فيه يدوم ولا مال يبقى الا

الذكر الحسن والاثر الصالح

ليس البطل بطل الحرب والميدان فقط انما البطل أيضاً بطل الحياة والعمل .

كان فقيدنا بطلا في حياته كما كان بطلا في مماته .

ففي حياته نشأ عصاميا من أصغر الوظائف الى اسمي مركز في الحكومة المصرية. فكانت له اليد الطولى في تسوية المالية المصرية وهي في اتعس الحالات والقدح المعلى في وضع القوانين المصرية وانشاء المحاكم الاهلية

عرفه الوزراء شريف باشا ونوبار باشا ورياض باشا ومصطفى فهمي باشا فاختاروه في جميع وزاراتهم فكان لهم خير معوان

بذل الرجل كل ما يستطيعه مصري من الجهد في أيام رئاسته للسير بالبلاد في سبيل الحكم الذاتي ونشر التعليم وتقليد الوظائف للأكفاء من المصريين .

قد كان الفقيد أيضاً بطلا في مماته كما تشهد به تلك الحادثة التي ما شكا ولا أن من آلامها بل كان كل فكره وهو على فراش الموت في بلده العزيز دون سواه وقد اشهد الله على نفسه بقوله يعلم الله أني ما أتيت أمراً يضر ببلادي .

ولا يسعني في هذه اللحظة المحزنة أن أقوم حق القيام بما يجب من فروض الشكر والاخلاص لسمو الخديوي الذي أظهر منتهى الانعطاف نحو الفقيد وعائلته وبما يجب من الشكران لحضرات الأمراء والنظار والمستشارين والقناصل وأعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية وسائر المشيعين

فنودعك أيتها النفس الطاهرة نودعك أيتها النفس الزكية نودعك الوداع الاخير ونسأل الله أن يسكنك فسيح جنانه ونرجو العزاء لأهلك وبنيك ونتمنى أن ينتفع بأعمالك مصر والمصريون .

ثم انفض هذا الجمع العظيم يعزي بعضه بعضا على هذا الخطب الفادح وأخذ يتوافد صباح مساء على قصر الفقيد العظيم لتعزية آله

كما وفدت صاحبات الدولة والدة الجناب العالي وحرمه المصون وأميرات البيت الخديوي معزيات آسفات لما للفقيد من المكانة السامية والقدح المعلى في خدمة البلاد

زيارة الجناب العالي

تفضل الجناب العالي في اليوم الثالث لوفاة الفقيد العظيم بزيارة منزله معزيا آله الكرام وبعد أن استراح قليلا قال

« ان حادثة قتل المرحوم بطرس باشا قد أثرت في تأثيراً شديدا لاني اعتبره أكبر رجال السياسة في مصر والشرق وأقدر أهل زمانه على حل المعضلات وأوفى وفي لبلاده فضلا عن كونه كان أشد الناس اخلاصاً لي ولبيتي حتى أني كنت أعتمد على ارائه وأفكاره وأفضي اليه باسراري الخصوصية . ولذلك سأجعل أنجاله وأفراد عائلته تحت رعايتي الدائمة فكما أني لا أنساه فكذلك لا أنساهم وبرهانا على ذلك قد أنعمت على نجيب بك برتبة الميرميران ورقيته الى منصب وكالة الخارجية لازيد في نشاطه وأظهر مقدرته التي ستجعله أهلا لاسم بطرس الكبير . واني أتفشم أن تظهروا أنكم رجال وأنكم حقيقة أنجال المرحوم بطرس باشا بالقدوة الحسنة والتعقل والحكمة والنشاط والاخلاص التي لا أشك في تحليكم بها فانصحوا لاخوانكم الاقباط أن يلزموا السكينة »

حفلة الاربعين

احتفلت الامة المصرية بجناز الاربعين في كنيسة الاقباط الكبرى التي كانت من عهد وفاة الفقيد موشحة من الداخل والخارج بوشاح الحداد وأنيرت الثريات وأضيئت المصابيح نهاراً ونكست الأعلام على أكثر المباني والحوانيت واقبل العظماء افواجا الى الكنيسة يتقدمهم أحمد زكي باشا بالنيابة عن الجناب العالي الخديوي والسر الدن غورست والجنرال مكسويل والنظار وقناصل الدول والمستشارين والاعيان والعلماء وكل كبير وعظيم في مصر وبعد الصلاة رثاه نيافة مطران قنا ثم ذهب أكثر المدعوين الى دير أنبارويس حيث سبقهم اليه الموكب المؤلف من الجمعيات القبطية وقد سار بترتيب ونظام غريبين فكنت ترى كل جمعية تحمل علما مجللا بالسواد وفي وسطه صورة الفقيد محاطة بالاكاليل والزهور ثم تلاميذ مدارس الفرير والتوفيق والمرقسية الكبرى والسعيدية والقريبة والتوفيقية والمهندسخانة والطب والحقوق ثم أعضاء الجمعيات الكبرى وكان يتقدم الجميع ويحيط بهم من الجانبين لمنع الزحام على طول الطريق رجال البوليس مشاة وفرسانا وقد أوقفت المركبات وتعطل سير قطرات الترام حتى انتهى الموكب الى السرادق وعندئذ قدم قليني فهمي باشا المؤبنين وهم وهبي بك وجرجس بك انطون وفرغلي بك الانصاري وليب افندي حنا نسيم وتوفيق افندي عزوز فالقى كل منهم قصيدة أو خطبة مؤثرة جددت الاحزان والحسرات.

الحادث والامة

٨

قامت صيحة شديدة في الامة بعد ظهر يوم الاحد ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ بأن وزير مصر الخطير بطرس باشا غالي أصيب من يد مجرم أثيم بطلقات نارية فكثرت الاقاويل وانتشرت الاراجيف في طول البلاد وعرضها واجمع الناس في الحال انها مؤآمرة من حزب الثورة وتحريض من فئة المتمصرين وخرجت الجماهير التى لا يدرك الطرف لها حداً الى الساحات والاحياء وهي ما بين اسف وجازع وبين مكذب ومصدق حتى انتشرت ملحقات الصحف معلنة نبأ المقتل الفظيع فعم الحزن والكدر وتوافد الاعيان والسراة من كل مكان وكل بلدة وكل قرية حتى امتلأت القاهرة وازدحمت فنادقها وقصورها ومجتمعاتها ولم يبق فيها مكان خال من التأثر الذي كان عاما ومن الحزن الذي كان شديداً وذهب بالناس كل مذهب حتى باتوا ليلتهم ساهدي الطرف دامعي العين كثيري الهواجس لا يقر لهم قرار ولا يشغلهم سوى أخبار الوزير الحكيم الذي أنساهم كل حادث وكل موضوع وكل نبأ .

انقضى ذلك الليل الرهيب بحادثه المفجع وبالاقاويل المختلفة فيه فبكر الناس يستفسرون عن صحة الجريح وملء قلوبهم الامل بشفائه ولكن لم تكن الا بضع دقائق حتى علا صوت أجراس الكنائس بدق دقات الحزن وينعى الى الامة رجلها العظيم فارتجفت رعبا

وانفطرت غماوخيم السكون على مجتمعاتها وبيوتها حتى صارت المدينة أشبه بمقابر الاموات وحتى خيل للانسان انه في عالم الابدية لولا التنهدات المتصاعدة من الصدور والتاوهات الخارجة من القلوب والدموع المنهمرة من العيون وكأن الطبيعة شعرت بهول الموقف فلم تطلع شمس صباح يوم الاثنين ٢١ فبراير ولم تر ذلك اليوم المظلم

نعم يوم مظلم لم تر الامة أشد منه حلكة وحزنا فيه رحل الى عالم الابدية فقيدها العظيم وفقيد الوطن وفقيد الحكومة بل فقيد الشرق والغرب لانه كان رحمة الله عليه صلة التوفيق بين المشرقين والمغربين في مصر. ولو كان القاتل الاثيم والذين دبروا معه هذه الفعلة الشنعاء من أصحاب الاكباد الغليظة الذين فطروا على شرب الدماء من المصريين حقيقة أو لهم وطنية كما يدعون لما اثكلوا الامة المصرية في أنجب ابنائها واقدرهم على خدمتها بجد واخلاص ولا ثلموا صيتها باشنع ما يمكن أن يثلم به صيت أمة تحت الشمس ولا جعلوها عرضة لاشد الاخطار السياسية وأعظمها وقعاً على الامة والبلاد ولكنهم ارتكبوا جرمهم الشنيع بيد أثيم منهم ضجت من حياته الشقية الارض ومن اعماله الشريرة السماء وهم آمنون مطمئنون لا يوخزهم ضمير ولا يؤلمهم شعور انساني. ارتكبوا هذا الجرم وتركوا الامة كلها باكية. تركوها تتوجع على رجلها العظيم من كل مكان حتى لم تشتغل الاسلاك البرقية والتليفونية في القطر المصري كما اشتغلت في خلال هذا الحادث

ودلت على المكانة العظيمة التي يشغلها المرحوم بطرس باشا غالي في نفوس الشعب المصري ونفوس أجانبه

مات رجل مصر العظيم فمات بموته سرور امة وامل امة فعطلت ملاهيها ومسارحها وجللت صحفها بالسواد وملأتها برثائه بين نظم ونثر حتى لم يبق شاعر مسيحي الا ورثاه رثاء مؤثراً وحتى لم تبق كنيسة في وادي النيل من الاسكندرية شمالا الى بحيرة فيكتوريا نيانزا جنوبا ومن الصحراء غربا الى أرض الحبشة شرقا الا واقامت القداديس ووزعت الصدقات على روحه وأنشات المراثي تعدد فيها مناقبه وحسناته وخدماته الوطنية الخالصة لبلاده

واي رجل ظهر في مصر اعظم من بطرس باشا غالي. اي رجل مات تاركا أحسن ذكرى من بعده كبطرس باشا انه ترك اعمالا خالدة تشهد بها الامم الراقية والقاصي والداني انها اسمى ما وهبته يد القدرة لحكيم بين الناس ترك بنين من افضل الابناء وانجبهم وأحسنهم تربية واستقامة ترك بنين ما كادوا يشيعون والدهم البار الكريم الى مقره الاخير حتى نفحوا الانسانية والمروءة والخير بالف ومائة وثمانين جنيهاً وحتى أعلنوا عزمهم على منح قصرهم للكلية أو الملجأ المراد انشاؤه فاين ذلك الشعور الوطني والانساني العظيم من اولئك الذين يحتكرون الوطنية في حين أنهم يعيشون عالة على البسطاء والسذج من الناس وفي حين أن الواحد منهم يموت فلا يرى الفقير ولا اليتيم من ورثائه درهما

يتصدقون به عليه بل يرى من حسنات الورثة على روحه التقاتل حول قبره ورفع القضايا والخصومات المتنوعة المتعددة وبذل الصدقات في رسوم القضايا واتعاب المحاماة .

أجل ان كبراء اخواننا وصغارهم وكتابهم وأميوهم جزعوا أشد الجزع على مقتل الوزير الخطير وبكوه كما بكاه الاقباط لان الفقيد فقيد الكل حتي ليستحيل على أي انسان كما قالت الجريدة الغراء ان يعتقد أن الاقباط وحدهم انفردوا بالجزع من هذه الحادثة دون اخوانهم المسلمين بعد ما قام امامنا من الادلة المحسوسة على أن الجميع في الشعور سواء

نعم أن شعور الجميع واحد لانهم ادميون والفاجعة فاجعة الجميع لان الرجل رجل الجميع الا اؤلئك المتمصرين المتهيجين الذين يرون النور ظلاما والباطل حقا والسلب واجباً والقتل شريعة والعدل ظلما والرحمة ناراً والطياشة رزانة والتفريق سياسة والله من ورائهم رقيب عليم

اؤلئك قوم طمس التعصب عقولهم وقلوبهم فلا هم يبصرون ولا هم يتركون العامة تسير على هدى العقلاء ولاهم يستطيعون التغلب على عواطفهم حتى في احرج المواقف وأحزنها . رأيناهم كما رأتهم الامة ورآهم الاجانب قوما بلهاء يزدادون تطيراً كلما زادت الالسنة تقبيحا لاعمالهم . أفلم ترهم قد نفثوا ما في صدورهم من غل ومن حقد عقب الحادث المفجع . أفلم ترهم قد عمدوا الى دس الدسائس واذاعة الاكاذيب ظنا

منهم أنها توصلهم الى نيتهم السوداء في تشويه ذكري فقيد مصر العظيم. نعم نفثوا وعمدوا والأمة عليهم حانقة والحكومة صابرة والانكليز مترفعون عن التدلي اليهم أو النظر لما يعملون من الاعيب صبيان وطياشة متمصرين ولكن ماذا كانت النتيجة انها كانت شراً عليهم ووبالا وهكذا المكر السيء لا يحيق الا باهله.

قوم رأوا الاخفاق غالبا على أمرهم والحبوط ملازما لسعيهم فاتخذوا من جهل العامة سلاحا لترويج خزعبلاتهم وأحلامهم الصبيانية. علموها نشيداً قبيحاً في مدح القاتل الاثيم وجرمه فزجوا كثيراً منها في ظلمات السجون وألصقوا بالامة الضعة والحطة واتهموها بما هي بريئة منه اتهموها امام العالم المتمدن بانها لا تعرف أقدار الرجال العاملين ولا توقر موتاها والله تعالى أمر بلسان أنبيائه اجمعين بوجوب توقير الموتى

يكفينا دليلا على صحة هذه التهمة التي ألصقوها بالامة ان اثنين من اليونانيين أوقعهما سوء الحظ في وسط جماعة من الرعاع ينشدون نشيد المجرم فكان نصيبهما السجن شهرين ونصيب الامة المصرية المسكينة المتهمة بلا ذنب ولا جريرة تلويث سمعتها. واليك ما قاله قنصل اليونان في العاصمة عقب الحكم على اليونانيين المذكورين.

اني انتهز هذه الفرصة لاظهر لكم جميعا أن القنصلية تأسف اشد الاسف على ن جماعة من رعاياها يرتكبون مثل هذه التصرفات الشائنة المعيبة التي لا يرتكبها الا رعاع الامم المنحطة الضعيفة التربية القليلة التهذيب المعروفة بنكران الجميل.

«تصرفات كهذه لا يجب قطعيا أن يرتكبها ابناء الامة اليونانية الذين هم في مقدمة الامم احتراما للموتى واعترافا بجميلهم ولا سيما أن فقيد مصر المكرم المرحوم المغفور له بطرس باشا غالي انبغ رجل ظهر في الشرق وليس من الواجب على امم الشرق فقط احترامه وتبجيله بل على جميع الامم الغربية أن تحترمه وتذكر مناقبه العظيمة الكثيرة وكفائته النادرة المثال بالشكر والثناء .

وان القنصلية تأسف اشد الاسف على وجود مثل هذه القضية في دائرة محكمتها لانها تحط من كرامة اخلاق الجالية في القاهرة وتأمل أن تكون هذه الحادثة التي وقعت من اثنين من رعاياها هي البداية والنهاية»

وليت اولئك المتمصرين اكتفوا بذلك كله وبما جلبوه على مصر والأمة من المصائب وما ألصقوه بها من التهم بل حرضوا شقيا من غلمانهم على وضع كتاب أطلقوا عليه اسم وطنيتي وملأوه بقصائد القحة والطعن فصادره البوليس على ما المعنا وحكم على صاحبه بالسجن سنة مع التشغيل وعلى مقرظيه الأول بثلاثة اشهر والثاني وهو الزعيم الاكبر المنادي بالدستور في مصر بستة اشهر على حين ان الدستور لا ينال بالسباب والطعن . ومما يستوجب الذكر هنا أن هذا الزعيم بكا بكاء مرا عند صدور الحكم عليه وكان أحق به أن يبكي حينما وجه اليه توفيق بك نسيم رئيس النيابة الكلمات الآتية :

«اقرأوا حضراتكم مقدمة كتاب وطنيتي وبقية منظوماته تتبينوا فيها صدى صوت رئيس الحزب في مقاله وهما وان اختلفا لفظا فمتفقان معنى في هذا التوافق الذي يدل على اشتراك في الحس والوجدان .

«هل لاتكون الوطنية الا بنظم قصائد الطعن والهجو . »

المرحوم المغفور له بطرس باشا غالى

Boutros Pacha Ghali

هل لايكون نصر البلاد الا بان يطلعوا في دياجي الخطوب من حياتهم فجرا الوطنية الحقة لا تسمح للانسان أن يسلك بامته مسالك الردى ويسير بها في طرق وعرة ثم يقعد بها حسران اسفا .

الوطنية منهج قويم وليست كما فعل صاحب كتاب وطنيتي ويفعل اضرابه اولئك الذين يشتمون الناس باسم الوطنية ويملاون الفضاء صياحا بدعوى خدمة البلاد ولو صدقوها الخدمة لصدقتهم الجزاء

انا لا اريد أن تكسر اقلام الكاتبين وتكم افواه المتكلمين بل فليكتب الكاتبون ما رغبوا وليتكلم المتكلمون ما شاؤا ولينتقدوا الشؤون ما ارادوا ولكن على أن لا يشتموا ولا يحقدوا ولا يضلوا السذج من الناس الذين لا يقدرون أن يميزوا بين من يكتب ليرشد الى السبيل السوى ومن يكتب ليضلل العقول ويستهوي البسطاء .

اقول ذلك وانه لا يؤلمني أن اقوله ولكنه الحق اعضل الامراض ومن كتم داءه قتله فلتكن لك ايها الماثل اليوم امام القضاء عبرة ونذيرا للمستقبل وليكن اليوم عظة للغد ليكفيك الله بعد هذه شر ما يأتي من الخطيئات .

واذا كانت هذه هي الوطنية الحقة التي يعلمها القضاة لمحتكري الوطنية اليوم ويعلمها لهم كل عاقل محب لبلاده فهي تكفينا على أن كل دسائس اؤلئك المتمصرين ومفترياتهم لا تشوه قطعيا ذكرى فقيد مصر الذي سيدوم بالرغم عنهم رجلا عظيما مخلدا ليس في مصر وحدها بل وفي المشرقين والمغربين لأنه بنى لامته المصرية بوجه الأجمال مجدا عظيما ولأمته القبطية بوجه خاص أسس الأصلاح . وقد مات وهو في أوج مجده فكان له ما يتمناه كل رجل عظيم لنفسه وظل الى آخر حياته وهو

يردد في انفاسه ذكرى مصر واخلاصه في خدمتها قائلا « اشهد الله أني لم أعمل ضررا لبلادى » انه اشهد الله على ذلك وكان له أن يشهد أيضاً كل المصريين ماعدا المتمصرين ومن والاهم من المجانين فيسمع في جوانب القطر كله تأمينا على قوله بل يسمع صوت التاريخ مؤمنا بل يسمع صوت سمو مليك البلاد وأحكم الناس فيها وهو يقول لأنجاله

« ان الشيء الناصع لا تشوبه شائبة فان عمل المرحوم بطرس باشا مسجل في التاريخ لا يمسه شيء»

بل يسمع صوت العلامة الجليل شيخ الجامع الازهر الشريف يقول في اليوم التالي لوفاة الفقيد .

«ان ذلك المسيحي عمل من الخير للمسلمين ما لم يقدر على عمله كثير منهم»

بل يسمع صوت رياض باشا وهو يندبه وصوت كل عظيم في مصر وهو يتوجع على فقده . يعد موته مصيبة جلى على البلاد بل يسمع اساطين السياسة وفلاسفة الغرب الشرق وهم يبكونه ويقولون مات سياسي الشرق الوحيد الذي انبتته أرض الفراعنة من نحو الف وثلثمائة عام.

ويكفيه أن يذكر في أي بلد اسم بطرس غالي باشا ليجيبوه هوذا أحكم المصريين وانبغ ابناءهم

ومختصر القول اني لا أستطيع أن أعبر هنا عن شعور الامة

المصرية كلها نحو فقيدها فاقتصر على ما تقدم من البيان واذكر أقوال الصحف الوطنية والاجنبية ومراثي الشعراء لتستدلوا منها على مكانة الفقيد في قلوب امته.

أقوال الصحف

قالت الجريدة ـ انا لله . انتقل اليوم الى الدار الباقية ذلك الرجل العظيم الذي كان من اخريات كلماته قوله : « الله يعلم أني ما أتيت بشيء يضر ببلادي ». انه كان يفكر في خدمة بلاده فتى وشيخاً سليما ومريضا بل وفي سكرات الموت يرى لبلاده حقوقا عليه فاشهد على نفسه الله والناس أنه أدى هذه الحقوق ألا فرحمة الله عليه .

دخل بطرس باشا غالي في الأعمال العامة فرفع مقام العصامية . اذ خرج من الطبقة الوسطى فعمل وجد فنال الجاه الرفيع استحقاقا بل نال قلوب الناس بالأحسان والخدمة الجليلة لبلاده كما يستطيع المصري أن يخدم امته.

كان بطرس باشا غالي قوي الجسم متناسب الأعضاء ذا نظرات مهيبة حسن الاستماع اذا حدث مترويا متأنيا . اذا حدث حديد الذكاء كبير العقل شريف النفس طاهر الاخلاق واسع الحيلة يسهل عليه مايصعب على غيره فكان داهية وسياسي الدواهي في الظروف الصعبة ألا فرحمة الله عليه

ولم يكن بطرس باشا غالي فقيد عائلته ولا كما يظن بعض قصار النظر فقيد الأقلية ولكنه فقيد الامة جميعها . فاذا كنا نقدم العزاء لنجيب بك وأمين بك غالي و بقية أسرة غالي الكريمة مرة فانا نقدم العزاء للأمة المصرية مراراً كثيرة تتناسب مع مصيبتها في فقيدها العظيم ألا فرحمة الله عليه

كان أمس رئيس الحكومة المصرية واليوم موضع أسف للأمة المصرية وغداً يحمل نعشه المهيب الى الجدث الضيق الذي كانا له سائرون فانالله وانا اليه راجعون.

عظم الله أجر الأمة في فقيدها العظيم فرحمة الله عليه

وقال المؤيد ـ أما أهل العاصمة فقد تلقوا خبر هذا الحادث الجلل بالكدر العام وقد عطلت الدواوين جميعها

وطلب المحامون في المحاكم الأهلية تأجيل المرافعات حداداً على الفقيد العظيم الذي كان من أكبر مؤسسي النظامات القضائية في البلاد وأوقفت جلسات المحاكم المختلطة ورفعت القنصليات الأجنبية منكسة حداداً عليه أيضاً لأن الفقيد كان خير ناظر خارجية عرفته القنصليات حلال المشكلات . وأن الحزن المستولي على كاتب هذه السطور يقف دون وفاء حق الفقيد اليوم من الرثاء والتأبين لعظم النازلة من جهة ولما كان بينه وبين الفقيد من علائق المودة الشخصية الهم الله جميع المصابين به جميل الصبر والسلوان وعزى الأمة المصرية خير عزاء .

وقال المقطم ـ وانما نقول أننا قد شاهدنا حوادث وفواجع كثيرة في هذا القطر ولكننا لم نشاهد فاجعة أحزنت الجميع على السواء من أصدقاء وغير أصدقاء كهذه الفاجعة الأليمة وهاجت خواطر الناس جميعهم على اختلاف ملاهم ونحلهم هيجانا شديداً لأسباب أولها أن الفقيد الكريم المجني عليه رجل لا كالرجال بل من أعظم أعاظم مصر المعدودين بسعة العقل وسعة الصدر والحكمة والفطنة و بعد النظر في عواقب الأمور فخسارته أعظم خسارة أصابت مصر في هذا العصر وفي كثير من العصور .

ثم تكلم عن بقية الأسباب وأظهر غرور القاتل وشركائه وأبان ماجلبوه على مصر من الأخطار والمصائب مما لا يختلف فيه اثنان من أهل النظر البعيد والفكر الثاقب .

وقالت البرجريه ـ ان فقيد مصر العظيم لم يكن يظن أن كره المتمصرين لكل مسيحي يدفعهم الى تنفيذ وعيدهم وتهديدهم فتابع سير حياته البسيطة وهو مملوء بالمحبة والأنس والخير العام يخترق شوارع المدينة بدون حرس ويقابل كل من يطلب مقابلته ويسير للنزهة وحده

وكان على فراش موته في الدقائق الاخيرة التي بقيت لانفاسه المعدودة يفتكر في الغير اكثر مما يفتكر بنفسه فقد سأل عن قصد القاتل من فعلته وهو في خطارة حالته لانه قال انه كان يود أن يكون قد قتل حالا عوضا عن احتمال العذاب ولكنه لم يلفظ كلمة واحدة تدل على حقده على القاتل ولا قال كلمة تزيد حزن آله وذويه

هذه كانت صفاته في كل حياته روح شريفة عاليه رغما عن تواضعه الظاهر ووداعته المشهورة ولم يكن يعرفه حق المعرفة سوى خلانه الاخصاء الذين كانوا يقدرونه حق قدره اما الباقون فلم يكونوا يرون فيه سوى ذلك النظر الهادي الذي كان يدل على علو مكانته

والان فقد مات بطرس باشا غالي . مات في اوائل شيخوخته كما يموت الجندي في معترك النزال . مات من اجل واجباته ومن اجل وطنه .

وقالت جريدة البورص — بمعنى ما تقدم وزادت عليه أن الجميع يعرفون ولكنهم لا يتجاسرون على الاعتراف بان بطرس باشا قتل لان بطرس باشا مسيحي. أن بطرس باشا سار في طريق الحرية وكان القتل يترقبه منذ بداية ذلك الطريق مع أن نورين ضئيلين كانا يضيئان وجهه وهما الحزب الوطني وورقته .

وقالت جريدة الاجيبت — فقاتل بطرس باشا غالي في الوقت نفسه قصير العقل ومريض وهو مثل كل الذين يرون رأيه في أن عملا جنائيا كهذا يكلل الفلسفة الاجتماعية المزعومة وينهي الشقاء الشخصي .

وبينما نظهر الاسف الشديد على رجل الحكومة المصرية الذي اختطفته يد الاقدار التي لم يسبق أن فعلت مثل هذا الفعل بمصر وبينما نشاطر الحزن لعائلة الفقيد تبقى لنا تعزية وحيدة وهي اننا في هذه الظروف لا نعجب بفلتة من فلتات الحزب الوطني ولا نخاف من تعصبه الهائل

وقالت الغازت — مهما يكن من الاقاويل التي تقال في فاجعة يوم الاحد فان سببها لا ريب فيه هو السبب الذي احيا الثورة في الهند واخذ يحييها في مصر اليوم

وهو اعطاء الحرية المطلقة للصحافة المتمصرة الهائجة ولم ينس القراء بعد ما كان من اطراء وريقة ... لدنجرا قاتل السير كرزون وتسميته بالبطل وكيف انها لم تحسب فعلته هذه الشنعاء جريمة بدعوى أن كل انسان يجب أن يكون مستعداً للموت في سبيل وطنه ولعلهم لم ينسوا ايضاً ما نشرته وريقة ... احدى ذيول الحزب في ١٣ يونيو سنة ١٩١٠ حيث ذكرت المصريين بمذابح الاسكندرية الوحشية وقالت بصراحة « ليذكر المصريون ذلك اليوم ولا ينسوه » وفي ذلك اليوم عينه قام عضو من اعضاء هذا الحزب والقى خطبة قال فيها بوضوح أن مطالب الحزب الوطني يجب أن تؤيد ولو بسفك الدماء » وختمت الغازيت قولها بانه يجب على الحكومة أن تضرب هذا الحزب وأعوانه بيد من حديد والا هدمت ما بنته في مصر بشق النفوس .

وقالت النوفل ــ لقد اخمد بطرس باشا غالي بموته اخر شعلة لحزب التعصب والثورة والجرائم في مصر والمصريون يوافقوننا على ان جريمة يوم الاحد انما هي جريمة الحزب الوطني ــ نعم جريمة هذا الحزب وليست جريمة سواه .

وقالت الديلي بوست ــ يجب أن يكون الحادث الفظيع الذي ذهبت فيه حياة الوزير الكبير بطرس باشا غالي ضحية الطيش والغرور سبباً من الاسباب المهمة الداعية الى ضرورة الرجوع الى تلك السياسة القويمة التي اثمرت في مصر في الزمن الماضي وهي سياسة الشدة والعنف مع اولئك المتطرفين الهائجين لانها وحدها تأتي بالفائدة المقصودة من حيث اسعاد البلاد واهلها .

مراثي الشعراء

لهف الرياسات على راحل ... قد كان ملء العين والمسمع
لهف العلى قد عطلت من سنا ... بدر هوى من اوجها الارفع
تبكي المروءات على بطرس ... ذاك الهمام الماجد الاروع

فتشت لما لم اجد مقلتي ... كفؤا لي عن الفضل ليبكي معي
فقيل لي قد سار في إثره ... يوم دفناه ولم يرجع
يامجريا دمع الملا ابحرا ... ادركهمو يامرقئ الادمع
عيني فيك اليوم قبطية ... تروى الاسى عن مسلم موجع
يهيم من وجد ومن لوعة ... في الجانب الايسر من اضلعي
ويأخذ البر وآي الوفا ... عن الكتاب الطيب المشرع
يامن سقاني الجم من وده ... هذا ودادي كله فاكرع
ياحامل القلب الكبير الذي ... لم ينقض الميثاق قم واسمع

اسماعيل صبري باشا

جاهدت في اعلاء مصرك جاهدا

ابداً ترامي غيرها وترادي ... اكذا اعادي الاكرمين تعادي
اباتت بليل لا يرجي صبحه ... والحق ابلج والامور بواد
قلب عليها الفادحات فاصبحت ... ذلل الكواهل رخوة الاعضاد
ياسنة قدح الحمام زنادها ... من أي كف أم باي زناد
لما اصبت فؤاد بطرس فادمى ... ظلما اصبت بمصر كل فؤاد
لبستها من بعد فقد حبيبها ... ثوب الحداد وأي ثوب حداد
مجد تجلله الضريح بليلة ... هذا بياض راح تحت سواد
لله أي دم اراق مغرر ... رابي الضغائن كامن الاحقاد
روى صوادي انفس سبعية ... تلك النفوس الى الدماء صواد
حيا على الافساد في اشباحها ... وتموت حين تموت بالافساد
تأوى الى الاجساد لا لمساءة ... وتسيء حين تحل في الاجساد
سكن الهوى فيها فليس يهيجه ... انم ناح باك أو ترنم شاد
« اعلمت من حملوا على الاعواد ... أرأيت كيف خباضياء النادي »

جمع تساقوا كأس حزن بينهم ... مالت رؤوسهم على الاجياد
يتطالعون اذا خطوا فكأنهم ... يخطون في الاغلال والاصفاد
يسعون نحو منازل حجراتها ... مغشية بمواكب القصاد
متشابهات لا تغاير بينها ... خافي المعالم عندها كالبادي
بين الرئاسة والضريحة مهيع ... تجتازه الابجاد بالامجاد
يتشايعون على مواقف بينهم ... فكأنهم ابداً على ميعاد
ما مثل هذا اليوم يمحى ذكره ... هو مثبت بصحائف الاباد
لاينكروا الجرم الذي قد اجرموا ... أن العصور له من الاشهاد
وعصابة حلت مكان عصابة ... مثل الجراد اتى بأثر جراد
يقتادها واهي العزيمة ظالع ... متواصل الابراق والارعاد
ثبت اللجاجة لا يدين لحجة ... صعب العناد اذا انتحى لعناد
أن سيق للانصاف جد جرانه ... واذا يقاد فليس بالمنقاد
هوي الدعاء فلا يمل دعاءه ... الف النداء فلا يزال ينادي
خافي المراد فلا يبين مراده ... واظنه يحيا بغير مراد
هي فتنة قد كان اكمنها المدى ... واليوم تلك النار تحت رماد
جادت مواسمها وصوح نبتها ... والآن آذن عامها بحصاد
كاد النهى نزع الهوى لكنما ... درس النهى وعدت عليه عواد
انا لفي زمن تساوي خيره ... بالشر أن مضله كالهادي
ارخوا قياد معاشر فاسترسلوا ... ما مثلهم يمشي بغير قياد
فليبرأ الاباء من اولادهم ... ياشقوة الاباء بالاولاد
تبكي لوادي النيل اعين امة ... جادت مواطرها فعب الوادي
لهفي على آمال قوم اخطأت ... قد كان يعرف رأيهم بسداد
هم طاردوا العاصين حتى اجفلت ... عنه نعائمهم بطول طراد

يامصر قربك زاد قلبي حسرة ... ياليتني عنك استطال بعادي
ما كنت اوثر أن ترى بك بعد ذا ... كنس الظباء مرابض الاساد
او كلما راحت خطوب أو غدت ... بكرت عليك روائح وغواد
سبع وعشرون انقضت اعيادها ... ومللت انت تعاقب الاعياد
ورأيت رواد الجمال تكاثروا ... فسئمت فرط تكاثر الرواد
ان كان اغضى الدهر عنك لغاية ... فستقضي ويظل بالمرصاد
أو نامت الاحداث عنك لياليا ... فلرب نوم ينتهي لسهاد
تفدى ابن نيروز اعاديه اذا ... عز الفداء ولم يجد من فاد
ياقوم رمسيس الاولى سادوا الورى ... لم يوئت سؤددهم سوى اجدادي
متفرد حياً وميتاً هكذا ... فرد الثناء يخص بالافراد
حسدوه في عليائه حتى هوى ... ثم استراحت انفس الحساد
أمست سماء العز غير منيرة ... بغياب ذاك الكوكب الوقاد
هيهات تدرك غاية هو سنها ... قد جاز آماداً الى آماد
طرف تقاصر كل طرف دونه ... وجواد فضل فات كل جواد
سيف تلألأ ثم عاد لغمده ... فلترجع بعده الاسياف للاغماد
قل للذي يرتاد مثل سبيله ... اعيت سبالكها على المرتاد
يزداد حسناً ما تكرر ذكره ... ما كل حسن الذكر بالمزداد
اعدى العداة على الكرام حمامه ... وليومه اعدى على الاكباد
يوم أعاد لمصر ماضي حزنها ... لولاه لم يك حزنها بمعاد
أحد أطاف على البلاد بشؤومه ... لما أطاف بواحد الاحاد
نزل العيون فدمعها متتابع ... وثوى القلوب فبثها متماد
أربت شكايات الانام فجاورت ... فيه مدى الارقام والاعداد
وتألفت فيه النفوس على الجوى ... اليوم زال تخالف الاضداد

أعزز على أنداده ان ينكبوا ... منه بنكبة فائق الانداد
أبكيك مثل بكاء قومك ناثيا ... فحدادهم ابدا عليك حدادي
ووفاءهم لك في وفائي مثله ... ووادهم متواصل بودادي
ما كنت أغفل عن أيادي طوقت ... هذي البلاد وانها لاياد
الحر حر في الشعوب جميعها ... من هجرة قد كان أو ميلاد
والمجد ليس مقيداً بمعاشر ... والعز ليس موطنا ببلاد
جاهدت في اعلاء مصرك جاهدا ... حتى قضيت بها شهيد جهاد
اثني عليك ولا يظن انني ... يكبوا يراعي أو يجف مدادي
ان يرمني هذا الزمان بكبرة ... ان المعالى لم تزل بقيادي
ركب سعي بك للفناء وانني ... انا في رثائك كنت وحدي الحادي
فاذهب كما ذهب الربيع وقد كسا ... خضر الربي موشية الابراد
ان ينفذ الحزن الدموع فان لي ... قلباً كثير موارد الامداد

ولي الدين بك يكن

قل لحادى النوى ترفق قليلا ... فلعل الوداع يشفي الغليلا
واسبحي اليوم يا عيون وفائي ... في بحار البكاء سبحاً طويلا
فلقد عز في الوزير عزائي ... وأراني أمسيت نضواً ضئيلا
وخليق بنا ولست أداجي ... أن نرى العيش بعده مملولا
غالبتنا الاقدار كراً وفراً ... واستبقنا فسابقتنا ذميلا
واستطالت على أولي الفضل منا ... فذهلنا عن الصواب ذهولا
ما لكيد الزمان أصمى فادمى ... ان كيد الزمان كان وبيلا
ثل فينا عرش الذى كان ركناً ... لبناة العلى وظلاً ظليلا
صرمت حبله المنايا فأودى ... بعد أن كان حبله موصولا
اذ به قد تعمد السوء باغ ... بحياة الوزير حالا حوولا

فرأينا وجه العلا مكفهراً ... ورأينا سيف العلا مفلولا
ووددنا لو كان يندي ولكن ... ما استطعنا الى الفداء سبيلا
شغلته عنا المنون فامسى ... بعد أن كان شاغلا مشغولا
حادث زعزع الممالك الا ... ان مصراً مادت ومالت مميلا
واذا ما قضى المهيمن أمرا ... في الورى كان نافذاً مفعولا
ومن الخطب ما يسر عدواً ... ومن الخطب ما يسوء قليلا
من لمصر من بعده بهمام ... قد أجاد المعقول والمنقولا
من لمصر من بعده بامام ... يتوخى لكل فرع أصولا
شد ازر القضاء ماشاء حتى ... بات فيناعلى القضاء دليلا
أين للفضل منه ند كريم ... عدم الفضل صورة وهيولى
يابني القطر ويحكم فاذكروه ... بمعاليه بكرة وأصيلا
وذروني وما أنا بضنين ... أنفق الدر في بقاء الطلولا
ودعوني وأين مني خناس ... اذ نكت صخرها اوال العويلا
وسلوني من قبل أن تفقدوني ... تجدوني به زعيماً كفيلا
ما رأينا كمثله من وزير ... بلغ القطر سعيه المأمولا
أنشأته كنانة الله شهما ... ذايد في سياسة الملك طولا
نازعتنا فيه الليالى وودت ... لو به جادت القرون الاولى
اصطفاه العباس للملك ذخرا ... فامتطى غارب المعالى ذلولا
وارتضاه اذا لم يجد من سواه ... في صعاب الأمور قط بديلا
كان يوحي بما يشاء اليه ... وهو أقوى وأقوم قيلا
ومن الناس من يعد بالف ... ومن الناس من يوازي فتيلا
ياحليف الشقاء دنيا وأخرى ... كيف حللت قتله تحليلا
لست منه ولا قلامة ظفر ... فلك الله خائناً مرذولا

علم الله أن بطرس غالي ... كان فيما يلي قؤولا فعولا
لم يحاول أمرا يضر فريقاً ... أو يسوم البلاد وقرا ثقيلا
فلنطاول بالصبر دهم الليالي ... فمن المستحيل أن لا تحولا
ولنر المرجفين في مصر انا ... لا نوالي منا ظلوما جهولا
ولنهون شق القلوب عليه ... ولنسجل على الردى تسجيلا
وليصبنا سهم الليالي العوادي ... بعد أن ظللت بنا تضليلا
ولنساجل بماله من خلال ... ولنفصل اجمالها تفصيلا
ولنفاخر بمثل هذي المزايا ... وليطالع جيل بذلك جيلا
ولنردد تأبينه وكأنا ... منه نتلو التوراة والانجيلا
ولنرتل في كل آن وأين ... ما حيينا أعماله ترتيلا
ولتجامل فيه الممالك مصرا ... وليعز الفرات فيه النيلا
ولتخر الاهرام بعد التعالي ... ولتكن بعده كثيبا مهيلا
وليدم مطرقاً أبو الهول يبكي ... وسط منفيس راحلا مخذولا
ولينزر دائما مقاما حواه ... ولنقبل رفاته تقبيلا
وليضع كل عارف بعلاه ... من بني مصر فوقه اكليلا
ولنعول على الامير المفدى ... في دم بات مهدرا مطلولا
فاذا اقتص فالقصاص حياة ... وهو نص لا يقبل التأويلا
يا أبا يوسف وما كنت أعني ... بندائي يعقوب اسرائيل
ما حسبنا من قبل نعشك أنا ... سنلاقي طود العلى محمولا
أو نرى شمس دولة قد أصابت ... في ضحى العدل والسلام افولا
مشهد لا يكاد يرتد عنه ... كل طرف الا حسيرا كليلا
لو نعاه النعاة للصبر يوما ... لأبى الصبر ان يكون جميلا
قد تركت الاذل فينا عزيزا ... وتركت الاعز فينا ذليلا

علمتني علاك نظم القوافي فأجدت التشبيه . والتمثيلا
ولئن كنت مقصرا في رثائي فلقد كنت في ثنائي مطيلا
يا نسيم الصبا ولست اداجي يا نسيم الصبا سواك رسولا
أبلغ الراحل العظيم سلامي وولائي ولو رددت عليلا
ثم أنشد بين القبور وأرخ مات وامصر بطرس مقتولا
سنة ١٦٢٦ قبطية ٤٤١ ٣٣٧ ٧١٢ ٥٧٧
عظم الله فيه اجر المعالي وحباه منه ثواباً جزيلا
وأرانا نجيب باشا وزيرا وأمينا عما قريب وكيلا
وجزى الله عن بني القبط خيرا رب مصر حفيد اسماعيلا
فعساه بالعهد ان شاء يوفى انه كان عهده مسؤولا

وهبي بك

يا بطرس الخير قضيت شهيدا أبقيت ذكرا ما يزال جديدا
نالتك ايدي الحاسدين ولم يزل رب المكارم والعلى محسودا
لا بدع ان سحت عليك مدامع فلكم مسحت من الكئيب خدودا
ولكم مددت يدا لعاف معدم وفككت اغلالا له وقيودا
آثار مجدك ان عفت لم يعفها قدم وزادت جدة وخلودا
حزم وعزم قد بلغت مداهما حتى غدوت الواحد المنشودا
لم نفقد الرجل العظيم وانما أضحى بفقدك بدرنا مفقودا
كم وقفة شهدت بانك لم تقف الا لتنصر عاثرا منكودا
فاذا الرجال تألبت وتحزبت فرقت شملهم وكنت وحيدا
غالوك غدرا يابن غالي بئس ما صنعوا وكنت السيد الصنديدا
هل بعد قتلك نستلذ مطاعما أو نستطيب مع الظلام رقودا
الدين يبرأ من اثيم قاتل قد خالف الاسلام والتوحيدا

فكأنه قتل الجميع بقتله هذا الذي لم يلق منه صدودا
ماذا تريد من الطعام وذوقه والله أعطاك الطعام صديدا
هل في السياسة ان تكون جهنم مأواك أو أن قد تكون طريدا
هل في السياسة ان تسير ضغائنا كمنت وتصبح غادرا وحقودا
هل في السياسة أن تسيء لامة قد كنت فيها يانعا ووليدا
ياليت امك لم تلدك ولم تكن الا هواء في الحشا او دودا
خطت يمينك في حوادث مصرنا صحفا حوت غدرا فباتت سودا
يا آل بطرس قد مضى هذا الذي قد كان للكل أبا وعميدا
هيا نعزي بعضنا بعضا فقد عم المصاب مواليا وعبيدا
يكفيكم فخرا بان مليكنا قد كان بين جموعنا معدودا
زار الشهيد مسلما ومودعا وأتى اليكم ساعيا محمودا
جل المصاب فلا مصاب بعده يجري الدموع ويجلب التسهيدا
نم واحي في كنف الاله معظما يابطرس الخير قضيت شهيدا

محمد بك عفت

طال ليل الاسى فأين الضياء واستحال الصفا فكيف العزاء
ومشى الدهر بالاساءة لما قد وثقنا من اننا سعداء
وظنناه ضاحكا فاذا في ضحك الدهر خدعة ورياء
نجمت ثورة وزالت وقلنا ثاروا مصرهم لها اعداء
وبنينا بالسلم بيتا رفيعا وانتهى الامر واستقام البناء
فاذا حادث خطير فظيع ضل فيه الحجا وضاق الفضاء
حادث ازعج النفوس وأصمت كل قلب نباله الصماء
رحم الله مصر من شر قوم هم بمصر رجالها جهلاء
لا يحسنون بالمصائب ما لم تتوال الهموم والارزاء

فتكوا بالوزير بطرس فتكا ... مجت الارض وقعه والسماء
البسوه من الدماء لباسا ... منه في مصر محنة وبلاء
قتل الطيش خير شهم عظيم ... قد أقرت بفضله العظماء
ولو أن المصاب كان عليه ... قاصرا كان في العزاء رجاء
غير ان المصاب في جسم مصر ... طعنة في فوأدها نجلاء
يوم قتل الوزير يوم قبيح ... صبح شؤم وليلة ليلاء
ماجت الناس كالفراش وأمسى ... أمل الكل للوزير الشفاء
فأتى الصبح قائلاً أن افيقوا ... أيها النائمون حم القضاء
فبكت مصر مركزا كان فيه ... خير كفء اذ قلت الا كفاء
ونعت حظها المولى بصوت ... سمعته الاكابر والعقلاء
وأحلت شأن الفقيد محلا ... شأن أم يهمها الابناء
فاقامت له احتفالا مهيباً ... قصر المدح عنه والاطراء
نال بالحزن والسواد جلالاً ... ليس يعطي بيانه الشعراء
ومشى الشعب مطرقا وعليه ... هيبة من فقيده وحياء
يتجلى موكب الشهيد يناجي ... ذلك الروح قومه الشهداء
دفنوا جثة لبطرس لكن ... أيها الناس فاتكم ذا الضياء
ادفنوه فقد بقي منه فضل ... وعلا وهمة ومضاء
هي اخوانه التي ليس تنسى ... حين ينسى الاخوان والاصدقاء
ذهب الاروع الوزير فحلت ... بدلا منه فتنة عمياء
تأكل القطر نارها ان تولت ... أمر اطفائها يد عسراء
رب فارحم من بعد بطرس مصر ... لا يكدر لها بلطفك ماء
رب شخص جنى فلا يك فيما ... قد جناه بطيشه الابرياء

واملاء النفس بالعزاء فانا ... رب عن حمل رزئنا ضعفاء

أحمد برهومة

سار للخلد بطرس فله الله ... وانا لنا العزاء الجميل
نازل حل في القلوب فادما ... ها وخطب له العزيز ذليل
كل ما قدر الاله وامضا ... ه سيأتي ورده مستحيل
أهل غالي كم من رسول كريم ... ونبي قد راح وهو قتيل
كم مليك وكم مليكة عرش ... غالهم ذلك المصاب الوبيل
نحن لولا حسن التأسي بمن را ... ح لدامت نوادب وعويل
نحن في حسرة على فقد غالي ... رجل الحزم والرجال قليل
أسرف البعض في المقال وضلوا ... وأضلوا يا ليتهم لم يقولوا
جعلوا الافتيات والنم غنما ... للهاهم يا بئس هذا السبيل
نحن عشنا على الوفاق قرونا ... ما لا هل التفريق فينا تحول
ليس فينا وليس فيكم عداء ... ناقم أو تعصب او ذهول
ليس قبطي ومسلم في خصام ... انما الخصم ذو الضلال الجهول
كل جان يلقى الجزاء وفاقا ... لا تضار ولا اعتداء يصول
يا نجيب اقتده باصلك واعمل ... مثل ما كان أبوك الجليل
كان يسدي التوفيق بين بني ال ... نيل وما كان في نهاه غليل
وتعزز باخوة وبعم ... وباهل هم للوفاء اصول
واقتبل يا ابن بطرس من محـ ... ـب نصحه فهو عاصم لا يحول
هكذا كنت في قريضي للمر ... حوم والحر للسبيل دليل
نحن في حاجة الى الوحدة الشماء (م) ان الوفاق نعم المنيل
أنت أعلا فكرا واسما عن الغو ... غاء ان الغوغاء بئس الخليل
يا نجيبا في رأيه عن تليد ... في شباب تثني عليه الكهول

رتبة اقبلت بمجدك تزهو ... والمعالي الى الاعالى تميل
ولك المنصب العالي تجلى ... فاقتبله وللسعود قبول
وتهنأ بعد العزاء فلله ... شؤون تحار فيها العقول
ولعلياك صغت أحكام نظم ... فيه بيت تاريخه يستهيل
جاور الله بطرس فأسفنا ... ليدم نجله نعم الوكيل
اسماعيل بك عاصم المحامي

سنة ١٣٢٨

يغني عن الغيث ما جادت به المقل ... في موقف عن فيه الحادث الجلل
سالت نفوس ابيات على ندس ... موفق الرأي لا يهفو به الزمل
كانه والليالى فوق ما عرفت ... صبح باسباب علم الغيب متصل
يريك في السلم وجها مال صاحبه ... الى السلام فلا خب ولا دخل
ويضرب الدهر ان اوفى بحادثة ... وقد تباينت الاغراض والحيل
قلب كقلب (سنير) لا يزلزله ... خطب ولو كان في غشيانه الاجل
صراه عن حادث يعزي الى حدث ... لو راقب الله ما ضاقت به السبل
والطفل يضرب في الديجور ان لعبت ... به الظنون وارخت حبله الهمل
يا حادثا اذهل الافلاك هل جهلت ... مصر بما كان أم دامت له القلل
قحل للذي برئت من دياته ... يتمت شعبا جرى عن حلمه المثل
وانت يا خير من ساروا بموكبه ... نم آمنا فالليالى ريها غلل
اخلصت للدين والدنيا فما عرفوا ... صدق الوزير بما قالوا وما نقلوا
ويل لابطال مصر ان طويت بها ... واثر القاتلان الجهل والخطل
يا ناشر العلم يابابي دعائمه ... أمضي اليأس وانتابتني العلل
وغير الحزن من حالى وغادرني ... أبكي على أمة قد فاتها الرجل
ما قرب الامل المنشود طالعه ... الا واسرع في تبعيده الامل
كدنا مع العلم بالايام نسألها ... عن المصاب الذي ارتجت له الدول

في ذمة الله يا من كدت أحسبه ... في علمه كتباً جاءت بها الرسل
في جنة الخلد يا من جود راحته ... اثنى على نعمتيه السهل والجبل
بتنا وفي كل قلب ما يخامره ... والنفس خائرة والدمع منهمل

محمد اما العبد

مللت على مذاهب الادب ... لما نعتك العجم والعرب
شلت يد طاعت لصاحبها ... ورمت به في مزلق العطب
قد مدها لعباً فجد بها ... ولرب جد جاء من لعب
طاش الفؤاد به فخيبه ... والسهم طاش به فلم يخب
قد يحرق الشرر الكهول اذا ... ما تلعب الاطفال باللهب
يا امة في النعش قد حملت ... لا لاح بعدك لائح الشهب
ضاقت بك الآمال مطلباً ... فاليوم عندك كل مطلب
(غالى) المآثر قد جنى رجل ... من صبية ضلت ولم تثب
مثل العبيد رأيت طاعتهم ... تأتي من الارهاق والرهب
قد كنت اسكنهم اذا اشتجروا ... وأشدهم حرصا على الارب
لا تسألوا عن رميه أحداً ... ان الاثيم رماه عن رعب
تالله لو يدري الذي طويت ... عليه تلك النفس لم يصب
والنفس والشيطان مقترب ... في هذه الدنيا لمقترب
ما كان مفتونا بفعلته ... لولا الجنون وثورة الغضب
امناضل عن جوض بلدته ... من كفها ولسانها الدرب
يا مصر يا دار السكينة هل ... اصبحت دار الحرب والحرب
يا مصر يا دار السكينة هل ... اضحى بساحك ملتقى القضب
يا مصر يا دار السكينة هل ... آلت رباك لشر منقلب
للفوضويين الذين نسوا ... ان الكنانة أسكن الرحب

جروا علينا الويل واتركوا ... من بعدهم كربا من الكرب
اني لا ابرأ من فتى ضربت ... على حجاه اسواء الطنب

عبد الحليم المصري

أي بدر خبا وأي بناء ... قوضته في الدهر أيدي القضاء
قل لناعي الوزير للخلق مهلا ... وترفق بتلكم الاحشاء
ومر الشمس ان تغيب عن الافق ... فلسنا في حاجة للضياء
ومر السحب ان تمر جهاما ... كم سحاب ارسلته من بكائي
ومر الليل ان يدوم طويلا ... لنرى مصر في ثياب الشقاء
بلد خانه الزمان فأمسى ... كيتيم أوفى على لؤماء
ذهب اليأس بالنفوس فمن لى ... برجاء بعد احتجاب الرجاء
أين عهد الوفاء ان كنت لم تد ... ر بخطب الوزير رب الوفاء
اين شمس الجلال سر المعالي ... صاحب القدر واحد الوزراء
اين من هذب الزمان واحيا ... سنناً أعجزت نهى الحكماء
اين زهر الرياض غالي فتاها ... ومناها عند استماع النداء
غاله خائن يرى القتل دينا ... وطريقاً الى مراقي العلاء
اضمر الشر للرئيس المفدى ... بنفوس الاعاظم الرؤساء
واطاع الذين هم شر قوم ... بين أهل النهى وشر بلاء
لو درى بالذي طوته الليالي ... لبكي من جزاء يوم الجزاء
وتمنى ان تغوص به الار ... ض اذا كان فيه بعض حياء
ايها القطر قد فقدت عظيما ... اين منه مكانة العظماء
نور عيسى فى وجهه يتجلى ... كهلال يلوح فوق سماء
دق ذاك الناقوس حزنا عليه ... دقة القلب من جرى البرحاء
وجرى الحزن في الصليب فأمسى ... مطرقا بالعلامة السوداء

كم له أثر جليل ينادي ... انه الرجل العظيم الاباء
قوله عند موته عظة با ... لغة نطقت بدون مراء
« علم الله لم أضر بلادي » ... ولها كنت أخلص الاوفياء
بطرس الحزم من يذلل صعبا ... ان دهتنا الخطوب بالارزاء
بطرس الخير قد تيتم شعب ... بعد فقدك يا أبا البؤساء
بطرس العقل من يسدد رأيا ... ان بدا مشكل عسير فجائي
كنت حلال معضلات فبرهنت ... بانك آية في الدهاء
كم وسام حملته فوق صدر ... يتلالا من بهجة اللألاء
نلت مانلت عن جدارة حق ... به آمن كل دان وناء
سرت بالقطر نحو دستوره المر ... جو تبرزه بدون وناء
نت سر القانون في أرض مصر ... رلك الفضل شاهد بالذكاء
أنت أدخلتنا النظام النيابي ... أنت أول مستحق الثناء
أنت بيت القصيد قائد مصر ... في سبيل رقيها والرخاء
كنت للعرش مخلصا وأمينا ... ووفياً للسدة الشماء
ذائدا عن حياضها بفؤاد ... أكبرته الاسود في الهيجاء
كنت تقرع كل خصم عنيد ... بسديد البرهان والآراء
عجز الكل عن مبارا ةفكر ... ثاقب حده سريع المضاء
حسدوك جهالة وضلالا ... ورأوا منك ملجأ السفهاء
فأرادوا أن يطفئوا انور رب ... بثه في الوجود للنعماء
فاستباحوا قتل البرئ بعمد ... يالها من جريمة شنعاء
ان نجوا من عقاب حكام ارض ... كيف ينجون من عقاب السماء
ويلهم يوم يطلب العدل منهم ... دم بطرس غالي الاصفياء
قد طواك الردى فغبت كريما ... عن عيون في الجنة الفيحاء

حملته الآباء وهو حزين ... فسرى الحزن بعد في الابناء
ان قتل الوزير فينا فداء ... للبلاد أكرم به من فداء
عرف المالك المحبب فينا ... قدر من كان أوحد الاكفاء
فمشى للعزاء وهو كئيب ... وعزاء الملوك خير عزاء
وملوك الوجود تعلم بالقد ... روقدر العظيم بادي البهاء
نبأ روع الخلائق جمعاً ... ليته لم يكن من الانباء
كاد ينسي الاباء ذكر بنيهم ... ويرد العقول مثل الهباء
نبأ أحزن المكارم والمجد ... وأبكى العلى بكا الخنساء
نبأ فادح وخطب جسيم ... ترك النيل في احمرار الدماء
هز رمسيس حزنه فسمعنا ... ضجة في وسيع ذاك الفضاء
وأتت في الرئيس كتب تعاز ... من ملوك الزمان والرؤساء
رب ماهذه الحياة حياة ... بين قوم لم يأنسوا للولاء
وقلوب الانام شتى فمن لي ... بقلوب صفت كراح وماء
انما الدين للاله وهذي ... كتب أنزلت على الانبياء
ضلت الخلق بعد هذا سبيلا ... فاهدنا ربنا سبيل السواء
يا حياة اليتيم كيف تلاشى ... ظل هذا الجلال من غيرداء
يامجير الضعيف في كل خطب ... كل حين وملجأ الفقراء
لك فينا مآثر ليس تخفى ... كيف يخفى الضياء في الظلماء
شدت للعلم في البلاد بناء ... كاد يعلو على على الجوزاء
ان تاريخك المجيد لباق ... شاهداً بالصحيفة البيضاء
ان بطرس عاش شهما أمينا ... لك يامصر قاهر الاعداء
كم من الداء قد ألم بمصر ... فانبرى شافيا بخير دواء
كم مجالس أنشأتها يداه ... لارتقاء البلاد سبل العلاء

نم عزيزا في دار رب كريم ... في مقام الكرام والشهداء
ياضريحه نلت عزا ومجدا ... باحتوائك قدوة الفضلاء
وتقبل يا أنجب الناس مني ... مهجة صاغها الاسى برثاء
ان بكينا على أبيك بدمع ... رب دمع بين الرثا والهناء

جرجس بياضى

الى روح الذي سكن الضريحا ... رثا ياليته كان المديحا
لعمري لو تبدل دمع عيني ... دما حتى غدا جفني قريحا
لما انطفأت لواعج نار حزني ... ولا أمسى فؤادي مستريحا
لهول مصابه اضحى يراعي ... عييا حيث أعهده فصيحا
جنى المفتون بالاوهام اثما ... فما أرضى محمد والمسيحا
وكل لا يرى في الغدر عدلا ... ودين كليهما وافى صريحا
يحرم ما يرى فيه ضلالا ... وما فيه الهدى قد جا مبيحا
ولكن شاءت الجهلا نزاعا ... لدى التمحيص لا يلفي صحيحا
ولولا كلمة البارى تعالى ... لكان جميعنا لبس المسوحا
أو الاسلام عم الكل دينا ... فلم يك بيننا أحد قبيحا
سخافات تروجها عقول ... ترى تضليلها سوقاً ربيحا
أما علموا بان الكل خلق ... براه الله للدنيا مليحا
وقيمة كل مرء في البرايا ... بقدر ذكاء فكر قد أتيحا
فوأسفا لفقد وزير مصر ... وقد أمضى الحياة لها نصوحا
ووأسفا على طود عظيم ... امام عيوننا استلقى طريحا
ولا عجب اذا أخذ اغتيالا ... فأيدى الغدر كم دكت صروحا
وما نقموا عليه سوى ترقي ... بعزم عاش للعليا طموحا
ونبل مواهب شهدت اليه ... بان صفاته كانت فتوحا

ذكاء نادر وحجى كبير ... ووجه لم يزل أبدا صبيحا
وجأش ثابت ما روعته ... جروح أعقبت فيه قروحا
فراح شهيدها وقضى عظيما ... على رغم الالى عابوا سجيحا
وشيعه الى جدث عظام ... تمنى كلهم ذاك الضريحا
وقد شهدوا بمشهده جلالا ... يكاد على الملوك يري شحيحا
يحق لكل قلب ذا رشاد ... ادامة دمع أحزان سفوحا
على من كان نبراساً مضيئا ... لساستنا وميزانا رجيحا
فقدناه وحاجتنا اليه ... كجسم للحياة يرد روحا
ولكن القضا نادى فلبا ... نداء الله مرتاحا مريحا
فقيد الكل ان شئنا عزاء ... فخير عزائنا أن لا نطيحا
ويركب كل عقل ضد عقل ... جوادا فى مهاترة جموحا
لحادثة جرت فينا شذوذا ... فأبقت في عواطفنا فلوحا
بل الاولى بان ننسى جميعا ... ونأسف للمصيبة أو ننوحا
وان لا نغمر الاحقاد جهلا ... فنفشل كلنا في مصر ريحا
وننهج للعدو لنا طريقا ... نضحي فيه ذاك لذا ذبيحا
أفيقوا يابني مصر أفيقوا ... وكونوا كلكم شعبا سموحا
فان الحزم يأمرنا جميعا ... بان نبدى الى السلم جنوحا
وأن تصفوا ضمائرنا بصدق ... من الاضغان كي تكفي الفضوحا
فلو وسع المقام هنا مقالا ... لكنت أطلت في النصح الشروحا

محمد فرغلي بك الانصاري

هل كان يومك الاعبرة الامم ... وآية الله في مستعظم الهمم
يوم تلفت فيه الدهر من فزع ... فما تمالك حتى ضج من ألم
ماذا جنيت وماذا كنت فاعله ... حتى أصابك منا سهم منتقم

نبني وتهدم أيدي الجهل دائبة ... فمن لنا ببناء غير مهدم
سطر من العار خطته أنامله ... لو استطيع له محوا بدلت دمي
يا ويح مصر أما تنفك ثائرة ... لحادث مجلل أو نكبة عمم
يا أمة القبط والاجيال شاهدة ... بما لنا ولكم من صادق الذمم
لا كان منا امرء باتت جوانحه ... لفقد سيدكم الا على حرم
هذي مواقفنا في الخطب ناطقة ... فاستنبؤوها تر يحونا من التهم
ان يختلف منكموا في الخطب مختلف ... فما لنا اليوم غير الدمع من حكم
ان بكينا فلم نترك للائمنا ... حقا علينا ولولا الدين لم يلم
لا تظلموا الدين ان الدين يأمرنا ... بما علمتم من الاخلاق والشيم
فينا وفيكم رجال لا حلوم لهم ... ولا يفيئون للأديان والحرم
أنتم لنا اخوة لا شيء يبعدنا ... عنكم على عنت الاقدار والقسم
ليس اللجاج بمدن من رغائبنا ... ولا الشقاق بمجدينا سوى الندم
يا ويح مصر لخلف لا ركود له ... الا ليعصف بالاقطار والامم
مثل البراكين في الحالين ماهدأت ... الا لتقذف بالنيران والحمم
ولو تآلف أهلونا لما بقيت ... من حاجة فى ضمير النيل والهرم
ياقوم ماذا يفيد الخلف فاتفقوا ... وقوموا أمركم بالحزم يستقم
صونوا العهود وكونوا أمة عرفت ... سبل الحياة فلم تعسف ولم تهم
ياقوم لا تغفلوا ان العدل له ... عين تراقب منكم ذلة القدم

أحمد محرم

وهناك قصائد أخري تعد بالمئات عدا عن مراثي الكتاب النثرية التي لا تحصى وأقوال الخطباء وغيرها من الرسائل البرقية التى انهالت على الصحف ولبثت تنشرها باختصار نحو شهرين من الزمان أدلة حسية على وكل ذلك فضل فقيد مصر وعلى رفيع منزلته العالية في قلوب أمته .

المرحوم المغفورله بطرس باشا غالى

Boutros Pacha Ghali

اخذت هذه الصوره وهو في اوروبا

obeikandl.com

الحادث والمتمدنون

٩

طير البرق حادث مصر المفجع الى سائر انحاء الارض فاكبرت الامم المتمدنه وقوعه وعدته أعظم حادث وقع في أرض الفراعنة منذ عهد التاريخ بل عدته حائلا في سبيل استقلال المصريين واسرعت الصحف الكبرى في أوروبا وأمريكا بنشر صورة الفقيد وترجمة حياته مظهرة فضله وأعماله العظيمة ونبوغه وخسارة مصر والشرق كله بفقده وقد اهتزت عاصمة الخلافة في فاروق على الخصوص لوقوع الحادث ونشرت عنه صحافتها المقالات الضافية مثبتة وطنية الفقيد وأعماله الجليلة ذاكرة المشاكل السياسية الخطيرة التي حلها بفكره الوبص ورأسه الكبيرة مظهرة النتائج الوخيمة التي تعقب الحادث ناصحة للمصريين أن يتخذوا غير سبيل الارهاب لتمدينهم ولم تكن الصحف العثمانية وحدها هي الضاربة على هذه النغمة والمتأثرة من وقوع الحادث بل الامة العثمانية كلها وفي مقدمتها جلالة السلطان الاعظم محمد الخامس الذي أرسل تلغراف تعزية الى الحكومة المصرية كما أرسل الوزراء ورئيس مجلس المبعوثان ومجلس الشورى التلغرافات العديدة الى الحكومة والى عائلة الفقيد

أما صحف بيروت فقد ظهرت مجللة بالسواد مشاركة للامة المصرية في أحساسها وعقبت جريدة الوطن البيروتية على الجناية بقولها

« نعى بطرس باشا غالي فاصابت وادي النيل سكتة من الاسى بل تجاوز الاسف أرض الصعيد وألم بكل ذي شعور حي. على أن هناك بين تلك الجماهير العاقلة المتأثرة من أجانب ومصريين بعض شراذم من المتمصرين أكل الجهل عليهم وشرب يتهامسون سراً بفوز الوطنية وهم لايفهمون من الوطنية الا الحزب الوطني الذي أصبح عبارة عن بضاعة يتاجر بها قوم يحسبون أنفسهم من الزعماء الوطنيين وهم في الحقيقة متمصرون وتجار يسخرون أنفسهم ويسخرون العامة فيقودونها من هاوية الى هاوية ومن بلية الى بلية كأنما كتب لوادي النيل مع توفر أسباب المدنية فيه ان تبقى فيه فئة متعصبة من غير ابناء البلاد تجر عليها أشكالا وأنواعا من العناء

ويسؤنا والله أن نرى وطنياً تفتك به يد وطنيه! ايقتل الوطني أخاه في الوطنية ثم يدعي انه عمل لاجل الوطنية . بئس الوطن الذى اتخذ المتعصبون فيه اسم الوطنية وسيلة للفتك بافاضل بنيه وبئس ما اتخذه ذلك الجاني الاثيم حججا على صوابية الفتك برجل أدرى من القاتل وامثاله الجهلة بما يفيد مصر بل وأعلم بادارة دفة السياسة في مركزه وابصر بعواقب الحوادث وأخبر بما يستطاع ومالا يستطاع

ومن الجهل الفاضح أن يتصور بعض الثائرين أن أصحاب المراكز السياسية قيد اهوائهم الذميمة ورهن تصوراتهم القاصرة خصوصاً في مثل موقف مصر الحالي. على أن العقلاء الواقفين على

أسرار السياسة انما هم الذين يشعرون بحرج تلك المواقف

فكأن الدم البرئ الذى سفكته يد الجهل والتعصب بدعوى الانتقام للوطنية هو الدم المنادي بان لا وطنية في مصر

وان أرضاً لم يذكر لها التاريخ منقبة مجد في أيام استقلالها لهي الارض التي لا تنبت الا الذل والهوان في أيام استعبادها »

وعلى هذا النحو كتبت بقية الصحافة العثمانية والسورية في الشرق وفي أمريكا وصحافة بقية الممالك المتمدنه. ولا نبالغ اذا قلنا أن الحكومة الانكليزية وعظماءها ونخبة رجالها لم يضطربوا لحادث كما اضطربوا لقتل فقيد مصر لانه كان الرجل الوحيد الذى يمكنهم أن يعتمدوا عليه وان يتفاهموا معه في كل الشؤون المصرية وفي كل ما يؤهل المصريين الى الحكم الذاتي. وقد أسرع السر ادوارد جراى وزير الخارجية الانكليزية بارسال تعابير العزاء بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن حكومته الى الجناب العالي وعائلة الفقيد كما اصدر أوامره الى الجيش المحتل بان يسير في موكب الفقيد وأرسل اللورد كرومر تعزية رقيقة أشفعها باكليل من الازهار وضع فوق قبر الفقيد ذلك عدا عن تلغرافات الوزراء واعضاء مجلس البرلمان .وناهيك باسف الفرنسويين وتألمهم من وقوع الحادث حتى أن صحافتهم كتبت عنه أكثر مما كتبته الصحف الانكليزية وأشد كما أظهرت حكومتهم منتهى الانعطاف نحو عائلة الفقيد مبدية لها أجمل التعازى بلسان وزير خارجيتها المسيو بيشون الذى أشفع

التعزية باكليل من الازهار وضع فوق قبر الفقيد العظيم وعلى مثال ما تقدم ابدى ملوك وحكومات روسيا والمانيا والنمسا وايطاليا وامريكا وسائر الممالك أسفهم وفي مايلي من أقوال الصحف الشبيهة بالرسمية والتي تنطق بلسان حال الوزراء والمجالس النيابية ما يدل على شعور الاوروبيين ورفيع احساسهم وعلى تقديرهم لخدمات فقيد مصر العظيم حق قدرها ولاعجب فهم أهل حضارة وعلم يعرفون اقدار عظماء الرجال ونوابغهم ويوفونهم حقهم من التكبير والتعظيم وبمثل هذه الحضارة التي لا تعرف دينا ولا مذهبا امتلكوا ناصية العالم وملأوه حياة وعمرانا وتمدينا وعلماً الى آخر ماهنالك من ضروب الرقي التي نراها في كل أرض يضعون فيها اقدامهم او يرفرف عليها علمهم .

أقوال سير غورست

افتتح سير الدن غورست المعتمد البريطاني في مصر تقريره عن الحالة العمومية لسنة ١٩١٠ بقوله:

حدث في الايام الاخيرة من المدة التي تنطوى تحت هذا التقرير جريمة من الجرائم العظيمة العديمة الجدوى التي تشوه محاسن عصرنا من حين الى حين والتي لم تكن معروفة في مصر من قبل لحسن الحظ ففي يوم الاحد الموافق ٢٠ فبراير بينما كان المرحوم بطرس غالي باشا رئيس النظار السابق خارجا من مكتبه جرح جروحا مميتة من يد شاب لئيم ضعيف الادراك مبلبل الافكار من الذين يورطهم مجرمون أكبر

منهم بتحريضهم اياهم على اتخاذ وسائل العنف والقوة التي لا يجرأون هم على اتخاذها بانفسهم

أما الباعث على ارتكاب الجريمة فسياسي ولم يكن للقاتل ثأر شخصي على القتيل ولا كان مدفوعا بعامل التعصب الديني الى ارتكاب جريمته ولما دافع عن نفسه سرد التهم التي اعتادت الصحافة الوطنية أن تعزوها الى بطرس باشا في كل زمان ومكان مفرغة في قالب الطعن والوعيد

ومع أن القاتل الشقي المغرور الذي أضلته أقوال المحرضين سيلقى جزاء ما فعل فلست أتردد في أن أقول أن زعماء الحزب الوطني مسئولون أدبيا عن قتل بطرس باشا فانهم قضوا السنين وهم يطعنون ويقدحون ويهاجمون عالمين حق العلم أن أقوالهم الموجهة الى الشبان الجهلاء الشديدي التهيج لا تلبث أن تحملهم على ارتكاب الجنايات التي يتظاهر أولئك الزعماء الآن بالاستياء من وقوعها

ومن غرائب الاقدار أن تقع الضربة التي نجمت عن تحريض أولئك الذين يلقبون أنفسهم بالوطنيين على أول رجل من صميم المصريين بلغ أرفع منزلة في خدمة بلاده

ولد بطرس غالي باشا سنة ١٨٤٦ وبعد أن خدم الحكومة خدمة طويلة ممتازة تقلد منصب الوزارة في سنة ١٨٩٣ فعين ناظراً للمالية وفي السنة التالية عين ناظراً للخارجية وبقي فيها الى يوم وفاته

ولما اعتزل مصطفى فهمي باشا رئاسة مجلس النظار في نوفمبر سنة

١٩٠٨ كلفه الخديوي فالف الوزارة التي انتهت على غير انتظار بوفاته وأراني في غنى عن تعداد الخدمات الجليلة التي خدم بلاده بها ، ووصف الولاء والامانة اللذين أظهرهما في أحوال صعبه وما زق حرجة فان ذلك كله معروف ومشهور فموته الآن خسارة على مصر لاتعوض وسينقضي زمان طويل قبل أن يجد الخديوي و بلاده خادما يفوقه اخلاصاً ومقدرة وولاء

أقوال اللورد كرومر

انني عاشرت أثناء اقامتي في مصر المرحوم بطرس باشا واشتركت معه فى الاعمال وكنت أقدر كفاءته ومقدرته كثيراً وأعجب به وقد نكبت مصر في موته بخسارة عظيمة لانه بدون ريب كان أعظم كفاءة من جميع الوزراء المصريين الاحياء فضلا عن انه كان مصريا صادق الوطنية فكان يعمل باخلاص وأمانة لما فيه مصلحة وطنه الحقيقية وهذه الجريمة التي قطعت حياته قبل أوانها هي أفظع جريمة عرفت قبل الاوان

أقوال التيمس

أن رئيس نظار مصر هو آخر من فتكت به يد القاتل السياسي وقد مات بطرس باشا أمس من الجراح التي أصابه بها يوم الاحد ابراهيم الوردانى أحد أساطين الحزب الوطني والظاهر ان الجريمة هي من نوع تلك الجرائم التي أصبحت مألوفة في الهند أخيراً . ارتكبها المجرم بما الفناه من الوقاحة وعدم الاكتراث

أما القاتل فكان له نصيب عظيم في مؤتمر الشبيبة المصرية الذي عقد في جنيف في شهر سبتمبر الماضى و بلغنا انه كان كاتما لاسرار المؤتمر وانه كان مكاتباً لجريدة الحزب الوطني المرذولة . وقد مضى أحد عشر شهراً منذ بدأت هذه الجريدة في توجيه المطاعن الشديدة على الخديوي ونظاره.

ولم تبد حتى الآن ادلة تبين ما اذا كانت تلك المقالات قد أثرت على الورداني فصيرته قاتلا . ولكن لا يوجد مجال للريب الكثير في ان الجريمة نتيجة طبيعية للتحريضات التي طالما فاه بها زعماء الحزب الوطني دفعاً الى استعمال الشدة فان الخطاب الذي القاه رئيس هذا الحزب في مؤتمر جنيف قوبل باستحسان لم يصادف مثله خطاب آخر . هذا الرجل ما لبث بعد ان عين رئيساً للحزب المذكور ان خطب في قومه في القاهرة ولا تنكر انه اوصاهم بالابتعاد عن كل ثورة مسلحة ولكنه في الخطاب نفسه ردد الى خواطرهم امثلة كثيرة من قتل الملوك والجرائم السياسية الواردة في تواريخ انجلترا وفرنسا وايرلند . ربما انه لم يقصد الاذى بترديد هذه التذكارات المقرونة بالخطر ولكن مصر كانت منذ مدة في حالة تجعل مثل هذه اللهجة من الامور المنكرة . والراجح ان بعض الانكليز لم يعلموا أن جرائد الحزب الوطني جاهرت بسرورها وابتهاجها عند مقتل السير كيرزون ويلي ولم يعلم نوابنا ذلك عند ما ساعدوا مؤتمر جنيف والقوا الخطب فيه ووعدوا أعضاءه أن يساعدوهم واحزابهم

في البرلمان على التهيجات الصبيانية الطائشة . ولكن هذا الجهل لا يخليهم كما أنه لا يخلي غيرهم من سياسي الانكليز والارلنديين من المسؤولية العظيمة التي تعرضوا اليها في اشتراكهم بمثل هذه الامور. لانه جهل كان يسهل ازالته لو انهم تكلفوا قليلا من الاستفهام والبحث في الموضوع وأما اذا أهملوا ذلك الاستفهام الواجب ثم وجدوا ان بين رفقائهم جماعة من المجرمين فانما اللوم على انفسهم.

والظاهر أن جريمة القتل كانت بليدة قدر ما هي فظيعة فان اعطاء المصريين جميع الوظائف الادارية هو طلب ظاهر بوضوح في برنامج الحزب الوطني جنبا الى جنب مطالبتهم بمجلس نيابي مصري

ولقد كان بطرس باشا المصري الوحيد المولود في مصر الذي تولى وظيفة نظارة منذ ثلاثة عشر قرنا فابدى احد الوطنيين استحسانه لارتقاء مصري الى هذا المنصب بقتل السياسي الذي أدرك تلك الغاية التي لا مثيل لها في سنة واحدة من بعد ارتقائه . ولا نصدق اذا قلنا ان بطرس باشا كان سياسيا عظيما ولكنه كما قال اللورد كرو في مجلس الاعيان أمس كان عاملا نشيطا ومستقيما في خدمة وطنه ثم أن اللورد كرومر الذي تمكن في أحوال خارقة من درس أخلاق الرجل وكفاءته كتب الينا رسالة اثنى فيها ثناء عظيما وابدى حزنه الحقيقي عليه وفي رأي هذا الحكم الكفوء كان بطرس باشا كفأ الوزراء المصريين الاحياء كما كان مخلصاً في وطنيته عاملا

باستقامة واخلاص لما فيه مصلحة بلاده الحقيقية فموته الفجائي نكبة عظيمة لمصر وقد كان ناظرا للمالية ولكن ظهرت مزاياه الخاصة في أكمل مظاهرها عند ما جعل ناظرا للخارجية قبل ان صار رئيساً للنظار وقد امتاز في أنه كان يلبس لكل حالة لبوسها وهي مزية ذات قيمة عظيمة في نظارة الخارجية خصوصاً في بلاد مثل مصر ولكن هذه المزية كانت مقرونة بأكثر مما يوجد غالبا في السياسيين الشرقيين من الصراحة والشجاعة ولا بد ان نظن ان هذا القاتل الذى حرم بلاده من اعظم سياسي فيها كان يعالل النفس بتعطيل أعمال الحكومة الحاضرة اذ يلقي الرعب في قلوب الذين يجسرون على خدمتها بدون موافقة أصدقائه والا فما الباعث الوحيد الذى نظن انه دفعه الى ارتكاب تلك الجريمة حسب معلوماتنا حتى الآن انما هو الجنون او الانتقام . فانه ليس اشد حماقة من الذين يتصورون ان في الامكان قلب الحكومات المتمدنة أو مضايقتها في هذه الايام بمجرد الفتك برؤسائها ومثل هذه الفكرة وحدها دليل قاطع على عدم اهلية هؤلاء ليس للوظائف العالية فقط بل للتمتع بالحقوق السياسية العادية على أنه يقتضي مرور زمن طويل قبل ان تتبين هذه الحقائق للذين يرتكبون الجرائم السياسية في الشرق وكل ما نستطيع ان نفعله ريثما يتعلموا تلك الحقائق هو ان نحمي الذين يتعرضون لذلك الاعتداء بكل ما في وسعنا وان نعاقب القتلة وشركائهم عقاباً شديداً وان نبذل جهدنا لوضع حد لنشر الكتابات التي توجد القاتل

السياسي أومن شأنها تولده

اقوال الديلي جرافيك

نخشى ان يكون قتل بطرس غالي باشا رئيس الوزارة المصرية المحترم وأكبر سياسيي الشرق وانبغ من انبتته مصر بدء تاريخ دخول الحركة الوطنية المصرية المتطرفة في دور الخوف والتهديد . وقد أدرك الكثيرون من الذين يلاحظون تلك الحركة بدقة سوء العاقبة من زمن بعيد والتأثير السيء الذي تحدثه هذه الحركة على نفوس الطائشين . والظاهر ان الظروف على صحة ما توقعه أولئك البصيرون من الخوف وأهم شيء مخيف في هذه الجناية هو انها لم ترتكب بواسطة فرد قد ساء تصرفه او اصابه جنون . ولكن الجناية كانت نتيجة ما تمليه جمعية من المتطرفين المتمصرين التي أنشئت لغرض وحيد وهو نشر مبادئ الحزب الوطني بطريقة التهديد الدالة على ان الشر قد تأصلت جذوره بين مثيري الفتن في مصر لحد أصبح معه استئصال تلك الجذور من الصعوبات بمكان ولا يمكن ان نخلي ولاة الامور من المسؤولية عن حالة الادارة السيئة الموجودة خصوصاً وقد قدمت لهم الظروف شواهد كثيرة على تهور المتطرفين ولم تتخذ الحكومة الاحتياطات اللازمة لايقافهم عند حدهم . فقد اطلق سراح الجرائد السيارة فاخذت تزرع بقلمها الفتن ولم تتمكن الحكومة من كبح جماحها ولذا قد ارجأنا الوقت لاستعمال القوة التي لا تفيد في الشرق غيرها

الصحافة الفرنسوية

قالت الطان ـ ان الحادث الجلل الذي وقع في مصر أخيرا وراح فيه اعظم بنيها وأحكمهم لم يكن جديدا لاننا اذا راجعنا التاريخ لوجدنا الجنرال كليبر الذي استخلفه نابوليون على مصر قتل بواسطة أحد المتعصبين المتمصرين والمماثلين للوردانى الذي اغتال بالامس حياة بطرس باشا ولا شك ان جنايته هذه يجب ان تؤخذ بعين الاهتمام لانها تكشف الستار عن وجود روح الشر في مصر ونرى من الواجب على الانكليز استئصال تلك الروح الشريرة بتعليم الذين يهاجرون من الاقطار الاسلامية الي مصر كيف يكون السلام والوطنية

كان بطرس باشا قبطيا بمعنى انه كان مصريا من السلالة القديمة ومسيحيا وقد يجوز ان الاوربيين الذين لا يألفون الشرق ولا يعرفون أراء الذين يمتزجون بالقوة من المسلمين في الجنسية المصرية وتقاليدهم يعتقدون ارتقاء الفقيد الى المناصب العالية كان من البراهين الساطعة على مراعاة العداله في حكم البلاد التى تحت الاحتلال الانكيزي ولكن الحقيقية ان ارتقاء رجل من شعب لبث عدة قرون يرسف في قيود الاستعباد ذلك الارتقاء هو الذي دفع الورداني الى التحمس لقتل بطرس باشا

ولا شك ان تقليد بطرس باشا اكبر المناصب لم يرق في أعين الفئات المتطرفة التي تعيش في بلاد الشرق باسم الدين ولا يوجد لها

و أن خاص فاعتبرت هذا الارتقاء من أكبر الاثام وقد فاتها الحقيقة الناصعة وهي انه وان كان رئيس النظار قبطيا ومسيحيا الا انه من جهة أخرى وطني ومشارك لاخوانه المسلمين المصريين في الجنسية والدم

اما الجريمة فيجب علينا ان نتعلم منها شيئا واحدا وهو خطأ من يقول باستعداد المصريين للحكم الذاتي أو للاستقلال طالما يوجد فيهم من يميل لاولئك المتطرفين ويناصرهم وقد يظهر بعض رجالنا ميلا وانعطافا نحو مطالب أولئك المتطرفين كما فعلوا أخيرا في مؤتمر جينف الذي اشترك فيه الورداني والحقيقة ان هؤلاء لا يدركون معني الوطنية

الصحافة الالمانية

قالت جريدة برلينر تاجبلاط اذاعت الانباء البرقية من مصر قتل أعظم رجل نبغ من أبنائها منذ زمان طويل ألا وهو المرحوم بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية الذي أشغل مركزه بكفاءة واخلاص تامين وقد يعرف الالمانيون الذين عاشروا هذا الوزير كفاءته النادرة ودهاءه الكبير وفكره الثاقب الذي يقل وجوده بين سياسيي الشرق بوجه الاجماع ولكن كل تلك الصفات العالية والخدمات الوطنية الجليلة التي قدمها لبلاده لم تحول عنه تهيجات الحزب الوطني ولا مطاعنه التي انتهت بالقضاء على حياة الوزير بيد أحد أفراده . ولا شك ان هذا الحادث سيؤدي الى استعمال الشدة في معاملة أولئك المتطرفين الذين يثيرون الافكار في مصر ضد المسيحيين عموما ويتخذون الحريه

التي منحتها لهم امة اروبية سلاحا لمحاربتها ومقاومتها .

الصحافة النمسوية

قالت جريدة التاجبلاط النمسوية أدهش دوائرنا السياسية اليوم خبر قتل المرحوم بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية لانه من احاد السياسيين الذين يظهرون بين حين وآخر في بلاد الشرق وقد كان صلة التوفيق بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية حتي ان كل فناصلنا الذين اختلطوا به اثنوا عليه وامتدحوا اقتداره العظيم في كل عمل ولم تصلنا الى الساعة تفاصيل جدية يمكن الاستناد عليها في معرفة أسباب القتل الا انا علمنا من بعض المصادر الخصوصية الشبيهة الرسمية ان الحزب الوطني المؤلف في مصر من بعض الاقوام الكارهين للاجانب اكثر في الزمن الاخير من التعرض للوزير المسيحي حتى هيج أحد اعضائه لقتله ولكن مهما كانت النتائج المضرة التي جلبها أولئك القوم على مصر فقد حانت الساعة لصيانة المصالح الاجنبية والاهلية في تلك البلاد .

الصحافة الايطالية

قالت جريدة التربيونا قتل رئيس الوزارة المصرية اليوم المرحوم بطرس باشا غالي بيد عضو من أعضاء الحزب الوطني الذي يجول كل عام في اوروبا مناديا بطلب جلاء الانكليز عن مصر ولا شك ان ذلك الحادث وقع أسوء وقع في النفوس الغربيين عموما لانه أفقدهم اعظم

الوطنيين المصريين شأنا ومقاما وادراكا ودهاء ودلهم من جهة اخرى ان الوطنية في مصر عبارة عن حركة دينية يقصد بها معاكسة المسيحيين عموما ومقاومتهم وكل مطلع على أحوال الديار المصرية يؤيد أراءنا التي أثبتناها مرارا بضرورة معاقبة المتطرفين في مصر عقابا شديدا حتى لا تقوم لهم قائمة .

ثم قالت وقد خدم المرحوم بطرس باشا بلاده اصدق خدمة وكل الايطاليين الذين عاشروه في مصر أو قابلوه في أوروبا اكبروا فضله ودهاءه وعدوه اوروبيا في أعماله واقواله ومبادئه وآرائه

وعلى هذا المثال المتقدم كتبت بقية الصحف الاميركية والاروبية . اما الصحافة الروسية واليونانية فكتبت رسائل عديدة على مثال ما كتبته الصحافة الانكليزية وأشد

أقوال المستر رزفلت

في مصر

وتصادف ان المستر رزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميريكية زار الديار المصرية عقب الجناية الكبرى فاعلن أسفه وحزنه على مقتل رزيرها الكبير والقى الخطبة الآتية في الجامعة المصرية بناء على طلب لجنة ادارتها عبر فيها عن شعوره نحو الفقيد العظيم وعن خسارة الامة المصرية بفقده ناصحا في الوقت نفسه المتهورين بالتزام السكينة والسلام

نص الخطبة

يشق علي ان يكون كلامي الان بالانكليزية ولو كنت من أهل العلم ما تكلمت الا بالعربية لاني وان كنت مسروراً بمشاهدة كل الحاضرين هنا اليوم الا ان خطابي هذا هو لطلبة الجامعة والذين لهم علاقة بها أولا (ثم أشار الى الاوربيين الحاضرين وقال) ولا تؤاخذوني اذا قلت اني أوجه كلامي الى الجامعة خصوصاً

ومما يسرني على الخصوص ان أخطب اليوم في هذه الجامعة الوطنية تحت رعاية سامية مثل رعايتكم يادولة البرنس فؤاد . ومما يعد فألا حسنا للتعليم العالي في مصر ان يكون قد نال عناية رجل ممتاز سامي المقام مثل دولة البرنس

أنتج العالم العربي جامعة قرطبة العظيمة التي زهت واينعت منذ ألف سنة من الزمان وكانت مصدرا للعلم والعرفان أيام كانت بقية أوربا في غسق من العلم أو في ظلام دامس . وفي القرون التي تلت انشاء هذه المدرسة العربية في اسبانيا قام من العرب رجال علم ورجال رحلات وأسفار وجغرافيون كابن بطوطة الرحالة الافريقي الشهير الذي رأيت نسخة من كتابه في مكتبة الازهر أمس وكانوا من المعلمين الذين لا تزال مصنفاتهم تدرس بشوق ولهفة . والرجاء اننا نرى هنا بمصر تجدد (بل واكثر من تجدد) تلك الاحوال التي نفحت العالم بمثل ماتقدم لانماء الحضارة وترقية التمدن

ان هذا المشروع أي انشاء جامعة وطنية تضم مالايحصى من وجوه النفع الذي يمكن لبلادكم . ولكن أمامكم صخور كثيرة لاغنى لكم عن تسيير سفينتكم بينها وبأمن منها . ولما كنت صديقا صادقا لكم ومحبا لخيركم أردت ان ادلكم على واحد او اثنين منها لتجتنبوهما خصوصا . فأولا ان هناك امرا اذكره واوجه الانظار اليه في بلادي وفي بلادكم وفي كل البلدان وهو

ان الامانة والاستقامة هما الاساس الوحيد الذي يوءمن ان يبنى عليه . فاول امر واجب لابد منه هو ان كل الذين يكونون مسئولين عن الجامعة في بدء انشائها يثبتون

للجميع ان الجامعة تدار في أمورها المالية وغير المالية على محور الامانة والاستقامة .
ولا بد من جمع مال كثير وصرفه على هذه الجامعة حتى تصير كما يمكن وما يجب ان تصير لانني اعتقد انها اذا احسنت ادارتها تصير من اعظم بل ربما صارت أعظم وسائط الخير في كل جهات العالم التي يتغلب الدين الاسلامي فيها واعني بها الاقطار الشرقية التي تشمل شمال افريقية والجنوب الغربي من اسيا ممتدة من الاوقيانوس الاتلانتيكي الى اقاصي حدود الهند وما يليها من ولايات الصين . والواجب ان يكون للجامعة تأثير شديد في كل تلك الاصقاع في جميع الشؤون التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية لان مصر ذات مركز ممتاز في الشرق (يحكي ما يعبر عنه بالموقع « الستراتجي » في عبارة (علماء الحرب) بسبب موقعها الجغرافي و باسباب اخرى ايضا ومن حسن الحظ ان مصر الان في حال يتيسر بها للجامعة ان تتمتع بحرية لم يسبق لها نظير في البحث والتمحيص وفي امتحان جميع المسائل الجوهرية اللازمة لمستقبل اهل الشرق

ولا تنحصر اهمية هذه الجامعة في الشرق وحده اذ لا بد لمصر من الان فصاعدا ان تكون ذات « مركز ممتاز » بالنسبة الى شعوب الغرب ايضا لانها قائمة على قارعة طريق من الطرق الكبرى التي تجري المتاجر فيها على ازدياد دائم بين أوربا والشرق فعلى القائمين بشؤون هذه الجامعة ان يجعلوا نصب عيونهم غرضا ساميا جدا لا يقتصر فقط على ترقية الشعوب الاسلامية والشعوب المسيحية وغيرها من سكان البلدان الاسلامية بل يبلغ ايضا في العلم والعمل غاية من الكمال تؤدي الى جعل الجامعة واسطة من وسائط تعليم الغرب في آخر الامر لانه متى كان التلميذ على درجة كافية من الكفاءة وقبول العلم وعلى درجة كافية من الذكاء والاخلاص وجد أمامه دائماً من الفرص ما يمكنه من اعانة المعلمين الذين استعان بهم في بادئ الامر وأنا اشتاق الى رؤية ذلك اليوم الذي تبلغ فيه الجامعة تلك الغاية

ولكي يكون الابتداء على ما يرام لادراك تلك الغايات السامية قطعيا يجب أن يكون احترام الناس لكم عظيما وائتمانهم لكم تاما فدعوهم يشعرون انكم لا تسمحون

لاحد بالخروج شعرة عن السراط المستقيم في جمع المال وفي صرفه حتى أن الذين يريدون أن يهبوا المال على قدر ما يجب أن تكون هبته يثقون تمام الثقة أن الاموال التي يهبونها تستعمل استعمالا حسناً بالامانة والاستقامة

وثانياً أظهروا من حسن النية والحكمة والاخلاص في مقاصدكم التعليمية ما تظهرون في تدبير امور الجامعة المالية .اجتنبوا الباطل والادعاء الفارغ والتعصب الديني والجنسي والسياسي .أن في كليات أوروبا وكليات بلادنا أموراً كثيرة تستفيدون منها ولكن فيها أيضاً أموراً كثيرة يجب اجتنابها. فاقتبسوا عنها ما كان حسناً ولكن انتقدوه قبل اقتباسه حتى تثقوا بانكم انما تقتبسون ما هو الافضل والاصلح لكم

وأهم من اجتناب التقصيرات التعليمية اجتناب التقصيرات الادبية. فانكم ترسلون الطلبة الى أوروبا لكي يدرسوا فيها و يستعدوا لان يصيروا اساتذة. وهذا الاستعداد لازم اذ من الامور الجوهرية أن تكون الجامعة مطلعة على أحسن ما يجري في معاهد أوروبا وأميركا العلمية .ولكن ليعتن الشبان الذين يرسلون باقتباس كل ما هو حسن وحميد وواجب لارقى أنواع التقدم الحديث. وليجتنبوا الغير ضروري في تمدن هذا العصر ولا سيما رذائل الامم المتمدنة الحديثة ولتكن أذهانهم مفتوحة اذ من الخطأ العظيم أن تأبوا اقتباس ما رقى الغريب في مرقاة القوة والعدل والعيشة الطاهرة وان تقضوا به حاجاتكم ولكن من الخطأ العظيم أيضاً أن تقتبسوا ما كان رخيصاً أو مبتذلا أو رديئاً. ليعلم الذين يرسلون الى أوروبا أن فيها أشياء كثيرة يجب أن يتعلموها وأخرى يجب أن يجتنبوها .فليأخذوا الحسن ولينبذوا القبيح

واعلموا أيها الخلان انه كان عندي شيء أقوله لكم فذلك الشيء هو أن الاخلاق أهم من العقول بكثير وانه يجب على كل جامعة عظيمة بالفعل أن تسعى في تربية الصفات التي تكون منها الاخلاق أكثر من تربية الصفات التي تقوم بها العقول المثقفة. نعم انه ما من رجل يبلغ الطبقة العليا بين الرجال اذا لم يكن عاقلا ذكيا بنفسه

ولم يكن مثقفاً بعقل وذكاء اذ التثقيف لازم كالذكاء ولكن الذكاء وحده لايجدى ما لم يسترشد بقلب مستقيم وما لم تكن وراءه قوة وشجاعة . فالاداب والحشمة والعيشة الطاهرة والشجاعة والمروءة واحترام الانسان لنفسه كلها صفات أهم في تربية الامم من ذكاء العقول . فاجعلوا هذه الجامعة بحيث تساعد أمتكم على الارتقاء دواما

واحذروا خصوصاً من نقص واحد في التربية الغربية فقد كثر الميل في مدارس الغرب العالية الى تعليم الشبان حتى يكونوا رجال علم وأدب ورجال صناعات وموظفين في وظائف رسمية كأن لاتربية حقيقية غير التربية العلمية ولذلك سررت بانكم شرعتم فى انشاء المدارس الصناعية والزراعية في مصر اذ التربية العلمية نوع واحد من أنواع التربية المختلفة وليس من الحكمة أن يقتصر عليها وحدها سوى جزء قليل من أهل كل بلاد . أما بقية الامة فيجب أن تستبدلها بغيرها وتمرن على أعمال أخرى . ان سمو الخديو في أعماله الكثيرة التي تتناول جميع وجوه العيشة المصرية اظهر حكمة عالية و بعد نظر وأدرك حاجات بلاده بما يظهره من الاهتمام بترقية وتحسين الزرع والضرع

فهذه البلاد كسائر البلدان تحتاج الى عدد معين من الرجال تؤهلهم تربيتهم للانقطاع الى العلم أو التعليم في المدارس أو تقلد مناصب الحكومة . ولكن ليس من مصلحة أي بلاد أن ينصرف الى هذه الامور سوى جزء صغير من ذوى العقول الكبيرة فيها

ويجب أيضاً ترقية الميل الى الصنائع وتمرين الاهالي حتى يحسنوا الزراعة وينبغوا فيها كما ينبغ أمهر المحامين والموظفين وحتى يخرج منهم المهندسون والتجار وأصحاب الأعمال الاخرى التي لا غنى عنها في بلاد متمدنة .

ان وجود سياسي شجاع مستقيم بعيد النظر مفيد في كل بلاد . ولكن فائدته تتوقف خصوصاً على استطاعته التعبير عن مشيئة أمة للسياسي النصيب الاصغر في

قيادتها وللتاجر والزارع والمهندس وأهل الفنون الاخري النصيب الاوفر . كل أمة لا يكون لها من القادة الا الكتبة والساسه والمحامون لم تدرك شأواً يستحق الذكر أساس الحياة الصحيحة في كل بلاد واجتماع انما هو الرجال الذين يعملون الاعمال المختلفة من حراثة وصناعة وتجارة ولا فرق بين أن يشتغلوا بأيديهم أو بعقولهم وخيرا للانسان ان يشتغل برأسه ويديه معاً . فهؤلاء هم الذين يعملون الاهمال الكبرى في حياة المجموع وما المشتغلون بالعلوم والمعارف والسياسة والقانون وموظفو الحكومة سوى مكملين لهم

على ان الامر المهم ان يقوم العمل على الامانة والكفاءة مهما يكن مركز العامل من اكبر كبير الى احقر حقير . وما أقوله هنا على ضفاف النيل هو نفس ما قلته على ضفاف أنهار الهدسون والمسيسبي والكولمبيا

واذكروا دائما انه لا الفرد ولا الشعب يتربيان التربية الجوهرية بمجرد فعل يفعلانه وانما يتربيان بطريقة تتعاقب فيها الافعال كطريقة النمو فانك لا تجعل الانسان متربياً ومتعلما تعلما حقيقيا بمجرد اعطائه دروساً معينة وكذلك لا تجعل أمة صالحة لان تحكم نفسها بنفسها بمجرد اعطائها دستورا على الورق . بل تربية الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً للعمل في العالم يستغرقان أعواما طويلة وهكذا تربية الامة واعدادها حتى تنجح في قضاء واجبات الحكومة الذاتية لا يتاتيان في عشر سنوات أو عشرين بل يلزم لهما اجيال متعاقبة . فان بعض السجالين الجهلاء يزعمون ان مجرد اعطاء دستور على الورق ولا سيما اذا جعلت له مقدمة ترن الفاظها في الاذان يجعل الامة قادرة على الحكم الذاتي . وليس الامر كذلك ابداً فما من انسان في العالم يقدر ان « يعطي » أمة « الحكم الذاتي » كما انه ما من انسان يقدر ان « يعطي » آخر « المساعدة الذاتية » (التعويل على النفس) . فالمثل العربي يقول « قم ياعبدي اقم معك » والطريق الوحيد التي تجدي في مساعدة الفرد هي ان يساعد في مساعدته لنفسه ، وهذا من الامور التي يجب على جامعتكم ان

ترسخه في الاذهان والعبرة هي بالنمو البطيء الذي تنموه اخلاق هـذا الفرد فعلى ذلك المعول في القضية التي نحن بصددها . ومثل الامة مثل الفرد من هذا القبيل فقد راينا امما تقوم وتنجح كثيرا في اميركا الشمالية واميركا الجنوبية وراينا امما اخرى تبتدىء في أحوال مماثلة لاحوال تلك على قدر ما يستطيع شعب ان يجعلها مماثلة لها أي بحرية مثل حريتها اسما وحقوقا وضمانات مثل حقوقها وضماناتها كذلك ولـكنا رأينا مع ذلك انها تفشل اسوأ فشل وتسقط الى الدرك الاسفل من الفساد والفوضى والظلم وذلك لان هـذه الامم التي أعطيت الدستور لم ترتق فيهـا الصفات التي تمكنها وحـدها من الانتفاع بذلك الدستور . فالامر الجوهري الذي يجب على كل أمة ان تظهره ليس هو الاسراع للحصول على سلطة لاأسهل من سوء استعمالها وانما هو ترقية الصفات الـكلية التي يسمو بها الانسان ترقية دائمة مستمرة وان تكن بطيئة كصفات حب العـدل وحب الانصاف والتعويل على النفس والاعتدال . فهذه هي الصفات التي تجعل الامة قادرة على حكم نفسها بنفسها . وانا اعتقادي ان جامعتكم يكون لها اليد الطولى في تربية الامة بهذه الطريقة الطويلة الشاقة اذ هي الطريقة الجوهرية التي لاغنى عنها . لا تنسوا القول المأثور ان الله مع الصابرين اذا صبروا

ومن خصائص هذه الطريقة وجود الروح الذمي يقضي بذم كل شر وكل محرم وكل نوع من أنواع الحسد والبغض وخصوصا البغض المبني على اختلاف في الدين والجنس . فـكل أهل الاصلاح في العـالم وكل الذين يحرص الناس على اعتبارهم واحترامهم في كل أمة قد اعتراهم مالا يوصف من الـكدر والالم بسبب قتل بطرس باشا فقد جنى القاتل على مصر أعظم مما جنى على المقتول .

فان الانسان الذي ينشأ القاتل منه هو الانسان الذي تكون صفاته أبعـد الصفات عن الصفات الممدوحة في أهل الوطن الواحد ـ هو الانسان الذي ينشأ منه الجنـدي الرديء أيام الحرب والوطني الذي هو أردأ منه في ايام السلم . هو

الانسان الذي يجلس على قمة النذالة والعار . ويشاركه في ذلك كل من يحاول الاعتذار عن عمله هذا أو يغضي عنه أو يحرض عليه قبل وقوعه او يدافع عنه بعد وقوعه سواء كان راساً او بالواسطة

ولا فرق في ذلك مطلقاً سوءاء كان القاتل مسلما أو مسيحيا او رجلا لادين له وسواء كانت الجناية قد ارتكبت في خصومة سياسية و منازعة صناعية وسواء كان غنياً قد استأجر عليها او فقيرا قد ارتكبها وسواء كان ارتكابها بحجة المحافظة على النظام أو بحجة الحصول على الحرية . فانها مكروهة على اختلاف اشكالها في عيون جميع المحترمين وعاقبتها وبال على ما يدعي القاتل انه ارتكبها لاجله . ورجائي ان هذه الجامعة تكون في طليعة الذين يوجدون رأياً عاما يقضي من نفسه بحط شأن كل من يصير قاتلا وكل من يدافع عن القتل وكل من يغضي عنه بعد وقوعه

ان جامعتكم جامعة وطنية بهذا الاعتبار لا تعرف عقيدة دون اخرى وهذا كما يجب ان يكون اذ ذكرت المساواة بين المسلم والمسيحي فانما اذكر ذلك على اعتقاد انه حينما يكون المسيحي هو الاقوى فالواجب عليه ان يعامل المسلمين بالعدل والانصاف وكذلك حينما يكون المسلم هو الاقوى فالواجب ان يعامل المسيحي بالعدل والانصاف . ففي بلادنا مسلمون ومسيحيون في بلاد فلبين ولسنا نسمح مطلقا لفريق منهم ان يظلم فريقا آخر والحكومة لا تميز بين فريق وفريق ولا تفرق في العدل بينهما بل تعامل كل انسان كما يستحق بحد ذاته وتسلك معه بحسب ما يقتضيه سلوكه و يستحقه

والخلاصة اني ارجو ايها السادة من المسؤلين منكم عن هذه الجامعة التي نؤمل ان تصير من أعظم واقوى أسباب التعليم والتهذيب في العالم كله ان يشعروا انه يجب عليهم مقابلة كل شر يوجوه باسرة سواء كان ذلك الشر ظلما او رشوة وفساداً او تعديا على القانون وان ينصروا مبادىء العدل والرحمة بين الناس و يؤيدوها بثبات وفطنة وشجاعة عالمين انه لا يمكن لامة التقدم في التمدن المحمود بغير تلك المبادىء اه

على ان هذه الخطبة لم ترق في اعين المهيجين فملأوا صحافتهم طعنا عليه وسبا فيه وألفوا موكبا من الرعاع وتلاميذ المدارس الذين يتركهم غالبا أباؤهم بلا بحث في امرهم وتظاهروا ضد هذا الرئيس الكبير وصاحوا مرارا تحت فندق شبرد الذى كان نازلا فيه ليسقط رزفلت ومن الصدف ان سفير المانيا في الاستانة كان مقيما بهذا الفندق فلما ان رأى تلك المظاهره ووقف على حقيقتها قال « ان امة تتظاهر بهذا المظهر وتشتغل فيها الاحداث والرعاع بالسياسة لهي أمة لا تستحق الا ان تعامل بالشدة لتتهذب اخلاقها » اما المستر رزفلت نفسه فلم يحفل بهذه الصغائر وبرح الديار المصرية واصوات عقلاء الامة تتجاوب أصداؤها من كل مكان « ليحيي رزفلت » فجاءت دليلا بينا على ان مصر الحقيقية تقدر كبار الرجال حقا قدرهم

أقوال المستر روزفلت
في جلد هول بلندن
السودان ومصر
(اخرجوا منها أو احكموها)

السودان — تستحق بلاد السودان نظرة خصوصية يلذ للباحث النظر اليها لانها تقدم أفضل ما يمكن من البراهين الدالة على الحكمة في عدم الاكتراث بتلك النظرية البعيدة عن كل حكمة ورؤية نظرية المتطرفين القاضية بوضع العثرات في سبيل نشر المدنية على ربوع

الهمجية (ضحك واستحسان)

واني أذكر بملء الدهشة كيف كان كثيرون منكم في انكلترا ومنا نحن أيضا في اميركا يتساءلون من ربع قرن مضى ان ما الذي يقصده الانكليز من تلك البلاد هل هم يريدون تدريب اهلها السود على الحكم الذاتي والاستقلال وبمعنى آخر تدريبهم على دستور اساسه ما يريدونه من التعصب الديني والمتاجرة في الرقيق فان المشهور هو ان الغرض الاكبر الذي كان اؤلئك السودانيون يرمون اليه باستقلالهم وحكم أنفسهم بانفسهم لسوء الحظ هو القضاء على كل الاديان الاخرى ما عدا دينهم واتخاذ الحرية التامه في المتاجرة بالعبيد (استحسان وضحك) هذا كل ما يريده القوم من استقلالهم ولا عجب في هذا فانهم لا يستطيعون ان يريدوا اكثر من ذلك. لكن هذا لا يعد نجاحا انما النجاح الحقيقي في ما انتهى اليه حكمكم لتلك البلاد بعد ان دالت منها دولة المهدويه ذلك النجاح المدهش الذي لا اظن مطلقا ان بلدا من بلاد العالم كله نال مثله اذا ننتقل من منتهى الشقاء والفساد الى اصح انواع الحياة القومية ولم يكن ذلك الا في اثنتى عشر سنة فقط منذ دخل تحت حكم السلطة الانكليزية ولا حاجة الى القول ان تلك البلاد السودانية كانت الى ذلك الحين مستقلة وحاكمة نفسها بنفسها فليس كل استقلال ولا كل حكم. فقد كان استقلالها من قبيل استقلال الذئاب فى حظيره واحدة ينحصر همها فى نهش بعضها بعضا والسطو على الغير. لنا في تلك البلاد مثال

حي أي فرق بين استقلال واستقلال فقد كانت وهي ذات حكومة وطنية مستقلة منبع الجرائم الوحشية بشكل فظيع . كانت ظلمة فسادها وجرائمها كثيفة تكاد تلمس باليد فكان ليلها الاسود يكاد يكون سترا لما يرتكب فيه من الفضائح والمنكرات (اسمعوا اسمعوا) فانها في مدة الخمسة عشر عاما التي سارت فيها المهدوية مارست كل شكل من أشكال القسوة والهمجية وكان تعطشها للدماء عظيما فكانت عوامل الفساد والخراب الناخرة في عظامها أعظم من ان يتصوره شعب متمدن. ولا عجب في هذا فقد كان حجر الزاوية في بناء المهدويه مزيجا من التعصب الديني والاستعباد مع نوع من أقسى أنواع القتل فضلا عن القساوة والوحشية . ولهذا لم تنته مدة حكمها المشؤوم حتى كان قد فني ثلثا سكانها على الاقل أو نحو سبعة ملايين الى ثمانية ملايين نفس وذهبوا كلهم ضحايا القتل والظلم والجوع.

بعد هذا جاء الحكم الانكليزي فقضى على ذلك الاستقلال الممقوت والحكومة الذاتية الفاسده . قضى على تلك الحكومة التي طالما أخفت مظالمها تحت ستار الاستقلال فحل النظام محل الفوضى وأمن الناس على انفسهم وما يملكون ونال كل فرد حريته الشخصية واستراح الوطنيون من كل ذبح وفتك بفضل الحكومة الاجنبية (استحسان)

وما كان أصعب على نفسي من يوم رأيت فيه تلك القرى السودانية وقد تمثل امامي أطفالها وصغارها المساكين حين كانوا يقدمون فيها

للذبح على مذبح تلك الحكومة المستقلة الظالمة فمن كان ينجو من القتل منهم لم يكن لينجوا ابدا من الجوع وابناءهم وامهاتهم تحت حكم الموت في كل يوم وكيف يأتوا بعد مرور ١٢ عاما آمنين على نفوسهم واجسادهم متمتعين بافضل حكومة غنية عادلة (استحسان) هذه الحكومة التي يدير دفتها السرداز وموظفوه كبار وصغار بمنتهى الحكمة متقاسمين صعوباتها باذلين مجهوداتهم في الادارة والتهذيب وضبط الامن ممثلين في الادارتين المدنية والحربية أفضل ما يمكن للعالم المتمدن تقديمه من الرجال العاملين . فلا ريب ان من الجناية الكبرى ان لا تبقى ادارة كهذه يسير بها الوطنيون ولا يمكنهم ان يبقوا عليها بأنفسهم بلا قيادة من الغير (استحسان)

وقد قابلت بعضا من الناس يشكون فيما اذا كانت السودان تفي بما يبذل فيها من الجهد والتعب . اما انا فيغلب على ظني ان ذلك في الامكان ولكني أضيف على هذا قولي أنه بات من واجب الانسانية ان تبقى انكلترا فيها فان الامة العظيمة لا تكون امة عظيمة الا بأن تتم واجبها العظيم وقد شعرت بهذه الحقيقة معكم بأزاء السودان شعوري بمثلها معا بأزاء بناما فانه لما آل الينا المشروع المختص بقنال بناما كان بعضهم يأتيني متسائلا ترى هل يفي القنال بما سينفق في سبيله من وقت ومال . أما جوابي فكان ان المشروع عظيم بل من أعظم اعمال الارض ولهذا بات من واجبنا كأمة ان نقضيه بغض النظر عن كل ظرف

آخر وان لا تتردد في اتمام ما ابتدأنا به من هذه الاعمال العظمى وهذا عين ما أشعر به بازائكم في بلاد السودان (استحسان)

حالة مصر

والآن لنطرق باب مصر. فعن مصر لم يكن لمثلي أن يقول فيها قولا لامثالكم ولا لكم أن تسمعوا مني شيئا عنها لولا اني أشعر بان لي فيها كلمة يقضي علي الواجب بان أقولها واني اذا تكلمت عنها الآن فانما أتكلم كانسان نفض يديه من الاعتبارات السياسية الدولية ورأى من واجبه الانساني فقط أن يقول قولا لفائدة الانسانية العمومية وأرجو أن لا يبرح من الذهن اني لا أريد بهذا أن اتداخل في مالا يعنيني من مسائلكم الداخلية ولكني وجدت نفسي في ريب مما اذا كان انشغالكم العظيم بهذه المسائل الداخلية يسمح لكم بمعرفة ما هو بعيد عنكم في الخارج فرأيت أن أقول شيئا عما خبرته فيها بالذات لمحض الصالح الانساني العام ومهما يكن من الامر فارجو أن يسع حلمكم رجلا يخلص فيما يقول ويتمنى كل خير للملكة الانكليزية ثم أنه لا ضرر من سماع أقوال لا يقصد بها غير الرغبة في خير الجنس البشري عامة ورفع راية المدنية الحقيقية ولا سيما اذا كانت من رجل مثلي لا يعد فقط اميريكيا مخلصاً لكم بطبيعة الحال بل راديكيلياً أيضاً بل راديكيلياً حقيقياً يجعل وجهة حياته خير الناس عامة ويثير ما استطاع من كل حرب عوان على كل شدة في الحكم وظلم في المعاملة كيفما وجدت وانيما كانت.

أريد أن أقول ما يتفق على المبادئ التي كنت أعامل بها الفيليبين يوم كنت رئيساً للولايات المتحدة الامريكية

وبعد فانكم لستم فقط خفراء على مصالحكم في مصر بل خفراء على مصلحة المدنية عموما والذي أراه أن المركز الذي آلت اليه مصر اليوم انما هو مركز شديد الخطر على مملكتكم وعلى المدنية معاً. فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفي عام وربما أفضل حكومة رأتها من بدء التاريخ لانه لم يذكر مطلقاً أن الفلاح المصري كان يعامل مثل ما عومل به منذ الاحتلال الانكليزي من العدل والرحمة تحت حكومة خلت من كل فساد وهمجية (استحسان) غير أن الحوادث الأخيرة ولا سيما حادثة مقتل بطرس باشا غالي بما تقدمها وما رافقها وما جاء بعدها من الحركات والنزعات دلت دلالة واضحة على انكم أخطاتم في بعض نقط حيويه بحيث تصنعون حسنا اذا اصلحتموها. وما كان هذا الخطأ لانكم أفدتم المصريين قليلا بل لانكم أفدتموهم كثيراً ولكن مصلحة المدنية تقضي لسوء الحظ علينا جميعاً بان نعامل الشعوب الغير المتمدنة ولا سيما الشعوب المتعصبة معاملة غير مألوفة عندنا متذكرين على الدوام بان معاملة الرفق واللين والضعف في مركز كمركزكم في مصر يضر باكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم (استحسان) وليس بين العصي المرضوضة التي يتوكأ عليها العدل والحق ما هو أضعف ولا أسهل كسراً من عصا اللين (استحسان)

حركة الوطنيين المصريين

هذا وقد أطلقتم الحرية للاديان في مصر وحسنا فعلتم ولكن بدلا من أن يؤول هذا الى شكركم آل الى استخدام معاملتكم الحسنة فرصة لا يجاد حركة تعصب بين الوطنيين ضد الاجانب تلك الحركة التي دلت الحوادث على أن القتل سيكون من مبادئ حزبها القائد لها. وقد كان بطرس باشا أفضل وأقدر موظف، مصري وأرسخ مساعد للاصلاح الانكليزى مع مراعاة خير وطنه اذ كان أفضل عامل على خير مواطنيه وما مقتله في الحقيقة الا لانه كان على هذه الصفات. نعم ماقتل الرجل الا لانه قام بواجباته قياماً حكيما محمودا باستقامة وشجاعة أدبية بلا خوف (استحسان) وقد دلت علاقة القاتل بذلك الحزب المسمى بالحزب الوطني على أن هؤلاء الوطنيين لا يريدون حتى ابسط انواع الحكم الذاتي وان أرادوه لم يستطيعوه الا أن يكون خاليا من كل شئ ما عدا السخافات المهلكة والمجون السخيف (استحسان) على هذه المبادئ التي يعضدها موظفوكم لتدريب المصريين على الحكم الذاتي كما يقولون قامت مساعي أولئك القوم وكلها كما رأيتم لا رغبة في رفع شأن وطنهم ولا لاصلاح أمواله بل لافساح المجال للقتلة المجرمين. لهذا كان أهم واجب على الحكومة المسؤلة في مصر أن تعيد النظام الى ما كان عليه وان تسرع الى ما يجعل نهاية لهذه الرواية المحزنة

عدل الاحتلال الانكليزي

ومعلوم أن احتلالكم لمصر كان منذ ٢٨ عاما ولا يزال مقصوداً به تقرير العدل وحفظ النظام .وعلى هذا المبدأ حسب الاحتلال عادلا. والآن أما أن يكون لكم الحق في احتلالكم مصر أو ليس لكم هذا الحق وأما انه من واجبكم حفظ النظام هناك أوانه ليس من واجبكم. فاذا كنتم تشعرون بان لاحق لكم في احتلال مصر ولا في حفظ نظامها فارحلوا منها .وأما اذا كنتم كما أرجو تشعرون بان واجبكم في تمدين الجنس البشرى والجري على تقاليدكم القديمة العظيمة يقضي عليكم بالبقاء فعليكم أن تتموا هذا الواجب كما يجب مبرهنين على استعدادكم لعمل كل ما من بشأنه أتمامه .واذا كنتم ترغبون في البقاء لتقرير العدل والنظام فاعملوا على تقرير مبادئهما ولا يكون هذ الا بتغيير ما تجرون عليه الآن من سياسة اللين فان واجب العدل وحفظ النظام يقضي بالاسراع في قصاص القاتل والذين يعضدونه مباشرة وغير مباشرة بكيفية ظاهرة.ولاريب أن كل شعب يرى القتل ذريعة الى الحصول على الحكم الذاتي لهو أقل الشعوب استحقاقا للحكومة الذاتية (استحسان) وأخيراً فانكم موجودون في مصر لاسباب كثيرة من أهمها مراعاة خير المصريين وقد أنقذتموهم من الخراب والدمار ولكنهم اذا لم يستمروا تحت احكام الغير عادوا الى ما كانوا فيه. ولهذا فلا بد لمصر أن تحكمها أمة أخرى.وانا آمل واعتقد بانكم تبرهنون بانه بات من واجبكم أن

تكونوا هذه الامة (استحسان) اهـ .

وقد أيدت صحف المحافظين والاحرار في انكلترا ماذهب اليه المستر رزفلت حتى ان المستر روبرتسن نفسه الذي كان عضد المهيجين في مصر تنصل منهم واعترف بجنونهم . ولقد حدثت منا قشات هامة في مجلس النواب الانكليزي عقب تلك الخطب . كان مدارها على حالة مصر وما ستصير اليه بعد الجناية الكبرى واليك تفصيل تلك المناقشات

(مصر في البرلمان)

فتح المستر برد أحد الاعضاء باب المناقشة بقوله انه لم يتعرض الى الان للسر الدن غورست في ما تعلق بمصر ولا يجد مسوغا لمثل هذا التعرض لانه لايعلم مبلغ العلاقة بين سياسته في مصر متي لم تسفر عن النجاح المطلوب والاوامر الصادرة اليه من وزارة الخارجية الانكليزية ولكن مما لا مشاحة فيه أنه بدأ يجرب انموذجا مشوشا مضطربا كان من نتائجه قتل رئيس الوزرة المصرية وقيام فئة من طلاب المدارس بسبب معتمد الحكومة الانكليزية في وجهه على محطة مصر

السر ادوار جراي ـ لا صحة لهذا على الاطلاق

المستر برد ـ يسرني جدا ان أسمع ذلك ولكني أطلب مع هذا من الحكومة ان تغير السياسة الحاضرة في مصر تغييرا فعالا وتستنبط طريقة جديدة تكفي لحفظ الثقة المتبادلة بين الانكليز والديار المصرية

المستر روبرتسن ـ ان المستر روزفلت من بلاد قتل فيها ثلاثة

من رؤساء الجمهورية في مدة لا تزيد عن نصف قرن ولكن هل أخذ هذا دليلا على عجز الحكومة الاميركية حينذعن ضبط النظام كما قال جنابه في خطبته وكما يريد حضرة العضو المحترم ان يقول وهل افترنت تلك الجرائم هناك لان الحكومة الاميريكيةمنحت الشعب منحا كثيرة كما قال عن مصر . لقد تغالى حضرة العضو المحترم في قسم كبيرمن أقواله المضطربةالمفككة الاجزاء ... (الاعتراض من جانب النظام)

الرئيس ـ ارجو ان لا يعود المستر روبرتسن الى استعمال الفاظ سيئة مؤلمة كهذه .

المستر روبرتسن ـ اذا كنتم ترون لفظة « مضطربة » التي قلتها تعبيرا سيئا مؤلما فاني أؤكد لكم بانى لن أعود اليها

الرئيس ـ أرى ذلك ياحضرة العضو المحترم فان هذه اللفظة ترمي على ما اظن الى الرغبة في الايلام

المستر روبرتسن ـ اما انا فلا اظنها اشد ايلاما وتجريحا من التعبيرات الكثيرة التى صدرت عن المستر برد ولكني مع هذا لا أرى مندوحة من احترام النظام على أني لا استطيع السكوت قبل ان اطلب العمل على تسهيل الوسائط العلمية في الديارة المصرية فان ذلك وحده كفيل بحفظ نظامها بعد أن اصبحت مبادىء الوطنيين جنونا وعثرة في سبيل الاصلاح .

السير كرياك ـ ان الفلاحين في مصر لم تعوزهم تلك الوسائط ولا هي ضرورية لهم ومع هذا فقد نفذت الحكومة مافي وسعها لنشر التعليم وهذا يسرني جدا وان لم اكن على يقين من سيره على النسق الاوروبى

المستر لويد ـ كفما كان الامر فالذي أرجوه هو ان نعلم الحزب الوطني في مصر باننا لا نسمح ابدابان تكون مناهضته للموظفين مخربه للعمل المجيد الذي اقمنا على بنائه هناك من ربع قرن

المستر جريتون ـ لقد شجعت الحكومة جماعة المهيجين في مصر باطلاقها السراح لصحافتهم ذلك مع شعورها بان حرية كهذه مطلقة تعطى لصحافة تعبر عن آراء شعب كالشعب المصري انما تؤول بلا محالة الى طامة كبرى وليست مصر الا مركز من اهم مراكز العقيدة الاسلامية فهي جديرة حتما بان تكون مركز التعصب لهذا لم يكن بد من وضع المسألة الدينية في مصر موضع نظرنا الدائم وقد بات من الضروري ان يشعر كل ساكن في مصر بان الكلمة الفاصلة هناك انما هي لمعتمد انكلترا وحده حتى في ما تعلق بداخلية البلاد نفسها وبان القوانين المصرية يجب ان تصان بالقوة الانكليزية

المستر وود ـ لقد ثبت ان الدعوى القاضية بأن البشر متساوون في كل مكان وزمان دعوى سخيفة باطله لا تؤيدها نظرية علمية على الاطلاق . فاذا اقمنا في شعب غير راق وجب ان تكون مساعينا موجهة

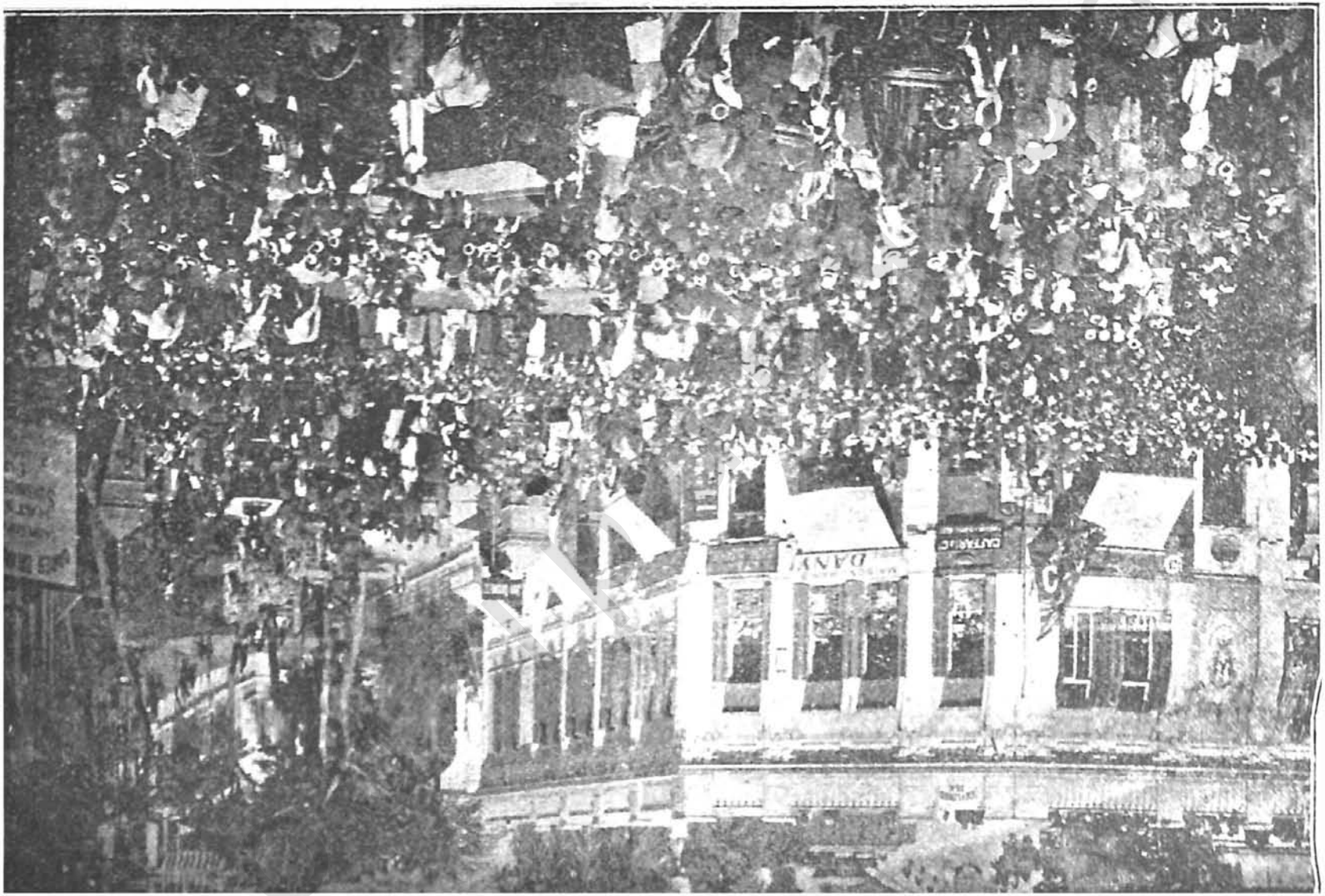

بنوع خاص الى صيانة الحقوق المختصة بالشعوب الراقية الممتزجة به لا ان نعلق هذه الحقوق على مشيئة ذلك الشعب ونجعلها تحت رحمة التجارب التي نعملها لترقية البلاد وتأهيله لحكم نفسه بنفسه ولا سيما اذا لم يكن الغرض البقاء معه على الدوام . والذي أراه هو ان تشجيعها لمثل هذه الشعوب الثانوية في طريق الحكم الذاتي مع أطفال السياسة لا يؤول الى جلب المصائب على رؤوس الموظفين الذين تحت امرتنا فقط بل الى ما هو أعظم من ذلك ايضا وهو اذلال الاجناس الراقية وتعريضها لاشد الاخطار بازاء تلك الشعوب .

ثم قال وعندي انه لا يوجد شبه بين مقتل المرحوم بطرس باشا رئيس نظار مصر ومقتل مكنلي رئيس جمهورية امريكا أو مقتل قيصر روسيا فان العالم المتمدن يعتبر مقتل رئيس جمهورية امريكا او قيصر روسيا عملا مفردا شاذا . واما رئيس نظار مصر فهو احد اعراض القلق العام السائد على تلك البلاد وهذا هو وجه الاهمية فيه .

المستر لنكلن (من المتطرفين) اهزأ بالتعليم القاضي بمعاملة الشرقيين معاملة تختلف عن معاملة غيرهم من بني الانسان لان السيد المسيح كان شرقيا ولم يعطنا نسقا جديدا في معاملة الشرقيين ومع هذا كله فالذي أراه هو ان استمرار وزارة الخارجية الانكليزية على اظهار الرغبة في منح البلاد المصرية حكومة ذاتية خطوة بعد خطوة فانه قد بات من الواجب ان تعلن مصر صريحا بأنها لا تنتظر منا الجلاء

عن مصر » فان اعلانا كهذا يقطع كل امل لمصر في الجلاء فيدعوها الى السكوت

خطاب المستر بلفور زعيم المحافظين

ثم وقف المستر بلفور المشهور وقال : لم يقل المستر روزفلت قولا واحدا ضد انكلترا يغضب له أشد الانكليز تطرفا في حب انكلترا. ولا اكاد أصدق ان المستر روبرتسن يرى ان الحكم الذي ينفع مصر في بلاد راقية كانكلترا ينفع في بلاد كمصر. نحن نعرف مصر ونعرف من تاريخها أكثر مما نعرفه من اي تاريخ اخر. ونعترف بانها بلغت في المدنية شأواً بعيداً بينما كانت بلادنا هذه تتخبط في ظلمات الهمجية. ولكن مما لا ريب فيه هو انها مع بلوغها ذلك الشأو البعيد فانها ككل بلاد شرقية أخرى محكومة بحكومات مستبدة مطلقة وفي ظل هذه الحكومات أينعت وبنت مدنيتها . ولم تظهر البلاد الشرقية كفاءة على الاطلاق في الحكم الذاتي بينما تجد البلاد الغربية من اول عهدها بالارتقاء اظهرت فعلا كل استحقاق لذلك. انظر الى الشرق في كل تاريخه فلا تجد فيه أثراً للحكومة الذاتية انظر اليه في كل أدواره الراقية وقرونه المتطاولة فلا تجد فيه أثراً لذلك ولا لما يشبهه. وقد توالت نصراته في حروبه وتعاقبت دوله الراقية وغير الراقية وهو على هذه الحال لم ينكر مطلقاً في ما كانت الشعوب الغربية تفكر فيه فطرة عند أول أدوار ارتقائها (استحسان) فهذا هو الواقع وهو لا يتوقف على ارتقاء أو انحطاط بمعنى

أن الشرق لم ينل حكومة ذاتية ولن يصلح لها سواء كان مرتقياً أو منحطاً

وبعد أن وضح ذلك بكلام طويل وفند دعاوي المستر روبرتسن ومن جري مجراه في حكم الشعوب الشرقية قال ما مؤداه بالاختصار: أن شعباً كالشعب المصري لم يتقدم من نفسه في سبيل الحكومة الذاتية خطوة واحدة في مدة ثلاثة آلاف سنة الى خمسة آلاف سنة فليس بغريب أن لا ننفع فيه وسائط الحكم الانكليزي الموجهة الى ذلك في مدة ٣٠ عاما . ومع هذا فان مصر نالت على يد هذا الحكم الانكليزي ما لم تنله من أرقى أنواع الحكومات . والاختبار يؤيد ذلك فلا يسع أحد انكاره. ذلك الاختبار الذي دل على ان حكمنا في تلك البلاد لم يفد الوطنيين فقط بل أفاد العالم اجمع كله . ولا حاجة الى القول اننا لم نوجد في مصر لفائدة المصريين فقط وان كنا أفدناهم ونفيدهم أيضا بل لافادة أوروبا كلها

هذا وقد أرسلنا الى تلك البلاد كثيرين من نخبة ابنائنا وقد وجدوا في ظروف صعبة مملوءة بالواجبات الشاقة فجدير بنا أن نشد أزرهم ونعطف عليهم ونظهر لهم أن في بلادهم من يقدر أعمالهم قدرها ويساعدهم على القيام باعبائها. أن الموظف الانكليزي قد يوجد هناك بين عشرات الالوف من مختلفي الاجناس والاديان والعوائد والاخلاق فليس أقل من العطف عليه وشد أزره ليشعر بانه ليس مهمل من

الذين يقدرون الاعمال قدرها. وقل من زار مصر وعرف شيئا من أحوالها الا قال ان الحالة هناك لا ترضي أحدا وفي اعتقادي أن الحكومة قادرة على اصلاح هذه الحالة.

خطاب السير جراي

ثم قام السير ادوارد جراي فقال: كنت افكر قبل وقوف العضو المكرم بلفور ان اشتكي من سلوك بعض النواب في هذه المناقشة او ان انتقد سلوكهم فيها حيث جعلوا التحزب وضيق الصدر مدار كلامهم على ما ارى. ولذلك لم تبلغ المناقشة بوجه الاجمال شأنا رفيعا لاحتوائها على أوصاف ونعوت منهم مجردة وجهت الى الحكومة بلا ادنى تثبت من صحتها ولكني اعترف بان خطبة جناب العضو المكرم (بلفور) بلغت من جلالة الشأن غاية ما يرام وفي الجوهر غاية ما يحتاج كل عقل مفكر الى الاستعانة به على حمل القضية المعروضة الان على هذه البلاد. فليس عندي كلمة اسف ابديها على شيء قاله في خطبته بل اني ساتوخى رفع خطبتي الى منزلة خطبته ما استطعت الى ذلك سبيلا وكذلك في ردي على بعض الامور التي وقعت المجادلة فيها

سرني امر واحد في هذه المناقشة وهو انه لم يحمل أحد فيها على السير الدن غورست فقد رأيت في جريدة اوجزيدتين حملات عليه غير صادقات نخلوها من كل أساس وأنصاف وصحة (استحسان) فان كان المراد من تلك الحملات الطعن على السياسة فالواجب ان يكون الطعن على سياسة الحكومة (وزارة الاحرار) وان كان المراد استحسان السياسة بالذات واستهجان عدم النجاح في تنفيذها فالواجب الطعن على الحكومة أيضاً في البرلمان لا على موظفيها الذين ينفذون سياستها (اسمعوا اسمعوا) اذ البرلمان لا يعلم ابدا اين يقول الموظف لحكومته الان يجب يعمل كذا وكذا لتنفيذ سياستك وأخراج فكرتك من القول الى الفعل

أما من جهة حالة مصر الان فاقول انه ان كان المراد ذم السياسة بالذات فليعلم ان تلك السياسة هي سياسة الحكومة وانها هي التي امرت السير الدن غورست بتنفيذها ولا أقدر على غير ذلك ولا ابرع منه فيه

وقبل ان انتقل الى الكلام عن مسألة السياسة بالذات اذكر امرا اخر فقد انتقد بعضهم خطبة المستر روزفلت وقال النائب عن رجبي (بيرد) اقوالا عن انتقاد روزفلت لم تخطر لي ببال قبل سماعها منه فقد قال ان المستر روزفلت لم يكن ليخطب تلك الخطبة لو لم يكن ابلغ اراءه للحكومة البريطانية قبل ذلك وانه وان كان ذلك قد حصل فليس من العدل كتمانه عن الجمهور فانا استنتج من هذا القول ان التأثير الذي وقع في نفس قائله وفي نفس غيره أيضا هو انه ان كان المستر روزفلت قد خطب خطبته من غير أن يطلع الحكومة البريطانية على آراءه فيها فقد جنى على بلاد أكرمت مثواه في عدم مجاملته لها . ان كان هذا قصد حضرة النائب المكرم فانى دفعا لذلك الوهم أقول صريحا ان المستر روزفلت ابلغني آراءه عما القيه في اسفاره في الاراضي البريطانية بافريقية وأخبرني بارائه في ما شاهده في شرق أفريقيا والسودان ومصر وكنت أصغي الى ذلك بسرور يندر نظيره (استحسان)

ولو قلت له ان مجاهرتك بالامور التي كنت اعلم انه عازم على المجاهرة بها تلقيني في الارتباك لكنت لا اشك في انه يمتنع عن المجاهرة بها ولكني لم أر فيها شيئا يوجب الارتباك (اسمعوا اسمعوا) فلم اطلب عدم اذاعة شيء للجمهور بل سمعته يلقيها في دار البلدية بمعنى ما قالها لي واصغيت الى خطبته بمزيد اللذة (استحسان) ولكن اظن اولا ان قصد الصداقة والمودة فيها لا يخفى على احد (اسمعوا اسمعوا) وثانيا أن الخطبة كانت بجملتها أعظم مدح مدح به ابن بلد من البلدان عمل أهل بلاد أخرى (استحسان) ولكن لم يشر أحد الليلة الى ما قيل فى تلك الخطبة عن شرق أفريقيا وأوغندا والسودان ولا أدري لماذا أغفل ذكر ما قيل من البلدان في الكلام الذي يقال الان .

أما مصر فقد علمت لما سمعت الخطبة أن قوما سيحولون أقساما منها لمحاربة حزبهم ولكن ذلك لا يهم «ضحك» ما دام جوهر الخطبة صحيحا فقد تضمنت أولا اننا عملنا في مصر أحسن الاعمال التي عملت فيها من أول عهد الناس بالتاريخ وتضمنت ثانيا رأيا بان زيادة حلمنا اورقتنا في معاملته الذين يعارضون الاحتلال البريطاني في مصر القت عملنا هذا في الاخطار وتضمنت ثالثا اننا في مصر بمثابة الامناء المقامين من قبل الامة المصرية ومن قبل الامم الاجنبية التي لها مصالح في مصر وانه لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن نحافظ على النظام فيها فان لم نفعل ذلك فبقاؤنا بها عبث . وتضمنت رابعا انه اذا لم تحكم مصر امة خارجة عنها عادت مصر تتمرغ في حمأة الفوضى وان روزفلت يرجو ويعتقد اننا نحن نقوم بعمل تلك الامة . فليس في هذه الامور الاربعة امر واحد لا اوافق عليه حتى ولا امر عدم زيادة الحلم في معاملة المعارضين للاحتلال .

ان حالة مصر الآن قد أوجبت النظر اليها بمزيد الاهتمام لكنها ليست بقدر ما أوهم بعض الخطباء « المعارضين » هنا من الخطر فليس في مصر اليوم ما يوجب القلق ولكن ظهرت عليها اعراض وعلامات شغلت البال وحولت اليها انتباه الحكومة والذين ينفذون سياستها هنا . فقتل رئيس النظار كانت حادثة مفردة ولكنه كان مما يستوجب مزيد الاهتمام وليس عندي اكثر مما قاله السير الدون غورست في تقريره عن الذين يجب ان تلقى عليهم مسؤولية قتله ولا غرابة في ماقيل من الانتقاد عن طول المدة التي مضت على عقاب القاتل بعد ما القى القبض عليه ويده مصبوغة بدم المقتول ولكن ليس في ذلك ما يؤاخذ به القضاة الذين نظروا قضيته لانه كان يلزمهم ان يبحثوا ليعرفوا ما اذا كان هناك اشخاص آخرون يسألون عن تلك الجناية غير الشخص الذي ارتكبها فعلا . ثم ان اجراءات القانون المصري المبني أصلا على القانون الفرنسوي تقتضي مدة مضي الاستئناف ونحو ذلك من الاجراءات التي جرت في هذه الجناية كما جرت في غيرها عادة على أني اشعر مع ذلك انه اذا

حدثت جناية من هذا القبيل وضبط الجاني ويده حمراء من أثر الجناية وعلم كما سيعلم في المستقبل ان الجناية وقعت على موظف مصري بدعوى انه ينفذ سياسة الحكومة الانكليزيه ويتمم مقاصدها في مصر فنحن مسؤولون ويلزمنا ما دمنا محتلين لمصر أن نظهر لسوانا انه يجب علينا أن نستعمل قوتنا لحماية الموظفين المصريين الذين يديرون مصر بمشاورتنا والذين هم ملزمون أن يقبلوا نصيحتنا حتى لا تصيبهم جنايات مثل هذه الجناية (استحسان من المحافظين) وقد كنت في هذين الاسبوعين أشاور السر ألدن غورست في التدابير التي يمكن اتخاذها لجعل العقوبة تتلو الجناية حالا بحسب الاجراءات القانونية والا تتولى نحن أمرها بانفسنا نظرا الى كوننا نحن المسؤولين عن حماية حكومة مصر ونجعل جيش الاحتلال يقضي في هذه الجنايات (استحسان) أما من جهة مسؤولية الجناية فلست اقول عنها سوى أن سير القانون فيها كان بطيئا ولكن القضاة حكموا حكمهم فيها والحكم سينفذ بعد ما يتم سير الاجراءات القانونية .

أما من جهة أحوال مصر العمومية فقد قل اعتراف القوم بالتقدم الذي تقدمته بعد ذهاب السر ألدن غورست اليها كما زاد وصفهم للحالة التي نحن بصددها بسواد أشد مما يقتضيه الواقع . فقد ذكر بعضهم القانون والنظام وقال نائب منهم اننا أخفقنا في ادارتنا الاحكام بمصر كل الاخفاق .

وهنا ذكر الخطيب تحسين حالة الامن العام وتقليل الجنايات بعد قانون النفي الاداري وذكر حسن أحوال السودان ومدح السردار ورجاله مدحا عظيما قائلا أنهم يستحقون أعظم مدح وثقة على تذليلهم الصعوبات واتمامهم عملهم مع قلة وسائطهم وعلى الهمة التي يبذلونها في قضاء وظائفهم . والآن نأتي الى سياستنا العمومية فقد قيل اننا قوضنا أركان كل سلطتنا في مصر ولو صح هذا القول لكان خطبا عظيما ولكني لا اسلم بصحته . على ان توهم صحته يستوجب محوه عن الاوهام لانه مصيبة بذاته فسياستنا لم تكن السبب في شيء من ذلك ولكني مع ذلك

أشرحها لهذا المجلس فاقول اننا سعينا أولا في السنوات الثلاث الاخيرة أن نزيد دخل النظار والموظفين المصريين في حكومة بلادهم فاننا من حين احتلالنا مصر الى الان ونحن ندربهم في صناعة الحكم فيقتضي طبعا ان نزيد الاعتماد عليهم في الحكومة على مر الايام . وقد خطا اللورد كرومر خطوة من هذا القبيل بتعيين زغلول باشا ويحتمل ان اللورد كرومر يرى الان بعد ترك مصر اننا عجلنا كثيرا من هذه الجهة ولكن السعي في ذلك ليس بدعة جديدة منا على كل حال ولا يصح أن يقال انه قوض أركان سلطتنا في مصر

ثم اننا سعينا ثانيا ان نبتدئ ببناء الحكومة المحلية من اساسه بتوسيع اختصاص مجالس المديريات ولم يمض عليها بعد ذلك زمن طويل فلا يتيسر الحكم منذ الان في ما اذا كان نجاحها ممكنا ولكني ارى ان هذه الخطوة التي خطوناها في محلها وقد اظهر السير الدن غورست براعته ودرايته فيها ومن الصواب اذا شئنا تدريب أهل مصر على تحمل المسؤولية أن نبدأ بتدريبهم على امور محلياتهم ومدرياتهم وذلك لا يمكن أن يحدث اضطرابا في مصر .

ويجب علينا ثالثا ان نزيد اعتمادنا في الامور على مجلس الشورى فهو والجمعية العمومية جزآن من النظام الدستوري في مصر ومن الصواب زيادة الاعتماد عليهما وقد سألنا بعض النواب مسائل عن امور جزئية كالصحة والنظافة والامور الادارية الجزئية فنظارة الخارجية والقنصل الجنرال في مصر يسألان عن السياسة العمومية وعن متانة المالية المصرية وصحتها وعن كون السياسة العمومية على ما يرام ولكن اذا كلفا الاهتمام بالامور الجزئية التي يسأل عنها في هذا المجلس احيانا اهملا الامور الاهم كالسياسة العمومية وصحة المالية.

ولكن يقول قائل اذا كانا هما لا يستطيعان ذلك فلماذا لا يعين له مجلس عمومي يسأل دواوين الحكومة ومصالحها عن المسائل المختصة بها وهذا ما جرى بزيادة الاعتماد على مجلس الشورى من هذا القبيل وقد وصفه السير الدون غورست

في تقريره السنوي فلا اطيل الكلام عنه وانما أقول ان ذلك لا يوجب اتهامنا باحداث الاضطراب في مصر .

على ان عندي انذارا عظيما عن مصر وتحذيراً مهما فنحن مسؤلون عن ادارة الاحكام فيها ونحن نديرها بواسطة نظار مصريين ومستشارين بريطانيين ولكنا مسؤلون عنها اجمالا وعن السياسة العمومية ولذلك يلزم النظار أن يقبلوا نصيحتنا ولو تفاوتت مراتب المسؤولية من حين الى حين وفي مسائل خصوصية لان شكل الحكومة المصرية شكل شاذ عن القياس وقد اضطررنا اليه بقوة الظروف الناتجة عن احتلالنا الخارج عن القياس ايضا . ففي ذلك مشقة عظيمة وهو يقضي براعة زائدة في دقة التصرف وحسن السلوك والا ساءت عاقبته. فلا يمكن والحالة هذه ان هذا النظام يقضي العمل المطلوب منه على ما يرام ان كان كلما أظهر النظار المصريون احتراما لنصيحتنا واتباعا لخطة الحكمة والسياسة الرشيدة ـ أما في الحقيقة أو في الظاهر ـ تقوم عليهم جرائد الحزب الوطني ويقوم عليهم قوم من الوطنيين في مصر ويحسبون ذلك منهم جناية تستحق الذم والتشهير ويسلقونهم بالسنة حداد لانه اذا دام الامر على هذا المنوال كان دوام الحكومة ضربا من المحال .

ثم انه لا يمكن استعمال مجلس الشورى والجمعية العمومية لاصلاح امور الحكومة المصرية اذا اظهر من الميل شبه ما اظهرا اخيرا الى ان يصيرا آلة لما يسمى بالحركة الوطنية الموجهة ضد الاحتلال وانما يسمى بالحركة الوطنية لانها محصورة في قوم ليسوا من اهم الاقوام في مصر ولا اتصال لهم باهل مصر الذين هم خارج المدن المصرية وغاية معظم تلك الحركة الوطنية ابطال الاحتلال بجعلهم قضاء مهمتنا في مصر أمرا غير ميسور (اسمعوا اسمعوا) فهم يفعلون ذلك بالتطاول على الموظفين الانكليز في مصر وبشتم كل مصري لا يعارض المراقبة البريطانية وبالتحريض على الاخلال بالنظام كلما سنحت لهم فرصة لذلك فالنتيجة التي استنتجتها من ذلك هي

انه لا يمكننا ان نرقي حكومة مصر على يد المصريين اذا دام ذلك التحريض

وختم خطبته بقوله ومن الضروري أيضا تغيير حقوق المعاهدات القديمة بما يجعلها عصرية ويجب ان يستمر الاحتلال البريطاني وقد اصبح ترك مصر الان بالاسقوط مستحيلا عن كل زمان اخر .

ولا يوجد ما يبرر الالتجاء الى طرق غير مألوفة بالرغم عن وجود علامات مقلقة وقد هدأ الهياج أثناء الاسابيع الاخيرة ولكن الانذار الجدي كان ضروريا فاذا ما استمرت الظواهر الحالية وجهت الحكومة البريطانية اول عنايتها نحو تأييد سلطتها وكبح جماح المتهيجين .

في مجلس اللوردة

أما مجلس اللوردة الانكليزي فقد جعل بحثه عقب الحادث على حالة القوات الانكليزية في البحر الابيض المتوسط والقطر المصري مؤملا ان توجه الحكومة الانكليزية اهتمامها الى هذه النقطة حتى لا يكون هناك باعث على زيادة القلق في الديار المصرية

وكل هذه التصريحات دلت على تقدير العالم المتمدن لفضل فقيد مصر العظيم بطرس باشا غالي وعلى انه أعظم خسارة خسرتها مصر وعطلت مستقبلها واستقلالها وصيرت الاحتلال باقيا الى ما شاء الله . ولو ثبت للمتمدنين ان الجناية فردية لما وجدوا سبيلا واحدا الى تشويه سمعة مصر كل هذا التشويه ولكان حكمهم فيها حكمهم في كل حادثة حدثت من نوعها في أوروبا وأمريكا ومع ان الصحف الوطنية علمت بخطارة هذا البرهان والضرر من تأييده فأكثرت من اقامة الادلة على عدم صحته معلنة بانه لم يشترك أحد في الجناية ولا هي قوبلت بالاستحسان لتفند بذلك ما قاله المستر بيرد أحد أعضاء مجلس النواب الانكليزي وكل صحافة أوروبا من مشرقها الى مغربها ولكن استحسان وريقات الحزب الوطني المتمصر للجريمة وامتداحها للمجرم الاثيم وتلقيبه بالافندي و بشهيد الوطن والوطنية ونحو هذا مما يعرفه

الجميع دل أولئك الرجال الذين يراقبون على مصر ودل كل أمة متمدنة لها في مصر مصالح ورعايا على انها صورة صريحة لما يجول فى عقول وافكار المصريين وبناء عليه أصدروا حكمهم هذا المشهور

الحادث والقضاء

٩

نقل المجرم الاثيم عقب ارتكاب جريمته الشنعاء مكبلا بالقيود الحديديه الى سجن عابدين حيث أخذ في التحقيق معه حسين رشدى باشا ناظر الحقانية والسير مكاريث المستشار القضائي وعبد الخالق ثروت باشا النائب العمومي واحمد فتحي باشا زغلول وكيل الحقانية ورجال البوليس فادعى أن أسباب قتله للمرحوم بطرس باشا غالي هو لانه وقع على اتفاقية السودان وترأس على محكمة نشواي وأصدر قانون المطبوعات وانه كان عازما على ارتكاب جريمته من اسبوع ولم يدفعه اليها أحد ولا شاور فيها صديقا الا ان التحقيق الدقيق أثبت انه رئيس جمعية سرية غرضها قلب نظام الحكومة فالقى القبض على أعضائها وزجوا في السجن كما زج بعض من لهم علاقة بهم وممن كانوا يمدونهم بالمال وفتشت منازل دعاة الوطنية فوجدت فيها خطابات وصور شتى تدل على الصلات الحبية الشديدة بينهم وبين المجرم وان خلت من ظروف واقعة الحال

نعم ان الامة اسفت اسفا شديدا الان البوليس اهمل في تفتيش منازل

دعاة الوطنية عند وقوع الحادث على اعتقاد منها انهم ربما حرقوا أو هربوا بعض أوراق مهمة تدل على اشتراكهم في الحادث أو في أمور أخرى لقلب نظام الحكومة ولكن لو فرض وفتشت تلك المنازل في الوقت المعين فقد لا يمكن أن يوجد فيها أكثر مما وجد لان من يدبر جريمة كبرى كهذه مثلا لا بد وأن يكون قد اتخذ التحوطات اللازمة للمحافظة على نفسه خصوصاً اذا كان ممن يعتقد أن الوطنية هي مقاومة وقتل الذين يخدمون بلادهم بامانة واخلاص . ومع ذلك كله فيمكننا القول أن الهمة التي بذلها رجال البوليس والنيابة في تلك الحادثه مما يذكر بالثناء العظيم ويدل على أن المحققين الوطنيين أظهروا منتهى الاخلاص وشدة التدقيق في التحقيق.

وقد جرت هذه الحادثة الى السجن نحو ٣٠ شخصاً بعضهم من كبار المتطرفين والمتهورين وتلاميذ المدارس الذين يشتغلون في السياسة ويظنون أن مقاومة الانكليز والاجانب هو الطريق الوحيد الموصل الى استقلال مصر ورفع شأنها. واذا كان هذا الاعتقاد الفاسد هو منتهى الطياشة فان وجود تلك الفئة بين الامة المصرية سواء كانت من ابنائها أو تنتسب اليها بالقوة تتعلم وتترقى على ايدي الاجانب ثم تجازيهم على حسناتهم بالطعن لهو منتهى العقوق والكفران بالنعمة.

على أن وجود نوع من هذا الفريق القصير العقل قد لا يجب أن يتخذ دليلا على كل الامة التي تعطي كل ذي حق حقه وتحفظ في صدورها

الجميل لكل من يمد اليهايد التمدين والحضارة.

وبعد فانرجع الى ما كنا نبحث فيه فنقول أن سجن هؤلاء المتهمين أدي الى تخوف محتكري الوطنيـة فانكمشوا مذعورين وأخذ بعضهم يتجسس الاخبار عما تم في التحقيق وعما سيحصل وكلهم بين واضع يده على قلبه وبين منقلب على أعمال الحزب ناقم على متطرفيه الثائرين حتى انتهى التحقيق وأحال ثمانيـة مع المجرم على قاضي الاحالة فعاد الى محتكري الوطنية روعهم وأكثروا من النعيق والصياح شأن كل جبان اذا خلا بنفسه طلب الطعن وحده والنزال

نظر قاضي الاحالة في هذه القضية فبرأ الثمانية واحال المجرم الاثيم على المحاكمة. ولما كان بعض أولئك المبرائين من موظفي الحكومة وتلاميذ المدارس رأت الحكومة ان تطردهم من خدمتها ومن مدارسها وعليه اجتمع مجلس النظار في يوم الخميس ١٦ ابريل سنة ١٩١٠ وقرر ما يأتي:

حيث ان التهم الموجهة الى المتهمين ليست من الجرائم المقررة في قانون العقوبات وانها بناء على ذلك لا تستوجب توقيع العقوبة القضائية الا انها لا تخليهم من المسئولية والمؤاخذة

وحيث أنه قد ثبت من التحقيق ومن الاوراق المعروضة على المجلس أن هؤلاء المتهمين انتظموا في سلك جمعية الغرض منها أحداث قلاقل سياسية في القطر وان هذه الجمعية لم تتردد في اتخاذ القوة وسيلة لتنفيذ اغراضها ولو أدت الى ارتكاب الجنايات كما يتضح ذلك من الخطابات التي ضبطت عند أحدهم فانها ترمي بصريح العبارة الى شراء الاسلحة وارسالها الى مصر برسم أعضاء الجمعية والى التمرن على استعمال

الديناميت والمواد السامة

وحيث ان الحكومة يحق لها مثل كل انسان أن تطلب من مستخدميها الاخلاص التام في خدمتها

وحيث انه ليس من المسلم ان تستمر الحكومة على دفع المرتبات لاشخاص في خدمتها لم يكتفوا باتخاذ خطة معادية لها بل يسعون ايضاً لاحداث المشاكل لها وتكدير الامن العام

وحيث ان مثل هذه التصرفات من قبل الموظفين تخالف على خط مستقيم ما يرتبطون به بطبيعة الحال عند طلبهم الاستخدام وقبولهم من التعهد بالقيام بواجب الخدمة بكل استقامة وامانة

وحيث ان نظارة الاشغال العمومية في وسعها اجراء ما يلزم مباشرة فيما يتعلق بالمهندسين الاثنين المستخدمين أحدهما بصفة ظهورات والاخر تحت التجربة

وحيث انه لم يبق لمجلس النظار سوى النظر في أمر المهندس الاخير فقد قرر ناء على الوقائع الثابته الموضحة أنفا فصله من الخدمة

***

واصدرت نظارة المعارف العمومية بعد موافقة مجلس النظار ايضاً قرارا برفت اربعة من التلاميذ الذين كانوا من ضمن هذه الجمعية اثنان منهم من مدرسة الحقوق وواحد من المهندسخانة وآخر من الطب كما رفتت طالباً خامساً كان من ضمن ارساليتها العلمية في لندن حيث اتضحت علاقته بهذه الجمعية . وقد اشفعت هذا القرار بحرمانهم من الامتحانات العمومية مدة سنتين كاملتين

على ان هذه القرارات زادت تطير الحزب الوطني فأخذ ينادي و يصيح على الامة بان تمديد المساعدة للذين نكبهم هو في مستقبلهم معتقداً أن عملهم هذا شورى دستوري فلم تحفل الامة بندائه وايقنت ان التسليم بتلك المبادىء السخيفة التي ينشرها انما هو بمثابة حرمان لها من الهدوء والسكينة وما يتاوهما من الرقي والعمران

محاكمة المجرم الاثيم

عقدت جلسة الجناية الكبرى في محكمة الاستئناف الاهلية يوم الخميس ٢١ ابريل سنة ١٩١٠ لمحاكمة المجرم الاثيم قاتل فقيد الامة المصرية. وقد عطلت الحكومة جلسات هذه المحكمة ومحكمة مصر الاهلية في ذلك اليوم كما حشدت جنودها على طول الطريق الموصل اليها منعا للازدحام. وفي الساعة التاسعة والدقيقة ١٠ فتحت الجلسة برئاسة المسيو دلبروغلو وعضوية امين بك علي وعبد الحميد بك رضا وبحضور محمد افندي توفيق كاتب الجلسة وجلس على كرسي النيابة عبد الخالق باشا ثروت النائب العمومي. وقد حضر عن المتهم ثلاثة من المحامين كما حضر ابراهيم باشا نجيب محافظ العاصمة وجلس خلف القضاة

اما المجرم الاثيم فلم يؤت به الا في الساعة التاسعة والدقيقة ١٥ محاطا بثلة من الجند ولما ادخل الى مكان المتهمين شخص اليه رئيس الحزب الوطني (ساكن السجن اليوم) مبتسما فابتسم له. وبعد ان تلا كاتب الجلسة قرار قاضي الاحالة وطلبت النيابة محاكمة المتهم بمقتضى المادة ١٩٤ سمعت المحكمة شهادة شهود النفي والاثبات وعددهم ٣٧ شخصا ثم سألت المحامين عما اذا كانوا متمسكين بمعارضتهم في شهادة الاطباء والذين باشروا العملية واستحضرتهم النيابة على انهم شهود اثبات فاجابوا نعم وعندها اصدرت المحكمة قرارا تمهيديا بعد المداولة انتدبت فيه لجنة من الاطباء يكون من ماموريتها وضع تقرير تبين فيه اذا كانت الجروح الناشئة

عن الاصابة كانت فى ذاتها مميتة بدون دخل للعملية أو كان يمكن للمصاب ان يعيش بدونها أو اجريت مع الاحتياطات اللازمة . وقد وضع الاطباء تقريرهم بعد درس المسالة ورفعوه الى هيئة المحكمة التي عادت فعقدت في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٢ مايو الماضي وبعد ان اعلن افتتاحها وقف سعادة عبد الخالق باشا ثروت النائب العمومي وترافع في القضية ثم ختم مرافعته القانونية بما يأتى

لم يبق لنا في هذا الموضوع الا ان نشرح لحضراتكم الادوار التي تقلب عليها الورداني من بدء التفكر في الجناية الى وقت تنفيذها ليظهر لحضراتكم كيف ان الورداني رسم طريق جنايته رسما محكما — بين لنا الورداني فى اليوم الاول من استجوابه ادوار تصميمه على اغتياله لبطرس باشا فقال اعتقدت خيانة بطرس باشا لوطنه مثذ اتفاقية السودان وما زالت الحوادث تزيد هذا الاعتقاد رسوخا فى ذهني الى ان كانت مسألة القناة فتأكدت عندي خيانته وفكرت انى لواقتله لخلصت البلاد منه ولكني لم اصمم على قتله الا منذ اسبوع تقريبا ومنذ يومين عزمت عزما على تنفيذ هذا التصميم وذلك عند ماقرأت في جريد الاخبار ان بطرس باشا سحب محاضر الجمعية لاني أستنتجت من ذلك انه يريد تغيير ما هو ثابت في هذه المحاضر من الاقوال فاصررت على هذا العزم الى ان كانت ليلة السبت فقررت فيها انفاذه في صباح الغد وقد كان وتوجهت الى نظارة الحقانية وتربصت له الى حين خرج ولكن قواي خانتنى فلم اقدر فرجعت الى منزلي ثم عدت ثاني يوم فقتلته — أتعلمون يا حضرات القضاة لم تأخر انفاذ هذا العزم طول هذه المدة ولم يقطع في الامر ولم بقى هذا الخاطر يتردد في فكره ولم يصدر قضاءه الاخير على حياة هذا الرجل العظيم طول هذه المدة

الجواب على ذلك نجدونه يا حضرات القضاة بين كلمات هذين التلغرافين وفي طيات حروفهما

كلمات هذا التلغراف «بالاسف غير منظور» كان القضاء الاخير على حياة بطرس باشا ولا بد لنا من كشف هذا السر من ذكر شيء عن تاريخ حياة الجاني

دخل الورداني مدارس مصر صغيرا والعقل في سنه غض قابل للتعلم فلم يحصل على شيء من بالرغم عن تنقله من مدرسة الى اخرى ومن تخير أهله له لوسط والوسط فلما يئس أهله منه عولوا على ارسالة الي اوروبا على امل ان تغير الوسط من اصله قد يصلح من هذا الفكر السقيم والعقل الضئيل ارسلوه الى أوروبا ولم يختاروا له الا صناعة الصيدلية وحسبه انه ما وثق به أهلوه في طروق باب غير ذلك الفن. أرسلوه ولكن يالالأسف الى بلد غاب عنهم انه بؤرة الفوضوية ومرتع المجرمين من أشياعها

غفلوا عن ذلك وأخطأوا في اختيار الوسط فارسلوه الى هذا البلد حيث وجدت من نفسه تلك المبادئ الوحشية المبيدة نفسا خالية من مبادئ العلوم التي تربي الفضيلة في النفس فتحول بينها و بين الرذائل والاثام فكانت تربته صالحة لتأصلها ونموها . أرسلوه الى لوزان وفيها بالطبع النفوس العالية والارواح الراقية كما ان فيها طبائع الخبث والرجس فلم يتعرف الا نفوساً خبيثة ولم يألف الا أرواحا مرذولة .

أرسلوه ليستنير بنور العلم و يستضيء بضياء الانسانية فعاد وعلى عقله غبرة الجهل والوحشية . وعاد ولم يحو صدره الا تلك المبادئ الفاسدة الكاسدة مبادئ الفوضوية هذا هو باحضرات القضاة الدور الاول من حياة الورداني . بدأه غبياً ختمه فوضويا أثيما . ذهب ليستعد لخدمة الوطن فلما عاد كان سهماً في صدره وسلاحا ماضياً فى نحره .

نحن لا نكيل للمتهم القول جزافا ولا نتهمه بما ليس فيه فما كشف لنا عن

حقيقته في هذا الدور من حياته الا الصق الناس به وأشفقهم عليه عمه وأساتذته وأحب الاصدقاء اليه على سري التلميذ بجامعة لوزان (راجع أقوال عمه صحيفة نمرة ٢٢٧ وما بعدها من الجزء الثالث من التحقيق راجع محضر الجلسة فيما يتعلق بشهادة أساتذته والخطاب المرسل من على سري الى الورداني صحيفة ٣٠٦ من الجزء الرابع وأقوال الورداني فيما يتعلق بالوسط الذي عاش فيه) عاد الورداني الى مصر صفر اليدين الا من الشرور والمفاسد عاطلا لا يملك وسيلة للكسب فاعتمد على الكذب فى دفع تلك المعره عن نفسه أمام عمه الذي كفله صغيراً ورباه يتيما فافهمه انه حصل على شهادة صيدلية ولكن عمه شك في صدقه فطلب منه أن يطلعه عليها فأوهمه انها ستصله بعد أيام . مضت أيام على ذلك وأعاد عمه الكرة عليه في طلب الاطلاع على الشهادة فلما رأى نفسه قد وقع ولا مناص في أكذوبته أراد أن يتخلص منها فلم ير أشرف له من التظاهر بالتأثر من عدم الثقة بكلامه فأظهر الاستياء من هذا الالحاح تبريراً لعدم اطلاع عمه علي الشهادة مدعياً ان هذا الطلب من عمه يفيد تشكيكه وارتيابه في صحة أقواله ومثله من لا يقبل ذلك على نفسه ولكن هذه الالعوبة الصبيانية لم تدخل على عمه وصمم على عدم مديد المساعدة اليه الا اذا تحقق حصوله على الشهادة . مضى عليه وهو في مصر شهور وأيام وعمه منصرف عنه غير راض عن سيره الى ان حمله ضيق ذات اليد على أن يرجع الى عمه يستعطفه و يستعينه ولكنه كان موقناً ان عمه لا يساعده الا اذ حصل على الشهادة فركن الى تأكيد كذبه بحيلة يصعب على السذج افتضاحها . ذلك انه حصل على تصريح بفتح أجزخانة أطلق عليها اسمه ليغرر بعمه و يوهمه بأنه حصل على الشهادة ثم توسل اليه بوساطة صديق له فكتب هذا الصديق الى الدكتور ظيفل يستعطفه على ابن أخيه و يرجو منه امداده بالمساعدة ليكمل أجزخانته التي شرع في انشائها و يؤيد كذبه انه حصل على الشهادة ولكن حيلة مثل هذه لم تجز على رجل من أهل الفن مثل الدكتور ظيفل فانه استكشف الحقيقة فتبين له ان التصريح بفتح الاجزخانة انما

اعطي للوردانى بصفته مالكا ليس الا وانه قدم صيدليا آخر حائزاً للشهادة القانونية فلما تبين للدكتور حقيقة الامر رفض المساعدة

مما يؤسف له ياحضرات القضاة ان الوردانى أصر على كذبه هذا حتى في أشد المواقف تأثيراً على النفوس وحيث لا حاجة اليه . كان يؤكد لنا في التحقيق انه حائز لدبلوم الصيدلية بعد امتحان أداه واستندفي ذلك على شهادة بالانجليزية ضبطت بمنزله الا انا تبينا بعد ذلك بواسطة ذوي المعرفةبهذهالشهادات انها ليست الا شهادة من مدرسة أهلية بانجلترا لا تفيد سوى ان حاملها حضر بعض دروس في علم الكيمياء . كانالورداني يعلم ذلك وانها ليست بدبلوم ولذلك لم يقدمها الى مصلحة الصحة ولكن كان يكذب علينا ظناً منهباننا لا يمكننا أن نعرف قيمة تلك الشهادات (راجع أقواله صحيفة ٤ جزء أول) . في تلك الفترة أي ما بين عودته الى مصر في أوائل سنة ١٩٠٩ وافتتاحه الاجزخانة في نوفمبر من هذه السنة كان الوردانى خالياً من كل عمل فانصرف بكليته الى الاشتغال بالمسائل العمومية والسياسية

نحن لا نقول ذلك نتأخذه على الوردانى منقصة نلومه عليها ونعيذ المصريين منها بل نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العمومية ويرى ان السعي بالطرق المشروعة فيما ترقي به البلاد وأهلها من فروض العين على المصريوان كل مصري مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وهمته على خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس في احتمال اشق المشقات في اعلاء اسم « مصر » وزيادة شرفها ورفعتها . كذلك نرى من مرقيات الامم الدارجة في رقيها النظر في أعمال القابضين على أزمة الامور فيها ونقدها . ولكنا ياحضرات القضاة لا نسلم بحال من الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الا رجل جمع الى العلم الغزير الحكمة البالغة والرزانة في القول والفعل حتى يقدر الاعمال قدرها وينظر في الامور بفكر صحيح فلا يتعدى فى خدمة قومه ووطنه حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة الخير شراً « وعدو عاقل خير من صديق جاهل »

فما ذلك الرجل في الحقيقة الا شريك الحاكم في قيادة الامةوعونه على الامر العظيم الذي هو متوليه

فما بال الوردانى يغلو فى قدر نفسه فيضعها فى ذلك المكان العظيم والمركز السامي وقد نسي نفسه ما هي . انسي انه عجز عن تحصيل مباديء العلوم الاولية الضرورية للكسب والارتزاق

ذلك ياحضرات القضاة ما لا نرضاه بحال . فتح الوردانى اجزخانة فى شهر نوفمبر وأخذ يشتغل بما يكسبه العيش ولكن فكراً سقيما وعقلا سخيفاً قلما يستقيم لصاحبه حال أو ينجح له عمل كذلك أخذت تجارته فى الكساد وأخذت حالته تزداد تعاسة لتراكم الديون عليه وعدم امكانه حتى دفع أجور عمال الاجزخانة فتركوه وتركوا أيضا ما لهم عليه من الديون لتيقنهم انه مستحيل عليه دفعها واستعاضوا الله فيها خيراً .

ولتقفوا الى ما وصلت حال الوردانى من الضنك أستسمحكم في تلاوة خطاب أرسله العامل الذي كان معه بالاجزخانة الى شخص من أصدقائه (وهنا تلا الخطاب)

لا أزيد هذا الجواب شرحا ولا أعلق عليه بشيء من عنديآتي فهو وحده كاف في بيان حالة الوردانى واخلاقه التي شب عليها

ثقلت ديونه وتشعبت حتى ناء تحتها وكان اينما قلب وجهه صادفه دائن وحيثما سار كان كاسف البال قليل الرجاء في انصلاح الحال كثير التفكير في شؤونه عديد المشغولية بها ففكر في ان يشرك معه في الاجزاخانة شركاء فى شركة مالية كان هو أمينا لصندوقها ليكون له بذلك مخلص من مطالبتهم له بما دفعوه اليه من الاموال ومورد يستعين به على قضاء ديونه

عرض عليهم الامر بالفعل (راجع صحيفة نمرة ٣٠٠ جزء رابع) ولكن حبط هذا السعي

عمد بعد ذلك الى عمه فلم يجد منه معينا (راجع أقوال عمه صحيفة نمرة ٢٣٠)

فكان هذا الفشل ضغثا على اباله . هنالك خارت عزيمته وشعر باليأس على اثر كل تلك الصدمات . كان الورداني في هذا الضيق والاضطراب وبين يدي الحكومة بالاسف مشروع عظيم

قدمت ياحضرات القضاء أن الورداني قد بلغ منه الغرور مبلغا جعله يعتقد في نفسه الكفاءة والقدرة على الحكم في أصعب الامور وحل أعقد المشكلات فكان يظن في نفسه تلك الموهبة السامية والمقدرة العالية للحكم على مثل هذا المشروع فما أسرعه الى الحكم بان بطرس باشا خائن لوطنه ساع في قبول هذا المشروع عند ذلك هبت في نفسه عواصف الفوضوية وخطر له ذلك الخاطر وهو قتل المرحوم بطرس باشا . خطر له ذلك الخاطر المشؤوم وهو حائر يرجو مخرجا من ضائقته يرى المستقبل مظلما ظلاما حالكا فارتاحت نفسه الى هذه الفكرة الشريرة انها تخلصه هو أيضاً من حياة ثقلت عليه . لذلك صمم من ذلك الحين على ارتكاب جنايته وأخذ يتأهب لارتكابها وابتدأت عزيمته تظهر باعمال خارجة ومن ذلك دفع سلاحه الذي قتل به لاجد بائعي الاسلحة لتصليحه والتمرين (انظر شهادة عباس حسني) وارساله هذا التلغراف للحضرة الفخيمة الخديوية بعد عودتها من الاقطار الحجازية في ذلك العهد يرجح تصميمه على ارتكاب جنايته

صمم على تلك الفكرة ولكنه أجل تنفيذها وأستمر يسعى ليجد مخلصا من شدته المالية حتى اهتدى الى صديق لوالده قديم هو عبد الباقى افندي من أهالي سنورس المتراسل هو معه بالتلغرافين المذكورين وظن انه منقذه من تلك الورطة .... بارقة أمل (راجع أقواله في ذلك صحيفة نمرة ٩٦ من الجزء الثانى) وفي الواقع قرر فجأة صباح يوم ٧ فبراير أن يسافر اليه وأراد ان يخبر بسفره من في الاجزاخانة فلم يجد أحدا بها في تلك الساعة فسافر ولما بلغ الواسطى أرسل تلغرافا يخبرهم فيه بانه (اليوم على سفر) وقابل عبد الباقى افندي علي غير سابقة وعد أو لقاء من قبل قريب (راجع أقوال عبد الباقي افندي في ذلك صحيفة نمرة ٢١١

من الجزء الثالث) ورجاه وهو في غاية الخجل منه ان يحصل له على سلفه عرض ان يرهن من اجلها حصة له في منزل كانت هي البقية الباقية من حطام الدنيا فاخذت عبد الباقي افندي الشفقة عليه ووعده النظر في ذلك فكان هذا الوعد له باب الرجاء الوحيد وتحقيقه المخلص المنقذ من ضائقته التي وقع فيها

بعد هذا الوعد كان الوردانى كريشة في مهب الريح اذا ما طوحت به الشدة في مضيق اليأس أخرجته منه كلمات صديق والده ولذلك لم ينفذ الورداني جنايته بعد جلسة الجمعية العمومية تلك الجلسة التي يقول انه تولاه الانفعال العصبي فيها على اثر مناقشة المرحوم بطرس باشا غالي مع الاعضاء لانه لم يكن مضى على مقابلته لعبد الباقى افندي سوى أربعة أيام وكان أمله لا يزال معقودا بتحقيق وعده ومازال على هذا الحال الى يوم ١٥ فبراير سنة ٩١٠ فأراد أن يعرف منه نهائيا هل من مخرج من ضائقته فأرسل التلغراف الاول هل تم شيء وطلب منه الرد تلغرافياً وجاءه الرد سلبا لم يتم شيء . هنالك رجح اليأس الامل وفي صباح يوم ١٦ من الشهر المذكور قرأ في جريدة الاخبار خبر سحب بطرس باشا لمحاضر لجنة الجمعية العمومية اذ ذاك عزم على تنفيذ نية القتل ولكن بعد ان استوثق من انه لا أمل له بالمرة في عقد تلك السلفة التي كان يسعى في الحصول عليها اي حين جاءه في غروب ذلك اليوم رد التلغراف الذي أرسله الى عبدالباقي افندي بعد قراءة جريدة الاخبار يسأله فيه ان كان هناك أمل في اتمام السلفة وطلب أن يكون الرد تلغرافيا فكانت ساعة وصول هذا الرد هي الساعة التي قرر حقيقة فيها ارتكاب الجناية واخذ يستعد فيها لارتكابها وهذا هو تفسير قوله لنا اجابة على سؤال وجهناه اليه عقب ارتكاب الجناية (ان نية القتل صممت عليها منذ يومين) صحيفة نمرة ٢)

هذا هو بيان الادوار التي تقلب عليها الورداني في تصميمه على أرتكاب جنايته فهل يمكن ان يقال بعد ذلك ان الورداني فعل ما فعل وهو تحت تأثير تهيج

شديد لم يكن له على نفسه معه سلطان . كلا أن الورداني ارتكب جنايته وهو بكامل قواه العقلية بعد أن تعاقبت الايام والليالي على تصميمه على أرتكابها وعلى التأثير الذي قيل بانه تولاه في جلسة الجمعية العمومية . ارتكبها بعد ان فكر فيها كل التفكير وتروى فيها كل التروي وقلبها على كل وجه وحسب لها الف حساب

ان الورداني بجنايته قد عمد الى خرق حرمة القوانين السماوية والبشرية عمد الى قتل النفس التي حرم الله قتلها . عمد الى ازهاق روح بريئة من غير ذنب عمد الى حرمان انسان من أقدس حق له في هذه الدنيا . عمد الى حرمان عيلة من معيلها وأمة من رجلها وحكومة من رئيسها . عمد واطاع هواه وأطلق رصاصاته فماذا جرى ؟

جرى انه اثكل مصر رجلا من خير ابنائها . رجلا جمع بين العلم والتجربة فقبر وقبرت معه تلك الصفات العالية . دوت تلك الرصاصات في طول البلاد وعرضها فبعد أن ادمت القلوب واحزنت النفوس وقعت وأسفاه بين صفوف الامة فشطرتها شقين عقلاء الامة من مسلمين وقبط شق يبكي الفقيد لانه فقيد الكل على السواء . و بسطاء القبط شق اخر يضرب على نغمة يشفق منها كل محب للبلاد راغب حقيقة في خيرها كأن الفقيد فقيدهم دون سواهم

بلاء عظيم وشر مستطير و و يل و يل اذا تناجزت العناصر وتنافرت قلوبهم وتفرقوا وحق على المجموع الشقاء والخراب وسوء المنقلب

و ياليت المصاب من هذا القبيل وقف عند حد البلاء الداخلي بل انتهز الفرصة بعض من لا يحب الخير لمصر واذاعوا عنها في الخارج شيئا اساء سمعتها ولطخ شهرتها ومثلها في الاقطار بعدم الهدوء والطمأنينة وبلداً هائجا مائجا على انها لم تكن قط احوج الى حسن السمعة منها في الظروف التي هي فيها الان

فانظروا ياحضرات القضاة كم اساء الورداني بجنايته الى هذا البلد الامين

الاسيف فماذا جنت عليه مصر ولماذا هو يضرها كل هذا الضرر لعله يدلى بخدمة الوطن

أن الوطنية التي يدعي الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبراء من مثل هذا المنكر

ان الوطنية الصحيحة لا تحل في قلب ملأته مباديء تستحل اغتيال النفس ان مثل هذه المبادىء مقوضة لكل اجتماع

وماذا تكون حال أمة اذا كانت حياة أولي الامر فيها رهينة حكم متهوس يتخم ليله فيضطرب نومه وتكثر هو اجسه فيصبح صباحه ويحمل سلاحه ثم يغشاهم في دار اعمالهم فيسقيهم كأس المنون . ثم اذا سئل في ذلك تبجح وقال انما أخدم وطني لاني أعتقد أن من قتلتهم خائنون للبلاد مضرون بها . فتبا لتلك المباديء وسحقا لها كيف يقوم للنظام قائمة مع تلك المبادىء الفاسدة

ان مبادىء كل اجتماع ان لا ينال انسان جزاء على عمل مهما كان هذا الجزاء صغيرا الا عن يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية و بعد ان يتمكن من الدفاع عن نفسه حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة التي وضع لها من حماية الاجتماع

فاذا كان هذا هو الشأن في أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال فما بالك بجزاء هو ازهاق الروح والحرمان من الحياة

تلك مبادىء لا وجود لمجتمع الا بها ولا سعادة له بدونها فالطمأنينة على المال والنفس هي أساس العمران ومن الدعائم التي ادعم علمها في كل زمان ومكان ولكن الورداني له مذهب آخر في الاجتماع فهو يضع نفسه موضع الحكم على اعمال الرجال فما ارتضاه منها كان هو النافع ومالم يرتضه كان هو الضار و يريد أيضا ان يكون القاضي الذي يقدر الجزاء ثم يقضي به من غير معقب ولا راد

كل ذلك والامر لم يتعد ارجاء صدره ولا يعلم ذلك المسكين الذي سينصب عليه هذا القضاء انه على قيد شبر من الموت جزاء له على جناية لم يسأل عنها ولم يعلم

من أمرها شيئاً

ان مثل هذا الحق لا يمكن ان يكون الا الله سبحانه وتعالى المطلع على السرائر العليم بالنيات ومع ذلك فانه جل شأنه شرع الحساب قبل العقاب . ثم ان هـذا الحق لم يتطلع اليه أحد من العالمين حتى الانبياء أنفسهم وقد اجمعت الشرائع كافة على عصمتهم من الزلل والخطأ ولـكن الورداني يريد ان يضع نفسه فوق كل الدرجات المتصورة فحاكم وحكم وقتل

اني لترتعد فرائصي اذا تصورت منظر البلاد وقد فشا فيها البلاء الاكبر بفشو تلك المبادىء الفوضوية

ماذا يريد الورداني ؟ ايريد ان لا يكون حكم ولا حاكم . ايريد ان تكون الفوضى بعد ايريد النظام . خرابا ودمارا عاجلين

هذه يا حضرات القضاة الغاية التي استحل الورداني من اجلها قتل النفوس ليصل بوطنه اليها خدمة له ومحبة فيه

هذه هي الغاية التي ظنها شفيعا لديكم وسبباً لتعطفكم عليه وشفعتكم

ان جناية الورداني لاشد ضررا الف مرة من جناية كل مجرم قاتل أو سارق أو قاطع طريق فان هؤلاء جناياتهم فردية وجناية الورداني على أمته ووطنه وهؤلاء يمكن الاحتراس منهم وتوقي أضرارهم وهو يأخذ الناس في مأمنهم غيلة وعلى غرة منهم وما لهم منه من واق

ان كان الورداني أراد بفعلته أن يخدم بلاده فلقد ساء طريقه الى هذه الخدمة ان كان أراد ان يحميها فقد صدع كيانها صدعا وأضر بها ضررا بالغا بتلطخه صحيفتها بالدماء وقد كان أمامه لخدمتها طريق بل طرق مشروعة

كان في وسعه ان يحارب خصمه بغير ذلك السلاح القاتل فان كان على حق خرج من هذا النضال بطلا شريفاً سائراً به وبنفسه الى خدمة الوطن لا ان يلقي اليه بتلك الرصاصات ليذهب به الى عدم يسير اليه اليوم قاتلا اثيما

بئست المباديء مبادئه ولعنة الله عليها باسم الانسانية التي انتهك حرمتها والحرية التي خرق سياجها والوطن الذى جنى عليه

☆☆☆

ياحضرات القضاة

الآن بيدكم الامر وان هي الا كلمة تخرج من أفواهكم لا تسألون عنها الا أمام ضمائركم وأمام الله سبحانه وتعالى وبها تبددون ظلمات أحاطت بالبلاد وبها تستأصلون جرثومة خبيثة يخشى منها على عقول النشء وأنا علي يقين من انكم ستجيبون صوت الحق والعدل والانسانية وهو يستصرخكم لما أصابها من جراء هذه الجناية الفظيعة فتحكموا بالاعدام على هذا الجاني» اهـ.

ثم ترافع المحامون الثلاثة عن المجرم فتكلم اولهم عن سبق الاصرار وحالة المجرم العصبية ونظرية الجرائم السياسية وثانيهم في سبب الوفاة وتقرير الاطباء وفي المسؤولية الناتجة عن ذلك وثالثهم عن الظروف المخففة وبعده رفعت الجلسة على ان تعود الى الانعقاد في صباح يوم ١٨ مايو للنطق بالحكم.

النطق بالحكم

في الساعة التاسعة من صباح يوم ١٨ مايو سنة ٩١٠ عقدت الجلسة للنطق بالحكم وجيء بالمتهم محاطا بالجنود ثم تلا الرئيس الحكم ونصه:

«حيث ان ان التهمة المبينة بالمادة ١٩٤ من قانون العقوبات ثابتة على المتهم وبعد اخذ رأي مفتي الديار المصرية حكمت المحكمة على ابراهيم

ناصف الوردانى بالاعدام شنقا »

ولما ان سمع المجرم الاثيم هذا الحكم امتقع لونه وظهرت عليه علامات الذهول والاضطراب الشديد ثم أخذوا الى السجن وتفرقت الجموع وكلها مطمئنة لهذا الحكم العادل الا حزب الثورة فقد تلقاه بالحزن والاسف ورأى أن حيله قد فرغت في الدفاع عن قاتل من اعضائه فعمد الى حض بعض الرعاع لطلب العفو عنه من الجناب العالي الا أن سموه قابل تلك المساعي بالسخط الشديد واصدر امره الكريم بان لا ترفع على مسامعه أوراق أو عرائض تشمل شيئا من تلك السخافات كما رفضت المحكمة النقض والابرام الذى رفع اليها في القضية ودحضته نقطة نقطة

اخر ليالي المجرم

قضى ذلك المجرم الاثيم لياليه الاخيرة عقب الحكم عليه بالاعدام ناقما على حزب الثورة الذي ورطه في جريمة ستودعه القبر وهو في ريعان شبابه وكان كلما وخزه ضميره مما ارتكب ومما جلبه على البلاد والامة من المصائب يهز رأسه ويقول نعم ان النتيجة كانت بطالة وان كل ما سمعته عن بطرس باشا لم يكن صحيحا بالمرة ولكني فعلت ما فعلت عن تسرع وقلة تروٍ ولو كنت حينئذ كما انا الآن من الصحو والسكون لما كنت ارتكبت ما ارتكبت والظاهر ان جريمته الشنعاء ازدادت تصور امام عينيه فاخذ يسأل مامور السجن يوميا متى يكون التنفيذ

مظهرا التضجر من التأخير كأنه غير مبال بالموت بل راغب فيه ليستريح من حياة اشقاها فاشقته فلما تقرر يوم اعدامه قيل له استعد لان الحكم سينفذ صباح الغد فظهرت عليه علامات الاضطراب الملازمة لخفوق الفؤاد وقال غداً فقيل له نعم غداً فقال « طيب » وانزوى في غرفته وقضى ليلته مضطربا تارة يمشي وتارة يجلس واحيانا تدركه سنة من النوم فلا تكاد أجفانه تغمض حتى يستيقظ مجفلا كأنه حلم حلما مرعبا واونة يهجس فيسمع صوته وهو يردد عبارات وجملا كمن يقصد ان يحفظها عن ظهر قلبه .

يوم الاعدام

قضى المجرم ليله على ما وصفنا وفي الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٨ يونيو سنة ٩١٠ منعت محافظة العاصمة كل من يدخل دارها من الخروج منها كما صفت فرقة من البوليس بالسلاح الكامل في الجوانب المحيطة بالسجن وفي الساعة السادسة دخل الى السجن حكمدار العاصمة هرفي باشا ووكيل محافظتها علي بك صديق والاطباء ومامور الضبط وبعض ماموري أقسام البوليس ومن ثم دخلوا الى الغرفة السوداء والمخصصة لاعدام المجرمين حيث جيء بالقاتل اليها يصحبه عشماوي الجلاد وبعد ان تلي عليه الحكم القاضي باعدامه ونطق بالشهادة ملتفتا أشير الى الجلاد بانفاذ الاعدام فادار اللوالب وعلى الاثر هوى ذلك الشقي لا حراك به ولسان حاله يقول هذه عاقبة كل قاتل شرير أثيم .

وفي الساعة السابعة الا ربع وضعت جثته في نقالة يسوقها حوذي بجلابية زرقاء ويسير امامها احد المخبرين السريين الى المدافن حيث دفن فيها في الساعة السابعة ونصف.

ولما ذاع نبأ اعدامه بين الناس اطمأنت خواطرهم بقدر ما انزعج حزب المتهيجين وأخذ يكتب الرسائل الطويلة لتهييج العامة وليثبت ان القاتل مات شهيدا لتياجر باسمه كما تاجر بحادثة دنشواي وجمع من الامة حوالي الاربعة آلاف جنيه لشيد بها كتابا للدنشويين ثم انفقها على ملاهيه وتنزهاته في حانات مونتمارتر واندية مونت كارلو

وقد راعى الامة ما ينشره هذا الحزب من الرسائل المهيجة فكتبت جريدة المؤيد تحت عنوان التهور والجبن ما يأتي:

ما زالت جريدة الحزب الوطني تنعت الورداني منذ ارتكب جنايته بنعوت الاحترام التي منها حضرة (ابراهيم افندي الوردانى) ولم تترك هذا النعت له الا يوم انفذ عليه حكم الاعدام فقالت (ابراهيم ناصف الورداني)

فتساءل الناس عن هذا العدول مع ان الرجل مجرم منذ قتل الى ان عدم ولم توجد ساعة اولى بالانعطاف عليه منها من ساعة اعدامه فلم هذا العدول.

والجواب على هذا ان مكاتب التيمس قد اخذ من جملة ما آخذ عليه حزب التهور والتطرف في مصر تلقيب القاتل بلقب افندي (وهذا

من القاب الاحترام) وقد نشرت موآخذته هذه في رسالته الثانية قبل الاعدام بيوم.

فلم يكن من جريدة الحزب الا ان نفضت اردانها من هذه التهمة بان كتبت عبارة التنفيذ تحت عنوان الورداني بحروف كبيرة وجردت اسمه بعد ذلك من القاب حضرة وافندي وكذلك التهور ينتهي دائما بالجبن والتهور جبان في النهاية .

وبهذه المناسبة ننصح جريدة الحزب ان تسد الباب الذي فتحته في عدد اليوم تحت عنوان (حول التنفيذ) لتنقل فيه كل ما يقال هنا وهناك لغرض المتاجرة بموت الورداني كما تاجروا بحياته .

فليست حادثة الورداني كحادثة دنشواي يسوغ للمتاجرين بالوطنية ان يستثمروها كل حين بدعوى انهم يذكرون الام الوطن ومصائبه والله يعلم انهم كانوا اشد مصائبه ونوائبه وكل ما كسبه الوطن بجهاد العقلاء اضاعه صحف المشاغبين المتهورين .

* * *

ولست في حاجة لان أوضح أكثر مما أوضحت في الفصول السابقة حالة البلاد وما صارت اليه عقب اصطدام الحادثين العظيمين فيها حادث مقتل وزير مصر العظيم وحادث القنال وما استدعته من ثوران الافكار وتهيجات بعض المتمصرين الذين يعيشون في مصر فساداً ويتخذون الدين سلاحا للعيش والتفريق بين العناصر الوطنية.

على أن السياسة الرشيدة التي أتبعها الوزير الخطير سعيد باشا الذي أخلف المرحوم بطرس باشا قد قضت على كل اضطراب من هذا القبيل وأعادت الهدوء والسكينة الى البلاد والاخاء والوئام الى العنصرين الوطنيين بل أحيت على نوع ما الهيئة الاجتماعية المصرية بعد أن أورثها الحادثان الضعف وسلباها الراحة والسلام

* * *

جناز السنه لفقيد مصر العظيم

غدا تقف الامة موقف الحزين المروع على نابغتها المفرد العلم بل غدا تقف موقف اليأس لفقد أعظم رجل من بنيها بل موقف الشاعر بخسارة رجل في أمة وأمة في رجل

غدا تخرج مصر بابنائها الى مقر عظيمها الخالد لتحييه بقلوبها . وتتوج ضريحه بزهورها وترطب مثواه بدموعها بل لتحيي النبوغ في رأس رجل كان كله عقلا وفي صدر وزير كان كله حكمة

غدا ترتفع الاصوات من معابد الله الى عرش الله مستمطرة على جدث عظيم عرف العالم بدهائه ونبوغه انه توجد أمة مصرية وروح مصرية من السلالة المصرية

غدا يدب الحزن في النفوس دبيب المنايا في الصدور فيخفق له كل قلب ويرتجف من هوله الهرمان هرم العدل وهرم الزمان هذا يحفظ في صدره الى الذرية صورة الراحل الكريم ليقول لها هذه هدية ابيك لك وذاك يحفظ صورة الجريمة ليقول لها هذه صورة مصر القديمة هذا صنيع أشرارها من بنيك فالعنيهم كما لعنتهم من قبل وانزلي عليهم صواعق النقمة كما انزلتها على رؤوسهم ليكونوا عبرة الاولين وعظة لآخرين

غدا يزدحم الخلق السائر حول ضريح عظيم مصر فيذكر رجلا كان كبيراً في مبدئه كبيرا في قلبه . كبيرا في كل مواهبه . ذهب وما برح حيا . ومات وما زال موضع اعجاب الامم من مشرق الارض الى مغربها

بل غدا يحيط بضريحك أيها الخالد الاثر امة ما ازدحمت مثلها أمة حول ضريح رعمسيس وقبر الاسكندر . ويبكي لفقدك شعب ما عرف كيف يكون البكاء الا عليك يبكيك يا احكم الوزراء لانك علمته كيف تكون الحياة بعد الموت . وكيف ينال المجد وتسمو الرفعة على السماكين . علمته كيف يعيش الانسان عظيما ويموت عظيما . بل يبكيك لانك علمته كيف يكون الاخلاص للوطن فاخلص اليه في العهدين كما اخلص اليك فى الحياتين لانه عرف كيف يضحى حياته في خدمة وطنه كما عرف كيف كانت عظمتك ولا يعرف العظيم الا العظيم

وانه حق لشعب عظيم له روح منيعة . أو ليس من العظمة أن يسير على خطواتك في أعماله وعلى وطنيتك في اخلاصه وشعوره . شعب لا ينشد عرشاً ولا ينشد ملكا ولكنه ينشد عدلا وينشد مساواة كنت من أقوى العاملين على احيائهما ليحيي بهما وطنا هو في أشد الحاجة اليهما ويعيد بهما مجدا عالياً يهدم دعاة الوطنية الكاذبة أساسه المتين ليحفروا في رماله كما حفروا في القلوب بقتلك جراحا لا تضمد . وفي المدنية بصيحاتهم نغرات لا تسد . وفي التاريخ بأعمالهم الطائشة صفحة سوداء لا تحمد .

هذا هو الشعب المتفطر حزناً عليك أيها الراحل الجليل فقم من نومك الابدي وانظر حولك . قم تره شعبا لا يسقط الصلاة من شفتيه ولا يسقط العمل من يده . قم تره كما عرفته شعبا لا يرجفه هول ولا يثبط عزيمته في خدمة الاوطان قول بل قم تراه شعبا يعتقد كما كنت تعتقد ان وطنيته ملتصقة باعماله التصاقا شديدا فمتى زالت أعماله زالت وطنيته

شعب لا يحمل تاريخ سلالة أو تاريخ عرش فقط بل يحمل ذخائر تاريخ مجيد

كنت من أعظم المخلدين له والخالدين فيه فما ابقيت من بعدك أقوالا بل أبقيت قوة خزانتها العمل وأوتارها الجدونغماتها الحكمة . أبقيت درسا نافعاصورته اخلاصك لوطنك وسطوره آياتك في سياستك وان شعبا ضعيف الحول قوى العمل يفعل ويقوم بهذه الحفلات العظيمة وذلك التكريم الكبير لهو شعب حي يستطيع ان يسير بالبلاد كما سيرتها الى الطريق السوي الذي يهيئها الى الاستقلال المرجو والى الوطنية الصحيحة التي تعلمها من تاريخك وحفظها من هيا كل أجداده الاولين .

هيا كل ضخمة تلعب بالزمان . ويجول في عرصاتها الوحش والانسان جولان المتهيب النشوان . هيا كل ما اهتزت جوانبها اهتزازها بالامس لعظيم الاميركان . وهو يطوف في جوفها ذاكرا أمة دالت . وحضارة زالت وحكمة ولت وعلوما ذهبت . وفنونا فنيت ولا اهتزت جوانح ذلك العظيم اهتزازها لجريمة مصر ومقتل عظيمها الخالد سليل اباء ذلك التمدن وعميد الشعب الوطني الرصين .

اكبر العظيم خطب مصر العظيم وعرف موضع الثورة الكمين ومكان النار فقال الى هنا قفوا لا تحرقوا انفسكم بايديكم بل اطلبوا العلم القويم . أوجدوا الصناعة . اتقنوا الزراعة تخلقوا امة حية تعرف العدل والمساواة والاخاء لا أمة تخرج جنوداً جبناء في وقت الحرب واشراراً اشد جبنا في وقت السلم كهذا الشرير الاثيم الذي طعن مصر في صدر عظيمها الحكيم وحكيمها المرشد فأخر استقلالها اجيالا .

شهادة عظيم لعظيم وكلمة سياسي حي لسياسي راحل وحكمة حكيم مرشد من حكيم ذهب تفتخر به مصر وتحتفل بجنازه غدا كما احتفلت بتشييعه يوم وفاته وتخلد ذكره في تاريخها كما خلد ذكرها بين الامم والشعوب . فما اجمل هذه الذكرى وما ارفع هذه الخلود .

وان خلودا ياعظيم مصر وكبيرها يبقى مع الزمان . وذكرى حسنة يشهد بها العالمان . لهي أعظم فخر لامة انت من ابنائها . فنم مستريحاً في سريرك الاخير بين

اكاليل الزهور وتتابع الرحمات وان استبدلت وقار امتك لك بوقار الضريح وحركتها بسكون الموت . نم مستريحا فقد اغمضت عينين ما انفتحتا الا للنور وارحت جسما ما عرف الا الجهاد المقدس . نم مستريحا فان اسمين يحفظهما التاريخ وتحفظهما مصر بعد عهد الفراعنة الاول هما محمد علي و بطرس غالي فسلام عليه وسلام عليك ورحمة تبلل ثراه وتنعش مثواك

تحريراً في ٢٠ فبراير سنة ١٩١١

تم الجزء الثاني ويليه الثالث

obeikandl.com

بشرى بك حنا

Bochra Bey Hanna